رواية ...

عراقيّون أجانب

فيصل عبد الحسن

الأهلية للنشر

رواية
عراقيون أجناب

فيصل عبد الحسن

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف طبعت بمطابع دار النشر المحمدية /إقامة عبدالمؤمن رقم 6 شارع حمزة بن عبدالمطلب المغرب / الدار البيضاء
الطبعة الأولى 1999
الطبعة الثانية / 2021
رقم الإيداع القانوني 1110/99

" الأجناب تعني في قواميس اللغة العربية الأغراب، ولكن هذه التسمية – أجناب- جاءت على ألسنة أهلي في جنوب العراق بمعنى أولئك الذين أبعدوا عن ديارهم بالقوة الغاشمة، ولهؤلاء الأجناب فوق الأرض وتحت السماء أهدي هذا العمل الروائي.."

"هل لي أن أحلم يا مدينتي
بالرجوع ؟؟
لدارنا المطفأة الشموع
هل لي أن أحلم يا مدينتي
أن أعود...؟؟
فأوقظ المصباح
وأفتح الشباك للنجوم والغيوم
والرياح
وأترك المفتاح خلف الباب
للصوص
للزوار
للوعود.."

بلند الحيدري

الجزء الأول

"إنه رجل ربعة أميل للقصر، آدم شديد الآدمة، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها، ثقيل العينين في دعج
وسعة، حسن الوجه واضح البشاشة، أغيد كأنما عنقه إبريق فضة، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش السبع الضاري، لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجتا إدماجا، أبجر يميل إلى السمنة في غير إفراط، ضخم عضلة الساق، رقيق الكتفين، شنن الكفين، يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيته أجمعين..." (1).
تلك كانت صورة قلمية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كما وردت متناثرة في كتب الأقدمين، كُتِبَتْ بالخط الكوفي على ورق أصفر قديم وعُلِّقت في صدر حسينية (2) الجوابر (3).

- 2 –

في ذلك النهار المشمس تعالى أزيز إناث بعوض الأنوفيلس وذباب الجاموس الأحمر والأسود والفراشات الملونة في باحة الدار. لأول مرة تفتق بصر الصبي، ليرى الصورة الكبيرة المعلقة في الفناء، لم تكن أثناء ولعه الطفولي باللعب واللهو سوى إحدى معالم البيت الكثيرة المألوفة التي لا تثير فيه شيئا متعاطفا أو عدائيا، لكنه في ذلك النهار انفتحت بصيرته لترى الصورة الكبيرة، التي غُطي الجزء العلوي منها بقطعة قماش خضراء، وفي ثقوب الحائط رأى بقايا أعواد بخور وخرقة بيضاء معلقة، مملوءة بأشياء لا يعرفها: صورة كبيرة للإمام والسيف المفلوق عند نهايته إلى فلقتين يرقد في حضنه، والأسد الرابض عند قدميه كأنما كان يلعق شسع نعله، والحسن والحسين (4) عليهما السلام يجلسان إلى جانبيه وفوق الرؤوس الثلاثة طاقات نور وخلفهم نخلة وحيدة أخضر سعفها وسمقت فوق الربوة وامتدت السماء الزرقاء لتؤلف وحدة كونية هائلة، ولا أحد غير الثلاثة في تلك البقعة القاحلة. كان الصبي يعتقد إنها صورة قديمة لأحد أجداده، وكان يتساءل وهو يرى نظرات الأهل المستغيثة بجاه نور وجهه عند الله وقت المصائب والشدائد، وذلك السيف الأسطورة، الغريب في شكله الذي تشتبك على غمده أنامل الإمام، سمع قصصا كثيرة عنه من أصدقائه أثناء لعبهم في النهر أو على الحماد (5) القريب المرتفع، ذلك الذي أفنى الكافرين وقتل الحيتان الكافرة التي أرادت السوء بالرسول الكريم (ص)، ذلك السيف الذي سيحصل عليه في أحد الأزمان حفيده المهدي، الخارج من غياهب السراديب والاختفاء ليعيد مجد الإسلام. وفي ذلك الصباح الممتلئ بالأنوار وقف الصبي يتأمل، إن ما سمعه عن صاحب الصورة من روايات تؤكد له إنه لم يستشهد ولم يمت، إنه اختفى منذ زمن بعيد وسيعود، لقد نام لسوء أحوال الدنيا وسيصحو عما قريب لينقذ شيعته ومحبيه من العذاب والألم، ذلك ما قاله أبوه للرجال الجالسين عند الناصية، وعندما كانت أمه تكتشف وقوفه اللاهي أسفل الصورة يتملاها عميقا، كانت تنهره وتطلب منه عدم

النظر إلى أولياء الله الصالحين بهذا الشكل الوقح، وكان يطيع وينصرف. ولن ينسى تلك الروائح التي كانت تنثال من الحسينية القريبة أيام ذكرى مقتله: الدارسين، القهوة والبخور، في تلك الأيام التي تلبس فيها النساء الثياب السوداء، ويلطم الرجال على صدورهم بأكفهم. ولن ينسى أيضا الرجال المعممين القادمين من النجف (6) وهم يصعدون درجات منابر الوعظ الخشبية والناس تحت منابرهم يذرفون الدموع كلما أعادوا عليهم ما حدث للإمام الحسين (ع) (7) وأولاده وأصحابه وما فعله الكافرون بهم ذبحا وتقتيلا وسبيا. ولن ينسى تلك الأشعار المروية على لسان المعممين في مدح أهل البيت، تلك الأيام كانت أيام رخاء ودعة وسكون، وكان أبوه وأعمامه وأهل القرية يذهبون بمشاحيفهم (8) إلى عمق الهور ومساحاته المائية الشاسعة لاصطياد السمك في موسم صيد السمك واصطياد طيور: الرخيوي والحذاف وطيور الماء والدعيجي في الموسم الذي يليه. ولن ينسى زغاريد النساء ونداءاتهن على ضفة النهر وهي تستقبل مشاحيف الذاهبين والقادمين. لن ينسى ذلك الفرح الذي كان يعم القرية وقت المساء في موسم الصيد الكبير بعد صلاة العشاء في الحسينية عندما يجتمع أهل القرية في الساحة الواسعة وحيث تتعالى الضحكات وتتصاعد أدخنة مواقد اِصْطُنِعت في حفر الأرض وعلى ألسنة نار "المطال" (9) الزرقاء تشوى أسماك الكطان والبني الضخمة، ويشوى خبز "الطابك" (10) السميك. ويتناول رجال القرية العشاء في ذلك الخلاء الشاسع، على حصران السعف والبردي الممدودة، ثم يمضون الليل في شرب الشاي الأحمر ولف لفافات التبغ والتدخين والغناء يصدح من هنا وهناك، والحكايات تروى عن الأجداد والجنيات والحيوانات الخرافية التي كانت تمخر عباب الهور في الأزمنة القديمة، والصبيان يتوسدون أيديهم وينامون على الحصران، محدقين بالنجوم الوامضة المتخاطفة في الكون البعيد الذي يبدو في سماء القرية أكثر اتساعا وغموضا. كان ذلك الزمن بعيدا جدا ولا تستطيع اليوميات أن تلملمها في نسيج واحد، كأنما حدث كل ذلك في خيال وادي كعيد البلام وحده. وفي حقيقة الأمر، لم يجد أحدا من أهل قريته في غربته ليشاركه رواية تلك الأحداث التي حدثت..

- 3 –

علت الضجة في بيوت قرية الجوابر من أقرب بيت فيها حتى أقصاها، وكان ذلك يعني إن أحدا من أهل الجوابر عثر على طامورة (11) أحد الأولياء الصالحين في أرض السهل المحاذية للهور، وهرع الرجال والنساء، العجائز والشيوخ، الشباب والصبيان، حتى الأطفال الرضع كانوا يزحفون على بطونهم، فتحملهم أمهاتهم، كانوا يسرعون الخطى باتجاه الأرض المكشوفة، صوب الطامورة المكتشفة، بما يستغرقهم المشي ساعة أو ساعتين أو يوما كاملا، ولا يهم كل هذا العناء ماداموا في نهاية الأمر سيعثرون على الطامورة الجديدة المنسية. كانت الدموع تتساقط من عيون النساء وتخنق العبرة صدور الرجال الذين جلبوا مساحيهم ورفوشهم، وزنابيلهم لنقل تراب قبر الولي، وقرب "الطامورة" التي يستطيع الرجال الأكبر سنا في القرية معرفة كونها طامورة حقيقية أم أنها مجرد ربوة ترابية عالية صنعتها الأيام، أو مبنى قديم شيده العثمانيون أو الأنجليز، الذين توافدوا على البلاد وحكموها لفترات طويلة.

وبعد أن يتأكد شيوخ القرية من حقيقة الطامورة الجديدة، يجتمع الرجال في صفوف طويلة لتأدية صلاة الميت على روح الولي، فتتم تلك الصلاة والدموع تسفح من العيون والشفاه تلهج بالدعاء. وما أن تنتهي الصلاة يشرع الرجال بالحفر للوصول إلى عظام الولي وآثاره الأخرى: العصا والمسبحة وبقايا نثار الملابس القديمة والخاتم، وتُجمع الأشياء القديمة ويُصلى على الميت من جديد، ويسجل القيم على الحسينية في سجل كبير توارثه عن آبائه وأجداده مضمنا اسم الولي في مخطوطة قديمة لشجرة النسب لآل البيت وتاريخ ميلاده ويوم حبسه في هذه الطامورة حتى الموت. مئات بل آلاف الطامورات الضائعة أنتشرت في أرض الجنوب منذ أكثر من ألف عام، منذ العهد الأموي وحتى اليوم، تعاقبت الحكومات، حكومة بعد حكومـة، على ذبح آل البيت وصيد نسلهم وسجنهم أحياء في أقبية تحت الأرض ويقيمون عليها جدارا وسقفا لا كوة له ولا يمكن للولي أن يحفره فيموت إختناقاً، وإن وجد هواء مات جوعا وعطشا بعد ذلك. وكل ذلك ونسل علي (ع) باق ولن ينقطع، ذلك ما كان رجال القرية يكررونه في أحاديثهم، وبعد الدفن يشرع الرجال بإقامة ضريح للولي فيعمل رجال ونساء وأطفال القرية بإعداد الطوب ونقله، حتى لو اضطرهم ذلك للبقاء في ذلك العراء أسبوعا كاملا، كانوا يقسمون العمل بينهم، قسم يرجع إلى القرية لإعداد الطعام ونقله للعاملين، ورجال آخرون يصيدون في النهر، والنساء يهيئن الخبز، ويتعرى العاملون في الضريح إلى الوسط وهم يرددون أشعارا وأزجالا في محبة أهل البيت، والعبرة تخنق أصواتهم، والوحل الذي يستخدمونه في البناء يلطخ أجسادهم ووجوههم، وعند الانتهاء من إقامة الضريح يتم صبغ قبته باللون الأخضر، ويُعلق عليه بيرق أخضر إن كان نسل الولي يعود إلى الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)، أو بيرق أحمر إن كان نسل الولي يعود إلى الحسين (ع)، دلالة على أن الأول مات مسموما، والآخر استشهد مذبوحا على أرض كربلاء أيام عاشوراء. وبعد أداء كل تلك الواجبات، يتكأكأون حول القبر وهم يذرفون الدموع ويطلقون الآهات المحتبسة بحرية، وينتحبون بأصوات خفيضة.

- 4 –

في المدرسة الوحيدة التي يدرس فيها أبناء قرية الجوابر، كانت الحكومة تبذل قصارى جهدها لتزييف التاريخ عبر مناهج قديمة، وكان الأساتذة يأتون من المدن ويقيمون في المدرسة، وكان همهم الوحيد تحفيظ أولاد قرية الجوابر أشياء غير منطقية ولا تفيد. ففي حصة التاريخ التي يبرع في حفظها أبناء قرية الجوابر، يردد المعلم على مسامعهم أن الحسين كان بائعا متجولا للجراد في القصيم، وكان نشاطه التجاري يمتد إلى الأحساء وأهل هذه البلاد يحبون هذا اللون في أطعمتهم خصوصا حين يُقلى مع البيض ويوضع فوق الرز، ويصاب الأولاد بالدوار عما يعرفونه من معلومات أكيدة عن الثائر المسلم، الذي وقف ضد الظلم الأموي (12) وبين هذا التاجر الجوال، الذي حرصت الكتب المدرسية الحكومية على التذكرة بين الحين والآخر مستطردة، وبين قوسين إنه كان يتجشأ بين الحين والآخر ويعالج فطور قدميه بالحناء ومسحوق الصبير، وهو أول من استخدم هذه الوصفة العربية القديمة لمعالجة

الالتهابات في الأطراف. وحين بلغ بهم الدرس حكم الخلفاء الراشدين وجدوا في المتن التاريخي أن هناك ثلاث خلفاء فقط، أما الخليفة الرابع فلا وجود له. وحين يعدد الأبناء للآباء أسماء الخلفاء الواردة في كتابهم المدرسي لا تتضمن الخليفة الرابع، علي بن أبي طالب (ع)، وأنه حسب رواية الكتاب المدرسي لم يكن إلا واليا عاصيا لخليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان، وأنه بقي معتكفا في ولايته الكوفة يتعيش وعائلته الكبيرة من قطعة أرض صغيرة زرعها أمام دراه بالبصل، وكان كل صباح يحمل ما تنتجه مزرعته من البصل والكرفس ليبيعهما في أسواق الكوفة بعدما انقطع عنه راتب الخليفة بسبب عصيانه الأوامر، وأنه في نهاية عمره كان يأكل الخبز بلا أدام، ووجد الفرس المجوس (13) الفرصة سانحة لذبحه حين كان ذاهبا إلى السوق لشراء البذور لأرضه. وثارت البلبلة في القرية من أقصاها إلى أقصاها، واجتمع أهل الجوابر رجالا ونساء واتجهوا صوب هذه المدرسة التي تعلم أبناءها الكفر والضلال، ووقفوا بباب المدرسة وصرخ الحاج حسون وبيده مفاتيح الحسينية: " اَخرجوا ياكفرة، لنعلمكم من هو الإمام علي بن أبي طالب ومن هو الحسين عليهما السلام. اَخرجوا إن كنتم رجالا حقا"!.

وخرج للمحتشدين مدير المدرسة ببيجامته المخططة والمدرسون، فقال المدير وهو يحرك نظارتيه ويعدلهما خائفا:

ــ"ماذا حدث؟".

كرر الحاج حسون:

ــ"نريد مدرس التاريخ ليشرح لنا من أين جاء بهذا التاريخ الملفق الذي تعلمونه لأولادنا؟". وتعالى اللغط من الحشد، وأخذ بعض أطفال القرية يرشقون أكواخ المدرسة بالحصى والحجارة، ووقف أستاذ التاريخ أمامهم وقال مهدئا: ــ"إني أجعلهم يقرأون ما موجود في كتابهم المقرر!".

صرخ به الحاج حسون:

ــ"لا نريد هذا التاريخ المزور أن يدرس لأولادنا".

وأمام الثورة الغاضبة لأهل الجوابر وعدهم المدير أن يناقش الأمر مع معلم التاريخ وأن يقيما معا معلومات الكتاب التاريخية، وسيبلغ بدوره مدير المنطقة التعليمية بتلك الأخطاء، وتعلل المدير بأنه ربما كانت في الكتاب أخطاء كثيرة غير منقحة، والكتاب قد طبع منذ زمن بعيد دون تصويب للأخطاء المطبعية التي وقع فيها الكتاب. وقال له الحاج حسون بشكل حازم: "أن يتوقفوا في الوقت الحاضر عن تدريس الأولاد هذا الكفر!". فهز المدير رأسه موافقا، وانسحب أهل الجوابر راجعين إلى بيوتهم وقد امتلأوا بالرضى، وكان الأولاد فرحين لأنهم تخلصوا من مادة التاريخ الصعبة، وشاركوا في احتفال الخروج مهللين، لاعبين، كأنهم في موسم أحد الأعياد الكبيرة. وفي اليوم التالي، لم يتوقف المعلم عن تدريس مادة التاريخ، وطلب من التلامذة فتح كتبهم على موضوع الخلفاء الراشدين، وكتب على الموضوع في الكتاب الذي يمسكه بيده "ترك"، ففعل التلاميذ ما فعله الأستاذ، وقال لهم: "إن هذه المادة غير مشمولة بالدراسة أو الامتحانات في الوقت الحاضر!". وبلغ الأمر ببعض التلاميذ الأكبر سنا أن

انتزعوا الصفحات الخاصة بالخلفاء الراشدين من متن الكتاب وهم يتمتمون: "هذا أفضل من ترك هذه الصفحات الكافرة في الكتاب لتزيد حياتنا نحسا على نحس!".

وبذلك فقد نُسي الموضوع ورجع أهل الجوابر لهمومهم ومشاكلهم اليومية المعتادة التي لم تكن كبيرة بالمرة، وكانت أكبر هذه المصائب وأشدها تأثيرا على أهل الجوابر هو موت أطفالهم في سن مبكرة، ولا تخلو القرية في أي يوم من أيامها من وفاة وليد صغير أو طفل لم يتعد الخامسة، وكانت تلك مناسبة للرجال لزيارة البيت المصاب بفقدان ابنه أو ابنته للتعزية، وتزجية الوقت بشرب الشاي والقهوة والحديث عن موسم الصيد أو الزرع. أما الكبار في قرية الجوابر، فإنهم كانوا يعمرون طويلا وقد يصل عمر الرجل في القرية إلى المائة عام، والمرأة إلى الثمانين إذا تجاوزت سن الحمل والولادة، وإذا لم تتجاوزو تلك السن فإنها تموت في العشرين أو الثلاثين في ولادة متعسرة أو فقر دم مزمن أو لدغة أفعى أو بالسل. ولم تكن هناك مشاكل بين الناس، إذ كانت تربط أهل الجوابر أواصر القرابة والمصاهرة، وكل واحد منهم هو ابن عم للآخر، ويشتركون في الجد الثالث أو الرابع، وفي أبعد الأحوال يربطهم الجد الخامس. ولم تكن مسألة الحصول على المال من الأمور التي تقلقهم، فالمال لا يحتاجونه إلا حين يذهبون إلى المدينة، وكانت أقرب المدن إليهم العمارة والقرنة، لشراء الملابس والسكر والشاي والتبغ، أما ما يحتاجون من القمح فيتم شراؤه من القرى القريبة بمبادلتهم بالرز الذي يجيد زراعته أهل الجوابر. ولم يكن صعبا على ابن الجوابر أن يحصل على المال، فالنهر والهور على مرمى حجر من القرية وبإمكانه أن يأخذ الشبك أو الفالة (14) ويذهب ليعود بعدة أسماك سمينة وكبيرة ثم يتجه بما صاد نحو الطريق الذي يربط مدينة القرنة بالبصرة ويقف إلى جهة الشارع عارضا سمكاته على السيارات المسرعة على الطريق، وسرعان ما يبيع كل ما لديه من أسماك ويعود وفي جيب ثوبه مبلغ كبير لسد احتياجاته اليومية: السكر، الشاي، التبغ والملابس.

- 5 –

عند كل مساء مشحون بأزيز أجنحة البعوض والشعلات المرتعشة لزجاجات الزيت التي تضيء الصرائف (15) ومداخن "المطال" وأفواه التنانير المشعلة، تروي الجدات للأحفاد ما صادفه الناس أيام القحط والخير وأيام النكبات وحروب القبائل التي مرت على القرية وأيام الجراد الذي انتشر في السماء مثل الغيوم المعتمة ليأكل الأخضر واليابس، ويترك الناس جياعا ويرفع أغطية النائمين فيترك العروس وعريسها فرجة للأنظار، ويجتمع حول الأطفال حديثي الولادة فيأكل أنوفهم وينقر عيونهم ويزدرد أعضاءهم الجنسية، لقد أفنى الذكور وترك الإناث ولم ينقذ أهل الجوابر من شره سوى سيدنا علي عليه السلام، فيغمض الصغار عيونهم مصلين على الرسول وآل بيته، فقد أشهر سيفه المفلوق بوجه الغيوم السوداء، وأخذت تتساقط موجات الجراد من بين شفرتي السيف المصلت وطوال الليل كان يحصد فلولها، وكان الجميع في الصرائف يسمعون صليل سيفه، وسقوط أكداس الجراد، وفي الصباح وجدوا تلال الجراد تملأ المكان، فراحوا يجمعونها في أكوام كبيرة ويحرقونها حتى أن صباح القرية أصبح ليلا

معتما بفعل تلك الحرائق والأدخنة العظيمة التي لها رائحة الشواء الحريفة. وفي هدأة الليل يندس الرجال قريبا من زوجاتهم، محاذرين أن يوقظوا العائلة التي تنام جميعا في مكان واحد: الجد والجدة، الأب والأم، الأخ والأخت، ولا يفصل المتزوجين عن باقي أفراد العائلة غير ناموسيات (16) من قماش أبيض خفيف لا تخفي شيئا مما يحدث بين المتزوجين ليلا أو تمنع سماع ما يهمسون به!. وتروي الجدات عن رجال القرية الذين ماتوا ولم يموتوا، فهم يظهرون في المواسم والأعياد بأثوابهم البيض ولحاهم الطويلة ومسابحهم السوداء، يحملون من الدار الآخرة العطور وأعواد البخور، ورسائل الأهل الميتين ووصاياهم، ولا يستطيع الميت مغادرة الدار الآخرة إلا إذا كان صالحا ويحبه آل بيت الرسول "ص"، ويجتمعون بعد منتصف الليل عند الصالحين من أهل القرية ليصحبونهم إلى عالمهم الرحب، تاركين الأجساد الضعيفة ممزقة كالأثواب الضيقة المنزوعة ليدفنها الرجال في الصباح ويقيمون المعازي على أرواحهم!. وينام الصغير على رفيف أجنحة البعوض وحكايات الجدات وعواء كلاب القرية التي تحرسها بعيون مفتوحة، مستعدة لمطاردة أي ذئب يحاول الاقتراب من بيوت الدجاج والدواب في الزرائب، والقرية معروفة بكلابها التي تناسلت منذ القدم لتلد كلابا هي أقرب في أشكالها للذئاب المتوحشة، المستوفزة دائما، التي لا تترك صغيرة ولا كبيرة إلا ووثبت باتجاهها، محاولة كشف سرها وتمزيقها بين المخالب والأنياب المدببة، وغناء هلال المجنون الذي ينام نهارا في إحدى الزارئب ويبقى في الليل مستيقظا يغني أشعارا لا يعرف أحد كيف حفظها، هائما في دروب القرية والكلاب تهرُ له وتلعب معه، فهي تعرف وليفها الليلي الذي يشاركها جولاتها في ظلام الدروب ومكامن الاختفاء.

- 6 –

بدت بنات الجوابر أجمل البنات في العالم قاطبة في نظر زوار وشعراء جاءوها من خارج القرية في مناسبات عديدة، وحملت قصائدهم التي كانت تُغنى على الربابة أو بمصاحبة الناي، إنها كانت تتحدث عن العيون الزرق والخضر، والصدور الناهدة والشعر الأشقر المسترسل، وبياض الوجوه الذي يشبه الحليب، ولها هيئة البدر، كأنما تقول لك الشفاه القرمزية: "رتبت فراشي على ذكريات الليل، لم أوقظها، غطيتها بلحافي وعند المساء وسعت لجسدي بينها مكانا!"، أو وهي تمس ثوبها الجديد كأنما تقول إنها اشترته البارحة من بائع جوال لأجل أن تراها جميلة وأنيقة، ولكم من الملذات ستبذلها لك لو كنت زوجها!. لقد عمد رجال الجوابر على الزواج من الجميلات، وإذا تطلب الأمر ذهبوا عابرين الحدود صوب إيران، ولم تكن المسافة بعيدة، ساعة في النهر وبعدها نصف ساعة مشيا على الأقدام، حيث يصل الرجال قرية "نواز" (17) الإيرانية، وترتبط القريتان بروابط مصاهرة قديمة، والرجل من الجوابر لا يزوج ابنته من إيراني مطلقا، بل جرت العادة أن يتزوج رجال الجوابر الإيرانيات لقاء كميات من الشاي والسكر وبضعة قطع ذهبية ويتم عقد القران في نواز ويعودون متزوجين إلى قرية الجوابر، فتقام الأفراح التي تستمر عدة أيام، وولدت نتيجة هذه الزيجات أجيال من الإناث والذكور في القرية واختلط فيها الدم العربي بالدم الآري، وتواشجت الصفات فأخذت وجوه

الذكور لون الأب الأسمر ولون عيني الأم الأزرق أو الأخضر، وامتلأت القرية بأصحاب الأجسام الضخمة، الجبلية والنفوس بجسارة العربي وأنفته، ومقدرته على تحمل الصعاب، وعدم سكوته على الضيم، وشدة بأسه في العراك وطول أناته، وصبره العجيب على المكاره والمحن ؛ كانت القرية مزدانة ببناتها ونسائها الجميلات ورجالها الأقوياء الممتلئين نخوة وشهامة، وكانت حكايات الحب والعشق قليلة في القرية، وذلك أن الجميع يعملون معا، شابات وشبابا، رجالا ونساء، ويمكن لأي شاب أن يختلي بأية فتاة وأن يلهو معها ويطلبها زوجة له من أهلها فيجاب طلبه، وليس من عادة أهل الجوابر أن يلهو الشاب مع الفتاة ثم يتركها لغيره، ذلك كان عارا أبديا لا يجرؤ أحد على ارتكابه، لأن الجميع كانوا أبناء عمومة، وكل فتاة هي ابنة عم، وابنة العم كالأخت، وتلك ميزة يقدسها أبناء الجوابر، ولم يحدث أن اقتتل اثنان من أجل فتاة واحدة، فالقرية تعج بالفتيات الجميلات حتى إن عددهن كان يفوق بكثير عدد الذكور، ولم تكن القرية توافق مطلقا على زواج بناتها خارج القرية مطلقا، ولم تقع واقعة من ذلك القبيل على مر السنوات، أو كما يقول الحاج حسون: "خيرنا لأولادنا وبناتنا!"، ولم يبق إلا شعر الشعراء الذين مروا بالقرية متسكعين في مناسبات عديدة وصرعتهم عيون البنات، وصدورهن المتوثبة، وأجسادهن التي التصقت عليها الأثواب وهن يؤدين عملهن في الحقل، فبقي شعرهم على ألسنة أهل القرية، واختفى المتسكعون في ذات الدروب التي سلكوها عند دخولهم القرية لأول مرة أو أثناء الصيد في مياه الهور والاختلاط بالمعدان، وبقيت قصائد المعدان هي الأخرى معلقة في الهواء يرددها الرجال هنا وهناك، ويذكر أهل الجوابر دون حرج أسماء الجميلات المقصودات في هذا البيت من الشعر أو تلك المقطوعة من الزجل!.
وحين تتزوج فتاة في القرية فإنها تتحول إلى وقف ممنوع لا يمكن الاقتراب منه أبدا، حتى إذا مات زوجها زوجوها أخاه أو ابن عمه، فعرض (18) الأسرة لا يمكن جعله عرضة للغرباء، وبعكس قرية المعدان التي تبعد عشرة كيلومترات في مياه الهور، حيث تضيع تلك القيم هناك وتعامل الفتاة مثل الجاموسة، وتباع كما يباع أي شيء في الدنيا ولا يُسأل عنها بعد قبض الثمن أبدا!. في ذلك اليوم الذي رجع فيه جاسم العطية بعد أن غاب في المدينة خمس سنوات وعاد إلى القرية يلبس البنطلون والقميص، وقد أطال شعر رأسه، وحمل معه حقيبة مملوءة بالكتب الصفراء، كان جاسم يحلم بالعيش في المدينة وما أن جاء من يشتري حصاد الرز قبل خمس سنوات، فبذل كل ما في إمكانه ليصحبونه معهم إلى المدينة، قال له أبوه بعصبية: "إذا ذهبت إلى المدينة فلا أنت ابني ولا أنا أبوك!". ولم يستمع لأبيه، وانقطعت أخباره منذ ركب في تلك الشاحنة الكبيرة التي تحمل أكياس الرز. وضعوه مع تلك الأكياس التي امتلأ به حوض السيارة.

1- جمعة اللامي، التراجيديا العراقية، طرابلس-ليبيا، 1982.
2- جامع صغير يسمى باسم الحسين بن علي بن أبي طالب (ع).
3- قرية كبيرة في جنوب العراق بين القرنة وقلعة صالح.
4- ولدا علي بن أبي طالب عليهما السلام.
5- الأرض المنبسطة.

6- محافظة في العراق فيها مرقد علي بن أبي طالب (ع).
7- الحسين بن علي (ع).
8- زوارقهم.
9- دمن الركائب المجفف.
10- خبز يعد من دقيق الرز.
11- مبنى تحت الأرض يُبنى على المسجون حتى يقضى موتا. ابتدع ذلك الأمويون وبعدهم العباسيون لإبادة العلويين.
12- ثورة الحسين بن علي بن أبي طالب ضد خليفة الأمويين يزيد بن معاوية وفشل هذه الثورة ومصرع الحسين وأصحابه عليهم السلام.
13- نسبة للديانة المجوسية للأقوام الفارسية في العهود القديمة التي سبقت الإسلام.
14- الفالة تشبه الرمح بنهايات مدببة وتستخدم لصيد السمك.
15- جمع صريفة، والصريفة هي كوخ يقام من تجميع أعواد القصب.
16- قماش خفيف يكون على شكل خيمة، وتوضع على أسرة النائمين لحمايتهم من قرص البعوض.
17- قصبة إيرانية صغيرة تقع قريبا من أهوار البيضة والسودة، القريبة من الحدود العراقية الشرقية.
18- شرف الأسرة.

الجزء الثاني

- 7 –

عند رجوعه من غربته في المدينة زاره رجال قريته لرؤيته والسلام عليه، وبالرغم من أن أباه كان مسرورا بهذه العودة، لكنه لم يعلق بشيء صراحة وتركه كأنما لا يراه، وعندما رجع الناس من زيارته، سرت شائعة في القرية بأن جاسم عاد من المدينة كافرا، وأنه تحول إلى شخص شيوعي، ولم يكن أحد في القرية يستطيع أن يفرق بين كلمة شيعي وشيوعي، حتى إن الرجال الكبار في السن تساءلوا بحيرة عن الفرق بين الكلمتين، وأن الاسمين لا يختلفان إلا بحرف الواو الزائد في الاسم الثاني، وهي غلطة في النطق ليس إلا، وربما أن ذلك الواو يزيد من شيعية(1) الشيعي ويجعله أكثر تمسكا بآل بيت رسول الله(ص). ولكن من اطلع على أمر جاسم ورأى الكتب التي يحملها وما دار بينه وبين الباقين من نقاشات، اكتشف أن الفرق ليس حرف الواو وحده، بل هناك من الفروق كالمسافة بين السماء والأرض!. في البداية ضحك الجميع من هذه البدعة الجديدة، ونظروا إلى جاسم العطية وهو بالبنطلون الضيق والقميص المزركش وتساءلوا بينهم وبين أنفسهم ألا يخجل ابن العم الضال هذا عما يفعل بنفسه، وتمنت النساء والبنات قماشا ناعما كقماش قميصه ليفصلنه أثوابا لهن استعدادا لعيد الأضحى القادم!. وقام جاسم بعد عودته بأيام بتوزيع منشورات صفراء مطبوعة بكلمات كبيرة سوداء على بيوت الفلاحين والصيادين من أهل الجوابر، وطلب منهم قراءتها وهو يعلم أن معظمهم لا يعرفون القراءة والكتابة. وأخذ عند نهاية كل شهر يمر على البيوت ويطلب مالا وبقدر الإمكانية، لغرض إرساله إلى الحزب في المدينة. ولم يكن أحد يعرف ماذا يعني الحزب وما فائدة هذه الدريهمات القليلة التي يجمعها جاسم من كل بيت، وكان الناس يعطونه هذه الدراهم رأفة بحاله، لاعتقادهم أنه قد أصيب بمس من الجنون وعليهم تطييب خاطره، فهو لا يعي ما يفعل وعليهم أن لا يكسروا خاطره ويعاملوه على قدر عقله وما به من لطف، وكان هلال المجنون يشاركه في جولاته بالرغم من محاولات جاسم العقيمة لإبعاده عنه، مما جعل تهمة جنون جاسم العطية تصهل في أفواه الناس، وحالما يختفيان من أمامهم يسألون الله أن يشافيهما ويرد لهما عقليهما. وأخذت الحماسة جاسم العطية يوما فحمل قطعة كارتون لا يعرف أحد من أين حصل عليها وخط عليها بقطعة فحم وخط ركيك "هنا مقر الحزب الشيوعي"، وأسفل ذلك كتب "ياعمال العالم اتحدوا!". ولم ينس علامة التعجب التي رسمها رسما دقيقا، وعلق تلك الكارتونة في باب المضيف، وطيلة الوقت كان هلال المجنون يراقبه، وكان قبل أن يصاب بالجنون من طلبة العلم في النجف، وكان وهو في جنونه حافظا للنحو

العربي ويتحدث العربية الفصيحة مع هزة في الرأس، وتحريك للحروف وتخريج للألفاظ بشكل سليم، فقال وهو يراه يعلق قطعة الكارتون:

ــ "يا مجنون قريتنا!.. هلا تفضلت علينا بعناقٍ؟".

صرخ به جاسم العطية أن يذهب إلى حال سبيلِه، فأطاعه هلال وهو يهز رأسه ويده متبرما وذهب صوب دكان كعيد البلام، وشاءت المصادفات أن يكون الكثير من ضيوف والد جاسم في المضيف وقد قدموا إليه من البصرة لتسوية خلاف عشائري(2) قديم. ومرت في عصر ذلك اليوم سيارة شرطة مسلحة تبحث عن المهربين عبر الحدود مع دولة إيران، فأُصيب الضابط الذي يقود الدورية بالدهشة وهو يجد نفسه فجأة أمام مقر للحزب الشيوعي كما تشير اللافتة "الكارتونية" المعلقة في مقدمة المضيف(3)، وهو الحزب الوحيد الذي تمقته السلطة وتناصبه العداء، وتصفه بالكفر والعمالة للأجنبي، بل تجعله في صف واحد مع الخائنين والمجرمين، فأمر الضابط شرطته أن يتهيأوا للقتال فقد كان المضيف مملوءا بالكوادر الحزبية، وقد بدا على سحناتهم التعب والإرهاق، ويوحي منظرهم أنهم من قيادات الحزب "كان الضيوف من كبار السن وقد بدت على وجوههم آثار تعب الرحلة من الجنوب حتى بلغوا مضيف العطية. وكانت العادات ومازالت أن يلبس المسافر من مدينة إلى أخرى خير ملابسه وأكثرها جدة وفخامة. وبالفعل اتخذ رجال الشرطة وضعية الهجوم، وتقدموا من المضيف، وبشكل غير متوقع استسلم الجميع للشرطة دون قتال، وهم لا يعرفون ما هي القضية وما هو ذنبهم لكي يُلقى عليهم القبض بهذا الشكل. ولأن السيارة المسلحة لم تكن تكفي لصعودهم، فقد أمر الضابط بربط أيدي الرجال بالحبال وجعلهم يركضون خلف السيارة المسلحة لمسافة تزيد على ثلاثين كيلومترا، عراة الرؤوس، وقلوبهم الخائفة تنبض عنيفا، وكانوا يسألونه عن ذنبهم فيجيبهم كاظما غيضه إنهم سيعرفون ذلك في مركز الشرطة، حتى أوصلهم بعد رحلة مضنية إلى أقرب نقطة شرطة وطلب من مفوض النقطة التحفظ عليهم حتى عودته من مأموريته، ويبدو أن جاسم العطية كان قريبا من المضيف ورأى هجوم الشرطة على ضيوف والده، لكنه خاف أن يظهر للشرطة فيعتقلونه، فسارع بالسفر إلى العمارة(4) مستوقفا شاحنة تحمل الأغنام والأبقار، طالبا من السائق نقله إلى المدينة بأي مبلغ يشاء، فأشار له السائق بالصعود مع الأغنام والأبقار، وكانت نيته إخبار الحزب في المدينة عما حدث، موهما حزبه أنه استطاع كسب كل هذا العدد الكبير من الفلاحين، وأنهم كانوا يؤدون دورة تثقيفية حين داهمتهم الشرطة واعتقلتهم، وأنه بقدرة قادر استطاع أن ينجو من الاعتقال لإبلاغهم بما حدث، وسارع الحزب بإصدار بيان شديد اللهجة مهددا الحكومة التي اعتقلت المناضلين في قرية الجوابر، وإن اعتقالهم لن يمر دون عقاب!. وحين وقع البيان الأصفر بيد أمن الحكومة، أصبح موضوع الضيوف المحجوزين في مركز الشرطة منتهيا، ولم تستطع أية قوة في الأرض أن تمنع من الحكم على المساكين بسنوات طويلة من السجن والأشغال الشاقة، ونقلهم تحت حراسة مشددة إلى سجن العاصمة المركزي ومنه بعد ذلك إلىنقرة السلمان(5) الرهيبة وسط الصحراء، حيث تعلم الفلاحون هناك بفعل معايشة كوادر الشيوعيين المسجونين ماذا يعني الديالكتيك المادي والتاريخي، وماذا تعني كومونة باريس ودولة العمال والفلاحين!

- 8 –

بعد هذه المصيبة التي هزت قرية الجوابر، بقي جاسم العطية مختفيا ولا يستطيع الظهور في القرية. ثم استطاع الحاج حسون أن يجد من يوصل الخبر له بضرورة حضوره إلى الحسينية ليناقشه وجوه القرية بوضع حد لكل هذا الذي يحدث في القرية، وما حدث بالأمس سيحدث في الأيام المقبلة ولا يعلم إلا الله من ستكون الضحية القادمة. وقد جاء جاسم العطية للاجتماع بالرجال في الحسينية وهو يتلفت يمينا وشمالا، وبقي أبوه الذي هدته الفضيحة طريح الفراش لفترة طويلة، وقد أنقذه من الوقوع بأيدي الشـرطة مع الضيوف أنه وقت مجيء الدورية كان ذاهبا إلى أطراف القرية لإستدانة كبش من ابن عم له هناك لذبحه لغداء الضيوف، وكذلك خدمته المصادفة أن ضابط الدورية كان مستعجلا واكتفى بالعدد الكبير من الرجال الذين اعتقلهم. وقد وعد الأب من يمسك ابنه جاسم ويصطحبه له بعطية لم ينل مثلها من قبل، حتى يؤدبه عما فعل، وفي الأقل، حين يسمع أهل المسجونين ما فعله بابنه جراء فعلته المخجلة، يعذرونه ولا يعتقدون أن له يدا في ما حصل لأهلهم في مضيفه!..

- 9 –

جلس الرجال في مضيف الحاج حسون بانتظار جاسم بدلا من الحسينية بسبب خوف جاسم من أن تكون مراقبة من قبل الشرطة، وأبلغ ذلك الوسيط ليبلغ بدوره الرجال، وبعد طول انتظار جاء جاسم من مكمنه بلحية نامية ووجه أصابه الهزال، وقميصه المزركش قد انكمش وظهرت على بنطلونه الضيق خرائط الملح، وسلم عليهم فردا فردا، وقدموا له القهوة والماء، فأخبرهم أنه لم يتناول طعاما منذ يومين فكيف يستطيع شرب القهوة؟، فطلبوا له طعاما، وحين أحضروا الطعام طلب رأس بصل أخضر، فأتوا له بما طلب، فأكل حتى شبع، ثم شرب قهوته وقال: "ماذا تريدون؟!".

قال له الحاج حسون غاضبا:

ــ "بل أنت أخبرنا ماذا تريد؟!".

زم جاسم حاجبيه:

ــ"أنا جئت لكي أرفع الظلم عن الفلاحين والصيادين وأوقف الاستغلال الحاصل في قريتنا لهم..".

وبالرغم من عدم فهم الحاج حسون للشطر الثاني من جواب جاسم، إلا أنه أجاب بما فهم من كلامه، فقال: "يا ابن أخي أي ظلم تتحدث عنه، كلنا فلاحون ونعمل في أرض الله الواسعة والحصاد نتعاون فيه جميعاً ولا مالك للأرض غير الله، ونوزع غلة الأرض بيننا، أما الصيد فكل واحد منا يأخذ شبكه الخاص أو مع جاره، فيرزقهم الله ويتقاسمون عن رضى ما حصلوا عليه، وأنت تعرف كل هذا، فأين الظلم يا ابن أخينا؟". وحار جاسم العطية في الإجابة، وهو على يقين تام بصحة ما قاله الحاج حسون، لكنه قال مكابرا:

ــ "ألا تنظر حال الفقراء في قريتنا؟".

قال الشيخ جلال:
ــ أخبرنا أسماء هؤلاء الفقراء؟".
فكر جاسم طويلا قبل أن يجيب، ففي حقيقة الأمر لم يكن في القرية فقراء ولا يجدون قوتهم!. لكنه قال:
ــ "غافل الحسون مثلا!".
قال الملا قنبر: " رجل كبير في العمر وليس لديه ولد يعاونه في الأرض، ولا يستطيع أن يصيد، فهو لا يجد مصدرا لرزقه، ولكن أهل القرية الذين يعتبرونه عما للجميع قد تكفلوا به وبامرأته الضريرة!".
وقاطعه الشيخ حسون: ــ "ومن هذا اليوم سنحمل لاخينا غافل الحسون من كل بيت في القرية ما يكفي لجعله أغنانا، فهل بقيت عندك حجة؟!".
لقد أخبر مسؤوله في المدينة أن قريتهم أكثر شيوعية من موسكو ذاتها!، ولكن لم يصدقه أحد، أخبرهم أنه رأى بعينيه كيف يزوج الأب إحدى بناته من ابن جاره الفقير الذي لا يستطيع تكاليف الزواج، ويشتري لهما أثاث العرس، ويبني لهما صريفة الزواج، أليس ذلك أفضل مما يحدث بين الشيوعيين في موسكو؟، ألم ير بعينيه كيف يقتسم أبوه ما صاد من الهور من طيور وأسماك مع أبعد جار لهم في القرية؟، أو كيف يشتري جده القماش لأبناء قريتهم وأحدهم بالذات الذي ابتلي بكثرة العيال؟، وكيف أن مصائب القرية تُقسم بالتساوي على رؤوس الجميع، وأن الصريفة التي تحترق تتم إعادة إقامة غيرها بأيدي أهل القرية ويضيفون للبناء شيئا جديدا ويتكاتفون جميعا على تأثيثها؟، أنسي أن أفراحهم وأتراحهم واحدة؟، وأنهم مشمولون بالخير والشر، متعاونون في المصائب والكوارث وأوقات الشدة؟.
قال جاسم العطية وهو يطرق خجلا:
ــ"لقد أخبرتهم في المدينة أنكم كلكم شيوعيون، ولا يفعل الذي تفعلونه إلا الشيوعيون، ولكنكم لا تعترفون بذلك ليرتاح الحزب، ويتوقفون عن إلحاحهم علي كل يوم بضرورة كسبكم إليهم!".
قال الحاج حسون وهو ينتف لحيته مستفزا:
ــ "أتريد أن تضعنا في السجن مثل ضيوف والدك، اَسْتر علينا، كلنا أعمامك وأخوالك وأهلك، أتريد أن تحرقنا الحكومة أحياء، ويقولون عنا لم يكتفوا بشيعيتهم البغيضة فصاروا شيوعيين!".
وهنا لمعت الدموع في عيني جاسم العطية، ولأن الرجال في قرية الجوابر لا يبكون علنا، تركهم جاسم وخرج من المضيف متجها صوب الهور، منتحبا بصوت عال، وردد الملا قنبر: "لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد أُصيب بالعين!". وفتح بعد ذلك الحاج حسون سجل القرية الكبير ودون فيه ما دار بينهم وبين جاسم العطية ووعودهم له، وقرأ عليهم ما دونه ليبصم الرجال شهادتهم على ما دار. وطلبوا منه أن يقرأ لهم ما كتب عن الطامورة التي تم اكتشافها قبل أسبوعين، فقرأ بعد البسملة والصلاة على الرسول وآل بيته وتحديد الزمان والمكان: "أبلغ حسين بن جويد، والبالغ من العمر عشر سنوات أهل القرية باشتباهه، أنه وجد طامورة أثناء رعيه لماشيته، وترك الساكنون أشياءهم وأعمالهم وتجمعوا وتبعوا الصبي، كانوا جمعا

كبيرا من النساء والأطفال والشيوخ، وبعد مسيرة ساعة في الأرض إلى الشمال من القرية، وجدوا ما يؤكد وجود الطامورة واجتمعوا حولها، وذهب الحاج حسون مهنا الدياح، ونفر من الرجال لإحضار التابوت والكفن، وبعد عودتهم دخل السيد مهنا الطامورة بعد رفع الجزء الأعلى من سقفها، فصرخ وهو يلطم رأسه بكفيه مَادًّا رأسه من الفتحة: "إنه من آل البيت!، هناك بقايا عصا وخاتم، والخاتم عليه الاسم والنسب!"، وهو الدليل المعروف بأن المحبوس كان من آل بيت الرسول(ص)، وتمت مراسيم دفن العظام والبكاء عليها كما يوجبه الشرع من وضع الرأس جهة القبلة، ووضع التراب في فتحة الفم والأذنين، والتشهد بوجه الميت يرحمه الله، وإقامة وليمة على روحه في الحسينية مساء، بعدها تمت إقامة صلاة الغائب والدعاء إلى الله أن يغفر للمسلمين وينتقم من المجرمين الذين لم يرعوا عترة الرسول وآل بيته صلى الله عليهم وسلم، وبصم الحاضرون على الواقعة المكتوبة، وأعاد الحاج حسون السجل إلى مكانه إلى جانب المصحف الكريم.

- 10 –

كانت قرية الجوابر بقعة نائية لم تظهر على خارطة الوطن، ولكن بحكم قربها من الحدود الإيرانية، يجيء إليها رجال معممون من إيران يطلبون المساعدة، فتجمع القرية ما تستطيع جمعه لإخوتهم الشيعة في إيران: السكر والرز والشاي والقماش. وكان الوافدون يمضون عدة أيام في ضيافة أهل الجوابر، وكان أغلبهم يتحدثون العربية ولكن بلغة ركيكة وأصوات غريبة، وكان أطفال القرية يحاولون تقليد كلامهم المعوج فيضحك الرجال. وفي يوم شتائي بارد، جاءت مجموعة منهم، وفعل أهل القرية معهم ما يفعلونه مع غيرهم من الوافدين، ونقلوا إلى الجانب الآخر من الهور نصف المساعدات، أما النصف الآخر فقد أرسله أهل القرية مع كعيد البلام الذي تبعهم في اليوم التالي، فرجع إلى القرية والخوف يكاد أن يشل لسانه، استوضحه الرجال، فأخبرهم أنه وجد المعممين الذين كانوا أكثر من عشرين رجلا مذبوحين جميعا، ومرمية جثثهم على ضفاف الهور والذئاب أكلت من جثث بعضهم، واستنفرت القرية رجالها وهرعوا بمشاحيفهم إلى الجانب الآخر من الهور، حيث الأرض الإيرانية، ووجدوا المجزرة: العمامات السوداء المتطايرة هنا وهناك، التي مازالت ملفوفة والأخرى المفتوحة كشرائط سود، معلقة على صفوف القصب النامي وقد لوثها الدم المتخثر وتجمع عليها الذباب الأزرق، الأحذية التي تناثرت على الأرض الطينية وقد علاها الوحل وامتلأت بالطحالب، الرؤوس الملتحية، المذبوحة، والذباب الأزرق يتطاير حولها، والأجساد بقفطاناتها(6) البيض بلا رؤوس، بعضها منتفخ الأجساد، والآخر قد طُعن بالحراب أو رُمي بصليات الرصاص، ووجد الرجال آثار عجلات سيارات عسكرية، وعرفوا أن حكومة الشاه(7) هي من فعل ذلك بإخوتنا من علماء الشيعة في إيران، فحفر الرجال حفرة كبيرة في الأرض القريبة ودفنوا الشهداء بعد أن صلى عليهم الرجال، وجمعوا الرؤوس في حفرة أخرى قريبة من الحفرة الأولى، فقد كان الرعب يشل الأيدي ويربك العقول، ولم يكن بالإمكان معرفة عائدية الرأس لأية جثة من الجثث لدفنها مع رؤوسها، وبسبب أن أهل الجوابر لا يريدون التمثيل بالموتى دون قصد منهم بدفنهم

الجثة مع رأس لا يخصها، فقد وصلوا إلى هذا الحل بفطرتهم، فأخذ الرجال يعملون وألسنتهم تتمتم بلاحول ولا قوة إلا بالله، وقد وضعوا شماغاتهم حول أنوفهم للحؤول دون شم رائحة التفسخ القوية، وأتموا الدفن قبل أن تميل الشمس للغروب، وانسحبوا بعد ذلك عائدين إلى القرية، فوجدوا إخوانهم المتبقين في القرية قد أقاموا مجلس العزاء على أرواح المقتولين، وخلال ذلك قرأ الملا قنبر الفاتحة على أرواح الشهداء وأتى بذكر أيام عاشوراء وما جرى للحسين الشهيد(ع) وآل بيته الأطهار، وعرج لما يحدث للشيعة في كل زمن ودهر من تقتيل وتذبيح وظلم لهذه الطائفة، وسفحت الدموع من عيون الرجال الجالسين في الحسينية، وقال الملا إن دماء طائفتنا مبذولة للجميع!، يذبحهم من يشاء ووقتما يشاء، وكل الحكومات السابقة واللاحقة، وفي كل الدول المجاورة لنا والبعيدة، تختلف في كل شيء ولكنها تتفق على قتل الشيعة!، وإنها عازمة بما يشبه الاتفاق على إنهاء هذه الطائفة، وتساءل في نهاية الخطبة لماذا يفعلون ذلك بالشيعة دون غيرهم؟، وصرخ بصوت عال: "ألسنا موحدين؟، أليست قبلتنا بيت الله المطهر في مكة المكرمة؟، ألا نقول في اليوم الواحد خمس مرات لاإله إلا الله وإن محمدا عبده ورسوله؟، يتركوننا في بلادنا دون أن نتعلم تعليما عاليا، ولا عناية صحية، هم قد عقدوا العزم على جعلنا خدما في منازلهم، وجنودا نحارب عن الجميع في حروبهم، ونموت هنا وهناك في السجون والمعتقلات ذبحا وعزلا ومرضا وغربة، وتحت الأرض التي نسكنها منذ القدم خيرات النفط التي أغدقها الخالق"، ثم رفع رأسه إلىالسماء وأشار بكفه إلى الأرض: "أنت تعلم يا ربي إنهم يتمتعون بما رزقتنا!، ويحرموننا الماء الصالح لنشرب، إنهم يتركوننا نشرب من مياه الهور كالبهائم ودواب الأرض، وندفن أطفالنا كل يوم في بطن الأرض لأنهم لا يجدون طبيبا لمعالجة الملاريا أو فقر الدم الذي يعانون منه!. وتوسل إلى الله أن يظهر صاحب الزمان، المهدي عليه السلام ليقيم العدل على الأرض ويقتص من القتلة، فتعالى اللغط والهمهمة بين الرجال، وانفجر هلال المجنون ببكاء مر، وحاول الرجال إسكاته ولكن دون فائدة، وحين ألحوا عليه بالسكوت، وقف وقال: "سأذهب، ولكنني أقول لكم لقد ضاع الحق!، وأخذ يردد بصوت عال وهو يترك المعزى: "نعم ضاع الحق!". تساءل الحاج حسون وهو يمسد لحيته: "وما العمل يا ملا قنبر؟". وبعينين صافيتين أجاب الملا: "مثلما ذبحوا إخوتنا الإيرانيين دون ذنب أو جريرة، سيذبحوننا في يوم من الأيام، فالتكالب على ذبحنا يتم في كل بقاع الأرض في إيران والعراق وبلاد الشام وبلاد الهند والباكستان، حتى في تركيا يفعلون ذلك، وأرى تباشير هذا اليوم الرهيب قريبة"!.

كرر الحاج حسون بإصرار: "وماذا نصنع لنجنب أولادنا ذلك المصير، وليس لنا من يحمينا؟".

قال الملا قنبر: "نشتري السلاح لندافع به عن أنفسنا وقت الشدة، فقد أباح الإسلام الدفاع عن النفس والذود عن العقيدة!". ومنذ ذلك اليوم أصبح ولع رجال القرية باقتناء السلاح لا يعادله ولع آخر، وأنبرى لهذا العمل رجال القرية الأشداء أمثال كعيد البلام وسوادي العبد وريسان الفهد، فكانوا يُهربون السلاح من المدن ويشترونه من مستودعات الجيش ويبيعونه في القرية، وخلال شهور قليلة أنتشر السلاح في القرية من المسدس إلى رشاشة الفيكرس سريعة

الطلقات، بل إن بعض أهل القرية كانوا يمتلكون قنابل يدوية لا يعرفون استعمالها ولكنهم كانوا يحتفظون بها ليتعلموا في يوم ما كيفية استخدامها!.

- 11 –

تبدأ حمى أيام عاشوراء التي تصيب أبناء الشيعة في كل مكان على ظهر الأرض قبل الشهر بكثير، فيحلق الرجال المنذورون بضرب "القامة"(8) رؤوسهم، وترتفع الرايات السود على كل صريفة في قرية الجوابر، وترتدي النساء الملابس السوداء، وتشحذ "القامات" بأحجار المسن، وتُلمع أنصالها وحافاتها حتى تصبح حادة. ستسيل عليها دماء الرؤوس التي امتلأت بحب الحسين وآل بيته(ع)، وسيحضر الرجال العصي المجذوذة من أغصان أشجار التوت في الطرف القصي من الهور، وستُهيأ الأكفان التي سيرتديها الرجال، وستعرض كل أم ابنتها لترى نساء القرية جمال البنات وشعورهن الطويلة الناعمة، وصدورهن البيضاء العامرة بالنهود البارزة، ووجوههن الصافية كخليط الشاي الأحمر بالحليب، وأردافهن المكتنزة وخصورهن الضيقة، وشفاههن الوردية المرسومة كقلوب صغيرة. سيلبسن الأثواب السود اللماعة، وستظهر أنوار الفوانيس جمالهن مضاعفا بتلك العيون الكحيلة التي فيها لمعة ماء الهور عند المساء ولصفة القمر في السحر، وما أكثر ما تحظى الأرامل في أيام الحزن تلك بزوج تال يعوضهن أزواجهن الميتين، فالرجال في كل مكان يغويهم في أحيان كثيرة الشعر المشعث والوجوه الخالية من الأصباغ والعويل الحزين، وتتبارى فتيات القرية بإجادتهن اللطم على الصدور علىإيقاع وموسيقية أصوات النادبات(9) وصفق صدورهن، وسترقبهن عيون المتزوجات والعجائز ليتم اختيار الزوجة المناسبة للابن الباحث عن الزوجة الجميلة التي تهز المكان بحيويتها ووقع قدميها وركزها المنتظم، ويرتفع الدم إلى وجنتيها، ولا تعبث قطرات العرق والدموع بكحل عينيها، يكاد خصرها الرقيق أن يتحول إلى خيط رفيع، وردفها يكون متسعا، صلبا، كأنما هي مهرة جيدة التغذية والتدريب، بتفاحتين في الوجه ورمانتين نابتتين في أعلى الصدر، وشعر طويل مسترسل يحاذي المؤخرة ويتجاوزها، وأسنان بيض كصفي لؤلؤ، وعينين واسعتين ترى بهما الجانبين دون أن تدير رأسها يمينا وشمالا. كان ذلك الشهر هو موسم الحب والحزن والشوق في معرفة ما تحويه الخدور وأجواف الصرائف المظلمة، والبحث عن كل ما ليس ممكنا في الأيام العادية. وتبقى الأمهات طوال أعوام وأعوام يتحدثن عن الجميلات، وكل أم رأت في الموسم الحافل جميلات حكت لأولادها الذكور ما صادفت من جميلات القرية!. بلقيس تلك الفتاة التي لا يستطيع رجل أن ينظر بعينيها دون أن يعشقها، وذلك الأمر لم يكن متعارفا عليه قبلها، فقد كانت المشاعر في القرية مسترسلة النمو، بطيئة النضوج، أول ما يبدر فيها استحسان للشخص وتنمو هواجس القرب منه، وبعد ذلك تقوى المودة فتصير محبة ويلد من رحمها الهوى الذي يمتلك القلوب ويجعل النفوس خائرة مستعدة لقبول العشق، ولكن كل ذلك الاسترسال المنطقي في العواطف يختفي عندما تتعلق العيون بعيني بلقيس أبنة قرية الجوابر، إذْ تنتقل النفس فجأة إلى درجة العشق والتتيم!. كانت النساء بالرغم من حسدهن لها يعشقنها: عصية على الوصف والفهم، ليس كل جمالها ما تراه العين،

بل إن ثمة طاقة للجمال تنبعث من روحها كالسحر! لم تكن تشبه فتاة أخرى في القرية، أمها كانت فارسية وأبوها من أفقر أهل القرية، ويعمل حائكا للحصران، وكره أن يزرع زرعا أو يصيد سمكا، فهو يعتبر نبش الأرض لزرعها إقلاقا لأرواح الجان الثاوية فيها من قديم الزمان، وصيد المخلوقات الأخرى ستعرض الناس في يوم القيامة للنحس!. وبعد زواجه من أمها أنجبت له بلقيس، وتركتها بعد ذلك صغيرة واختفت. وقال رجال القرية في ذلك الحين إنها عبرت الهور بمشحوف صغير والتحقت بأهلها في إيران، ويقول آخرون إنها رمت نفسها في مياه الهور لأنها كانت تحب ابن عم لها وإن أهلها باعوها للعرب بيعا، ففضلت الموت على العيش مع الزوج الموسوس، وكبرت بلقيس في صريفة أبيها. كانت آية من آيات الجمال ومعلما من معالم القرية، وكان الرجال يتركون ما بأيديهم من العمل حين تمر بهم وهي صغيرة حاملة شيئا لأبيها، مكتفين بالنظر إليها، لم تكن فتاة عادية كبنات القرية الجميلات، بل يقسم الرجال إن الله بعثها لأهل القرية ليروا جمال الحوريات في الجنة!، وحتى يستطيعوا المقارنة بما لديهم في الخدور من قرود!. وحالما يذكر أسمها عرضا في حوار أهل القرية، يتذكر الرجال تلك الجنية التي لا يصدقون أنها أمضت عشرين عاما تحت أبصارهم وأسماعهم، ينظرون جمالها ويتيهون عشقا لصوتها وحركتها وطاقات نبض الروح فيها. وفي ذلك الزمن القريب والبعيد في ذات الوقت جاء السائحون من البلاد البعيدة، مروا قريبا من القرية والتقطوا الصور، كانوا لطفاء وأعطوا أشياء كثيرة لأطفال القرية ورجالها، أعطوهم جبنا لم يذقه أحد من قبل، وخبزا أبيض يبدو كالصخر من الخارج وله طعم اللوز، طيب المذاق، ووقعت عيونهم على هذه الحائرة، الجميلة، التي لم تعرف كيف ترد على كلامهم الذي لا تفهمه، واكتشفوا هم خطأ وجودها في ذلك العالم البدائي الذي ستذبل فيه سريعا، وبعد يومين أو ثلاثة أيام اختفت بلقيس من القرية، أبوها قال بعد الاختفاء، ليبعد عنه شبح العار، إن ابنته التحقت بأمها وأنه أوصلها بيده إلى هذه الأم التي تعيش عند أهلها، وكانت العبرة تخنق صدره والرعشة ظاهرة على كفيه والارتباك في حركته. وجاء إليه وفد من رجال القرية محاولين أن يوضحوا له أنه لم تقع سابقة في القرية أن تخلى الرجل عن أبنائه لأمهم، لا من قديم ولا من جديد! فأفهمهم أنه راض بما حدث، فقاطعه الرجال ووصموه بالخسة والدناءة، فبقي يحوك حصرانه ويبيعها إلى جانب الشارع الذي يربط الجنوب بالعمارة، دون أن يحدث أحدا أو يرد على تهكمات القرويين، وترك عادة الجلوس في المساء مع الرجال وشرب القهوة وتبادل الرأي، ولا يحضر حين يتم ربط راية(10) العشيرة وزعامتها لشيخ جديد، ولا يشارك في إداء فصل أو حشم(11) أو في أفراح ومعازي القرية الكثيرة، وبعد سنوات حين جلب أحد أبناء القرية من المدينة صورة لامرأة تزوجها إنجليزي، وجعلها موديلا لإظهار الجمال العربي، أقسمت النساء والرجال أن صاحبة الصورة هي بلقيس، وحين عرضوا الصورة على أبيها قال: "إنكم واهمون، إنها تعيش مع أمها في إيران، وإنها تزوجت، ولها الآن أبناء، وإنها لم تعد جميلة كما كانت، لقد أطفأت الولادات المتكررة جمالها!"، ثم يكرر لازمته المعهودة التي يكررها كلما سُئل عنها: "إني بيدي أوصلتها إلى أمها". ويَشْتَمُّ الناس من هذا التكرار الممل رائحة غير طيبة. واشتهرت الصورة في المدن والقرى، وأطلق عليها أهل المدن اسم "المعيدية المتنصرة"(12)

- 12 –

مع انبلاج الفجر تضوعت رائحة الغرين المبلل والشوفان، وقدحت في قعر المياه الصافية قواقع ملونة وطحالب عنقودية، وبدت إنكسارات القصب على صفحة الماء وأعواد العنكر الخضراء. غردت أسراب الرخيوي منطلقة خافقة بأجنحتها فوق المياه المتشظية من ضرب الأجنحة لوجه الماء، وفي ذلك المتسع المائي، ومن بين أحراش القصب يبرز رأس جاموسة أو جاموستين بسواد داكن وعيون لاصفة، وتقفز في ذات اللحظة من بين الأعواد الصفراء ضفدعة مثيرة دوامات صغيرة ودوائر في الماء. تخربش سمكة كطان ضخمة في كومة قصب يابس يحملها الجزر بعيداً، محركة الطحالب النامية في القعر، ويعلو وشيش حشرات ملونة طائرة للحظات ثم تستقر بعدها على تلك الأوراق الخضراء الطويلة، وفي عمق ذلك المنظر تنتشر الجباشات(13): جزر صغيرة عائمة ترتفع منها سحابات دخان صغيرة وكثيفة من تنانير مشعلة، ونباح كلاب يتصاعد، وصياح ديكة عنيدة، ونعيب مكتوم، متحركة ارتفاعا وانخفاضا مع المد والجزر، ولا يربطها بالقعر سوى القصب الذي أثنيت أطرافه العليا في الماء من جديد، وبقيت جذوره نابتة في العمق كالمرساة، وفوق تلك الأغصان الخضراء المثنية وضعت حصران القصب المجدولة بخبرة آلاف السنوات المتراكمة منذ العهد السومري، وفوق ذلك وضع التراب الذي حُمل بالمشاحيف قبضة قبضة من فيض الحماد المرتفع شرقي الهور مع ما تخلفه الحيوانات من دمن وبقايا أعشاب جافة من طعامها فيصنع ابن الهور أرضه وجزيرته الخاصة به، فيعمل القصب المثني عمل اللوالب لامتصاص صدمات ارتفاع الماء وانخفاضه، وتبقى الجزيرة عائمة في مكان واحد، متمسكة بالجذور، لا تغادر موقعها مع حركة الماء وأثناء المد والجزر، ويُفرد لتنور الخبز المسافة المهمة عند طرف الجزيرة المصطنعة، وتقام الصرائف إلى الجانب الآخر، وتتوسط آسرة أغصان سعف النخيل الأرض المكشوفة، فابن الهور لا يستطيع النوم تحت سقف صيفا، حتى ولو كان غطاء خفيفا من أعواد القصب، وتتسلق الديكة عند الفجر قمم التنانير وفوق الأسرة وعلى سقوف الصرائف لتصبح منبها حيا للنائمين. وفي مواسم الفيضان، تغمر المياه أرض الجباشات فيجمع الناس أثاثهم القليل فوق الأسرة مع أطفالهم ودجاجاتهم، وتبقى الديكة فوق قمم التنانير ترفض التخلي عن أمكنتها الأثيرة مهما كانت الظروف ناقرة كل من يقترب منها!.

1- طائفة مسلمة كبيرة تبلغ نسبتها في جنوب العراق % 90، ووسط العراق وشماله % 60 من سكان البلاد.
2- خلاف قبلي.
3- المكان الذي يُستقبل فيه الضيوف.
4- محافظة تقع شمال البصرة وتبعد عنها بـ 180 كيلومتراً.
5- سجن صحراوي يقع قرب الحدود الغربية مع المملكة العربية السعودية.

6- رداء أبيض يرتديه رجال الدين المعممين تحت الملابس.
7- الحكومة التي أطاحت بها ثورة شعبية عارمة في إيران بقيادة الإمام الخميني عام 1979.
8-تشبه السيف العربي لكنها أقصر طولا وأكثر عرضا.
9- يعددن الصفات الحميدة في الشهداء لزيادة حزن النساء على المفقودين.
10- ببرق.
11- الفصل والحشم في جنوب العراق هي الدية التي يدفعها المسيء.
12- اشتهرت هذه الصورة في طول البلاد وعرضها في السبعينات.
13- جمع جباشة: بيت المعيدي في أهوار جنوب العراق.

الجزء الثالث

- 13 –

أخيرا وجد جاسم العطية جباشات المعدان في الهور وهو ما يبحث عنه من أمان بعد أن طرد نفسه من قرية الجوابر حاملا كارتونات ملابسه وكتبه، ووجد صديقا قديما من المعدان أسمه عاقول أرشده إلى جباشة صغيرة كانت تستخدم فيما مضى زريبة للجواميس، ووجدا قريبا منها مشحوفا مثقوبا رمماه معا بقبضة من القير والألواح الخشبية، ورفع جاسم إعلانه الكارتوني فوق الصريفة الوحيدة: "مقر الحزب الشيوعي، ياعمال العالم اتحدوا!". وأخذ يتأمل ذلك العنوان في جباشة منفردة تتوسط المعدان. ومنذ اليوم الأول استقل مشحوفه ليتعرف على جيرانه وأعضاء الحزب الشيوعي المستقبليين. كان في قرارة نفسه يعرف أن المعدان لا يُعتمد عليهم البتة، فهم عكس أهل القرى والأرياف، ليست لديهم كلمة ولا أمان بينهم، ولا تقودهم إلا غرائزهم ومصالحهم، ولا يفقهون من الحياة سوى ضروریاتها، فكيف يستطيع تحويلهم إلى مناضلين؟، وهو بالذات لا يعرف من الشيوعية سوى شعاراتها وحفظ أفكارا غائمة مختلطة بروايات شائهة عن الجنة السماوية، التي سمع الكثير عنها في حسينية القرية، مختلطة بصور أخرى من حكايات رفاقه عن رجال سمان بسحنات شقراء وعيون خضراء يلبسون بزات العمل وتنهال عليهم وعلى أولادهم بركات الاشتراكية، وتمتلئ أفرشتهم في الليل بأقداح الجعة الروسية والنساء النظيفات عاريات الصدور والمؤخرات، يرقصن كالجنيات ويرددن كلمة "حبيبي" بمناسبة ودون مناسبة!. ونظر إلى مياه الهور المترامية بعد أن رتب كومة القش وغطاها بجلد الخروف ومخدة القطن، وجمع ما لديه من منشورات حزبية، وكتب إلى جانب المخدة، وتنهد كأنما كل هموم العالم قد انزاحت فجأة عن صدره!.

- 14 –

وتتحدث النساء في قرية الجوابر عن نرجس جميلة الجميلات التي لم ير أحد لجمالها مثيلا، كان عنقها طويلا كعنق غزال، ولسعة عينيها تحرق أبدان الرجال وتذهب عقولهم وتفتن أبصارهم، وتشيع الارتباك والرغبة بالبكاء عند الشباب، فلا تعرف الأقدام مواقعها على الأرض، فيصطدم الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ونرجس تعرف ما توقعه في الآخرين من فوضى فتعلو ضحكتها المجلجلة، فتوشك الألباب أن تطير، وتقترب الأنفاس من التقطع من لهفة الطمع فيها ولذة رؤياها مثيرة الخدر والذهول، ويقولون في القرية إن ما أذهب عقل هلال شيء غير جمالها، فقد كان طالبا للعلم في النجف جاء إلى أهله في إجازة، وكان يرتب كتبه في باحة الدار متشمسا بالمشراقة(1) بعد ليلة باردة حين فاجأته داخلة الدار بصدرها

العاري، النافر، وجسدها الطافح بالإنوثة والإغواء، ولا يسترها غير ثوب خفيف وعباءة مفتوحة، فما إن رآها الشاب حتى شهق وعطس مرتين واحمر وجهه واصفر، وأُصيب يومها بالحمى الشديدة، وأخذ يردد بعد ذلك أبياتا من شعر أبي نواس، ويبكي ويضحك ويجول في دروب القرية ليلا ونهارا، تاركا لحيته تستطيل ولا يعبأ بما يلبس، فأضاف الناس بعد يأسهم من شفائه لقب المجنون إلى أسمه، فأصبح يُعرف بهلال المجنون!.

وأوشك شباب القرية على الاقتتال من أجلها، ولم يكن ذلك معروفا في القرية من قبل، فليس من المعقول أن يتقاتل الإخوة وأولاد العم من أجل امرأة!. والمرأة في القرية ليست حلما، إنها حاضرة لتلبية رغبات الرجال بالزواج، والفتاة عادة هي التي توقع بالرجل ليتزوجها، وهي التي تغريه وتقربه، وتسمعه الغزل وتحثه على الإقتراب منها، ففيض النساء في القرية يعطي للمرأة دورا لتكون الصياد الماكر لا الفريسة. والقرية منذ وعت الجدات وأمهات الجدات تعاني من كثرة الإناث تقابلها قلة في أعداد الذكور، وليس معروفا ولا معتادا أن تزوج القرية بناتها لرجال من خارج القرية إلا في حالات الفصل، وهي من الحالات النادرة، فصار لزاما على الرجال أن يتزوجوا أكثر من واحدة ليحدوا من الفرق الكبير الحاصل بين عدد الإناث والذكور، فليس غريبا أن يجيء أبو البنات في القرية ليزور البيوت، ليزوجهم ببناته، وينتخب لابنته عريسا، وليس من عادة أهل الجوابر إرجاع أب البنات خائبا في مسعاه مهما كانت الظروف، وذلك العرف في القرية يجعل الأكبر سنا أكثر سعادة، وقد جربوا حظهم في الزواج مرة أو مرتين قبل ذلك وأنجبوا ذكورا وإناثا، ولا ضير البتة من شابة جميلة جديدة يستعيدون في سريرها أيام شبابهم السالفة، وتذيقهم المتع التي حُرموا منها بسبب شيخوخة نسائهم المبكرة، ولن يكلفهم ذلك سوى بناء صريفة جديدة تضاف إلى بيت العائلة، ويقوم بذلك العمل أولاده وزوجته الكبيرة وأولاد عمه، وهو يبقى يراقب ذلك مدخنا لفافة تبغه، معلقا على عملهم بين الحين والآخر بالرضى أو الشتم!.

نرجس في ذلك الوقت تحولت إلى موضوع للخلاف. أصبحت الشرارة التي ستحرق القرية من أقصاها إلى أقصاها، كان معظم الشباب يأملون ويتمنون أن يضعوا أيديهم على هذا الكنز الهائل من المفاتن، ويريد الواحد منهم أن يكتشف جغرافيا هذا الجسد البديع الذي يبدو من خلال ملابسها الموشاة بالورود عملاقا باذخا، ولا يمكن لرجل أن يعتليه أو يبحث في تضاريسه عن المتع العادية التي يجدها في النساء الأخريات، والتفكير بما يختفي خلف ملابسها ويورث الدوخة والارتجاف في أجساد الرجال، فكيف إذا كان الجسد بأكمله، بعاجه وذهبه وفضته تحت الشراشف وفوقه ناموسية، ولا شيء يعكر المزاج أو يدعو للخوف والتردد أو للتوقف عن المغامرة والاكتشاف؟، أية لذائذ يمكن أن تبذلها نرجس لفارسها؟، تركوا لها الخيار بعد أن ازداد الاختلاف، فقبلت بابن الشيخ جلال، فبنى إخوته وأعمامه صريفة وندفوا له فراش العرس من القطن الناصع البياض وملأوا الوسائد بريش الدجاج، وفي ليلة العرس سهرت القرية بأكملها ترقص وتغني وعلت الزغاريد. كان هلال المجنون الوحيد في تلك الليلة العظيمة الذي يجول في دروب القرية المظلمة مزبدا مرعدا!، لم يحضر وليمة العرس كأنما كان يعرف -برغم جنونه- إنها ليلة زواج الحبيبة!، المرأة التي أفقدته عقله، وجعلته ينام مع البهائم ويحدث الأشجار، ويروي قصصه للغيمات المغادرة في السماء

الشاحبة، بقي يهدر بصوت غير مفهوم والزبد الأبيض يتجمع حول زاويتي فمه، وعيناه تطفحان بألق غريب، وهو ينادي مخلوقات لا يراها سواه أن تقتص من هذه الأرض، أن تغرقها بفيض من القرود وأسراب النمل والبعوض والقراد والأمراض الفتاكة، وفي تجواله العشوائي المعذب، كان يصل إلى الخوان الذي أُقيم لعرس نرجس، ويرى الناس الجالسين تحت أنوار "اللوكسات"(2) التي تنير المكان، وأمام ذلك المكان يصرخ بصوت عال ويرجع إلى الوراء كما تفعل شاحنة كبيرة محملة إلى أقصاها بالحمل، ويختفي في الظلام!. وفي ساعة متأخرة من الليل دخل العريس على عروسه بزفة كبيرة، وبعد ساعة من دخوله علا صراخ وعويل أهل الدار، لم يحتمل قلب العريس ذلك الجمال الغريب، فتوقف ذلك القلب حين مست أصابعه ذلك الدفء الأنثوي الرائع، وسبحت عيناه في ذلك اللحم البض، المتعري، توقف القلب عن النبض وأصبح باردا كقطعة حديد صماء، وبقيت العينان تحدقان في اللاشيء، فلم ترتويا بعد من مفاتن نرجس، ولا تمتعت شفتاه بلذيذ مناجاتها تحت الناموسية البيضاء في نور الشموع!. حاولوا تخليص رمانة السرير النحاسية اللاصقة من قبضة يده المتشنجة، لكنهم لم ينجحوا، فقط وحدها نرجس حين مدت أصابعها بجرأة إلى كفه المتشنجة استطاعت أن ترى انفراج تلك الأصابع، ولم يستطع أحد إغماض جفنيه غيرها، وفي تلك الساعة حضر هلال المجنون وعلى سحنته السمراء، المتربة، ثمة هالة غريبة من النور، فأخذت النساء الحاضرات يتبركن بلمس سترة هلال القديمة، المفتوقة في أكثر من موضع، ويهمسن بينهن: "إنها شارته، ولولا هذه الشارة لما مات العريس!". ومنذ ذلك اليوم تحول هلال المجنون إلى رجل مبروك، وتحولت نرجس بين يوم وليلة إلى موضوع لحديث أهل القرية المزمن وحكاياتهم عن الجمال الغامض المشحون بالأسرار والمخاوف، وذلك كان يقودهم للحديث عن الجن والنساء المسكونات بالجن، فلِمَ لا تكون نرجس واحدة منهن أيا تكون، فقد خلبت لب الرجال وأعادت الصراع بينهم حولها من جديد، وطفق الرجال ينتظرون إكمال عدتها من زوجها الراحل ليتقدموا إلى أبيها طالبين يدها، لكنها هذه المرة رفضت الجميع، ولم تحدث أحدا، فاحترم الجميع جمالها الصامت، وبقيت بين أثاث عرسها الجديد في صريفتها المبنية حديثا لشهور عديدة ؛ لكنها بقيت حديث المجالس، وحسد النساء وأمنية الشباب والرجال في قرية الجوابر، كانت الأرملة العذراء الوحيدة المثيرة للطمع حتى العظم..

- 15 –

شهر محرم من كل عام يكون عادة شهر الحزن والبكاء في قرية الجوابر، ويبدأ الناس بتغطية جدران الحسينية بالقماش الأسود، وتهيئة الرايات الخضر التي طُرزت عليها بالخيوط البيضاء كلمات "ياحسين ياشهيد كربلاء"، وتنشرها الريح فوق الصرائف ووسط ساحات القرية مرفرفة، ورمانات البيارق النحاسية تهتز بإيقاع، وتهيئة الهوادج التي ستوضع على الجمال، حيث يتم تمثيل واقعة الطف(3) في اليوم العاشر من أيام عاشوراء وسط القرية، وستحمل الهوادج أبناء الحسين(ع) وعياله وتُجهز خيول القرية بالسروج المغطاة بالقماش الأحمر، والسيوف الطويلة المشرعة التي يحملها من يمثل جيش يزيد بن معاوية، وتبنى

الخيام على الربوة المرتفعة لتكون مركزا لجيش الحسين الصغير(ع)، الذي سيُحاط بالآلاف المؤلفة من جيوش الأمويين، وسيكون الجيش الأموي حاجزا بين هذا المعسكر وضفة نهر الفرات، وسيُمنع أصحاب الحسين(ع) من المرور لأخذ حاجتهم من الماء، فيظهر الأطفال من فتحات الخيم الأمامية يصرخون من العطش طالبين الماء، ولا مجيب لهم غير رشق السهام الآتية من رماة الجيش الأموي، وسيظهر الحر بن زيد الرياحي واقفا إلى جانب الجيش الأموي وهو يخير نفسه بين الجنة والنار، وأخيرا يختار الجنة(4) فيلكز فرسه فيخب به صوب معسكر الحسين(ع) لينال شرف الشهادة معه، ويظهر الشمر(5) جائلا بثوبه الأحمر وسيفه وحذائه الأسود وقد تسربل بالدروع والحديد، وهو يتوعد ويهدد بذبح الحسين(ع) وآل بيته وأصحابه أجمعين، ويبرز الحسين(ع) متقدما على فرسه صوب الجيش الذي جاء ليخمد ثورته ويخاطبهم محاججا، فيقولون له: "ماذا أتى بك إلى أرض العراق؟، أتطلب الملك والملك لغيرك؟!. فيقول: "ما جئت إلى العراق لولا رسائلكم التي طالبتني بإداء دوري كمسلم يدافع عن شريعة الله على الأرض، وقد بايعتموني بستين ألف رسالة(وهنا يُظهر رسائل أهل الكوفة وأهل العراق، وهي آلاف القصاصات من الورق وينثرها أمام العسكر فيبحث كل واحد من جيش العراق عن رسالته لئلا تقع في يد زميل له في جيش يزيد فيحاسبه الأمويون على مبايعته للحسين(ع)، وهنا يهمس أحد أصحابه: " أن يبدأوا الهجوم على جيش الأمويين ماداموا في هرج ومرج، ولكن الإمام(ع) يرفض أن يبدأهم بحرب!"، ويطلب منهم في ذلك اليوم العصيب أن يخلوا بينه والرجوع إلى الحجاز، فهو لم يأتِ ليقاتلهم، لكنهم يعرضون عليه أن يأتي معهم إلى يزيد في دمشق ليبايعه بالخلافة، لكنه يقول لهم مقالته المشهورة والمؤثرة رافضا أن يُذل: "لا والله لا أعطيكم إعطاء الذليل وفي عروقي دم ينبض!". وأثناء تمثيل تلك الواقعة ترى نساء الجوابر والأطفال والشيوخ وقد وضعوا على رؤوسهم الوحل وأيديهم تلطم صدورهم ووجوههم والدموع تسيل من عيونهم، والسماء قد امتلأت بالغبار، وشحبت الشمس، واهتز قصب البردي، وصفرت الريح بين أغصان الجولان، كأنما تسمع وترى وتتأثر بما يحدث لسيد شباب أهل الجنة وهو يضع أبنه الرضيع "عبد الله" أمام مرأى الجيش الأموي طالبا منهم القليل من الماء فقد جفت شفتاه ويبس الضرع، فلا حليب ولا ماء. كان جلوسه فوق فرسه وبيده الرضيع، لفافة صغيرة تثير شفقة من لا شفقة في قلبه!، ويعلو صوت صراخه يشكو العطش والجوع، ويقول الحسين(ع) لهم: "إنه رضيع لم يأتِ لقتال!، ولا يعرف شيئا مما يدور حوله، ولا أطلب منكم سوى جرعة ماء، فها هو الفرات تشرب منه الدواب ولكلاب والخنازير، وهذا الرضيع الذي جده رسول الله نبيكم(ص) -ثم يتساءل بحرقة- أفي هذا الجمع من لا يعرف رسول الله محمد(ص)؟!، أفي هذا الجمع من يعطي الرضيع جرعة ماء حبا بالرسول الكريم؟. فلا يجيب أحد، سرائرهم تقول: "اُسقوه، إنه رضيع!"، وفريق آخر يقول: "الأمر لابن سعد قائد الجيش، إن أراد سقاه وإن لم يرد منعه!"، وفريق ثالث يقول: "لننتهي من هذا الأمر، إنه يجعلنا في شقاق!". وتتحامل السماء غاضبة فتشرق بالغبار والغيوم الحمراء، وتضيع الشمس متحولة إلى كيان هش ممزق، وتنوس أوراق البردي، وتنكمش زواحف النهر، ويهز أهل الجوابر رؤوسهم وعويلهم يعلو ومخاطهم يسيل، والنساء يشقن أزياقهن ويصرخن، كل ذلك لا يمنع أحد جنود جيش يزيد من أن يمتشق

قوسه ويلقمه بالنشاب، ولا يترك في القوس منزعا ويرمي عبد الله الرضيع بالنشاب!، فيأتي السهم القاتل في رقبته!، وينظر الحزين إلى طفله الذبيح وهو يرفس في حضنه، فيجمع الدم في كفه الشريفة ويرميه إلى السماء فلا تسقط إلى الأرض قطرة دم واحدة، وتخرج من المخيم أمه صارخة تتبعها بقية نساء المخيم صارخات، وتمطر السماء ترابا مدافا بالدم والدموع، وتهب ريح شديدة، ويختفي الحسين(ع) وابنه الشهيد وعياله في دوامة من الغبار الكثيف(الآن سال الدم، ووقعت الحرب، لقد قُتل ابن الحسين(ع) ذبحا بالنشاب وسالت روحه في ذلك الفضاء الواسع! وثمة ملاك بأجنحة بيضاء أخذ دم الرضيع إلى جده الرسول الكريم(ص) ليريه ما فعل أهل العراق بحفيده، وتصيح الملائكة في السماء: "يا أرض ضجي بالبكاء، يا ريح انظري واشهدي ما فعله العراقيون بابن بنت رسول الله(ص)، واشهدي بالألم وتوعديهم بالآلام الدائمة والذل حتى يوم القيامة!")، ذلك ما ردده راوية عجوز يرتدي الرداء الأبيض ويقف بين الجيشين معلقا على الأحداث الدائرة أمامه.

- 16 -

لم تختلف النساء على تقييم جمال الجميلات في قرية الجوابر مثلما اختلفن حول "ليلى" أبنة السيد مهنا، العلوية من نسل الرسول(ص)، ربما كان ذلك الاختلاف بسبب احتشامها ورقتها وذلك الخفر النبيل في قسماتها، وعدم ظهورها الزائد أمام الرجال والنساء سببا للاختلاف حول جمالها. لقد بدت للنساء ندية العينين كأنما ترطبتا بدموع ذرفتها قبل قليل، بفم مرسوم كالقلب وصدر واسع وطول أهيف، مكتنزة الكفين، رقيقة الجلد، طويلة الأصابع، رقيقة القد، ممشوقة القوام، إذا تكلمت سحرت السامعين بصوتها الرقيق، الهادئ، وارتعاشة شفتيها وهزة رأسها، كأنما تخرج الكلمات من قلبها واضحة النبرات، مشحونة بروح الأنثى وسحرها. بدأ الاختلاف حول جمالها بين النساء أولا، وكان لبياضها المزدان بسمرة خفيفة وشعرها الخشن، الملفوف في فتائل ووجنتاها المرتفعتان الكثير من أسباب سوء الفهم لتقدير جمالها، ومدعاة للاختلاف لعدم وضوح مقاييس الجمال التي اختفت منذ زمن قريب بسبب حصول النساء في القرية على أدوات تجميل حديثة جُلبت من المدينة: أحمر الشفاه وأصباغ الشعر المختلفة ومساحيق الوجوه والدهون والمراهم، ووسائل مسك الشعر، ومشدات الصدور والبطون، وتقويم النهود، وأقلام الكحل وأنواع العطور، كل ما جاء من المدينة بدأ يبعد النساء العارفات بمقاسات الجمال القديمة من الرجوع إليها، ولذلك بقيت ليلى دون تقييم حقيقي لجمالها بين الجميلات. أما الرجال، فم يحظَ أحد منهم بنظرة عميقة لما تخفي ابنة قريتهم من مفاتن تحت هذا الخفر والجمال الممتنع الذي تتمتع به. وحسب أعراف أهل الجوابر، لا يمكن لفارس أن يعتلي أنثى من آل بيت الرسول(ص) غير واحد من نسلهم، ولم يكن في القرية من السادة سوى السيد مهنا والدها وأخيها مرتضى، فبقيت "ليلى" وقفا جميلا، لا يجرؤ أحد الاقتراب منه غير وادي بن كعيد البلام، الذي كان يعمل في الأرض مع والدها بعد أن ترك العمل في أرض عائلته، وكان الشاب يحظى منها بنظرة كلما جلبت لهم طعام الغذاء، فيشعر لحظتها أن تعبه في حرث الأرض قد تبخر وأن جوعه العظيم قد اختفى، وحالما يختطف من

يدها الصرة ويضعها تحت إبطه يشعر أن المئات من الجان تركبه، والكثير من الأفكار تدور في رأسه، ولكن لسانه لا يطاوعه أن يقول ما في قلبه، فتبقى الكلمات تائهة على شفتيه لا يجد رابطا يؤلف بينها ولا كابحا لتقليل نبض قلبه الذي ينبض نزيفا من الدم لا يعلمه إلا الله، ولا قدماه المرتجفتان كقطعتي قماش تم غسلهن آلاف المرات حتى تفتق نسيجهن، وأصبح من المستحيل نشرهن أمام الشمس دون أن تسقط الأجزاء قطعة هنا وقطعة هناك، وهي تنظر إليه بخفر، عالمة بحاله وبما يحرص على إخفائه من مشاعر ولواعج، وكانت كأنما تنظر إلى شيء لا يخصها، وتتمنى لو تتنهد، لكنها تخشى أباها، فهي تعرف أنها حصة السيد الشيعي الذي نسله من آل البيت، ولا تدري حتى هذه اللحظة أين يقيم وما هو اسمه، وإنها بانتظاره مهما طال الزمن وذبل الجمال، وتعبت العينان من الانتظار والتحديق والصبر.
كان الملا قنبر كلما زار السيد مهنا في داره ورأى ليلى صلى على الرسول، وقال لها: "إنه قادم، لم يبق على مجيئه إلا القليل، فعليك بالصبر يا ابنتي!".
ولا تجيب الملا الذي ينشغل بعد ذلك بالحديث مع أبيها عن موسم الزرع والصيد، وهو يشرب فنجان قهوته الذي ملأه له أبوها للمرة الرابعة، وحدها تجلس وتتخيل قدوم هذا السيد الشيعي، كيف سيكون؟، وهل سيوليها حنانه ورعايته؟، هل يجيء إلى القرية من مكان بعيد؟، أيكون كبيرا في العمر أم شابا؟، أيحمل حقيبة في يده؟. إنها لا تفضل أن تكون له لحية كلحية أبيها، ولا يضع على رأسه شماغا أزرق كما يفعل السادة، إنها تريده بلا ذلك كله، عاري الصدر، مفتول العضلات، يجيد الغناء، ويعرف كيف يروي الحكايات، وكانت تغمض عينيها ليتشيأ بطلها في خيالها وينوش طوله سقف الصريفة الواطئ!.

- 17 –

في اليوم الثاني من استقرار جاسم العطية بين المعدان، جمع صاحبه عاقول عددا من المعدان وأتى بهم إلى جباشة جاسم العطية، كاد أن يضحك حين سأله أحدهم عن الأجر اليومي الذي سيتقاضونه من العمل في الحزب، وبعد أن أوضح لهم وأعاد التوضيح مرات ومرات عن الحزب الشيوعي ونضالاته من أجل الفقراء وتنظيم الناس بأفكاره، التمعت عيونهم كأنما فهموا بشكل غامض عن هدفه لتكوين مجموعة لقطع الطريق وسرقة الحيوانات من القرى الأخرى، وبادره أحدهم طالبا التوضيح، مضيفا له أن عندهم جماعتهم الخاصة بهم والتي تتبنى سرقة الجاموس والبقر وبيع كل ذلك في المدينة، وبإمكانه إن أراد أن ينضم إليهم!.
وهنا لم يطق جاسم صبراً فرمى الرجال المسودي الوجوه بالكتلي المخسوف(6) الذي يَعْدُ به الشاي، وكاد الشجار أن يقع بينه وبينهم لولا عاقول الذي فرق الفريقين، وكان عاقول يعرفهم واحداً واحداً معرفة شخصية وطيدة، ولولا ذلك لوقع ما لا يحمد عقباه، وصرخ به جاسم غاضبا:
"أوصلهم إلى جباشتهم يرحمكم الله ويرحمهم ويرحم النضال!".

وخرج الرجال من عنده وهم يهزون أيديهم سخرية من هذا المجنون الذي لا يعرفون ماذا يريد، ويكتفي بالصراخ ورمي الناس بالأشياء القديمة!.

في ذلك الغروب، جلس جاسم العطية القرفصاء على حافة أرض جباشته وهو يتأمل القرص الكبير للشمس وهو يختفي إلى الغرب ببطء، ومشاحيف المعدان تعود إلى جزرها الطافية وأسراب الجاموس تعود قبل حيازيم(7) المشاحيف برؤوس سوداء وعيون ملتمعة، وثمة من يلقي الشبك في مياه الهور لإصطياد سمك العشاء، فكر بأن ما يفعله خطأ في خطأ، وعليه أن يغير أساليبه وطرقه، فليس هكذا يستطيع أن يفوز بأعضاء جدد للحزب، الناس هنا لا تفهم شيئا عما يدور في رأسه من أفكار، ويقودهم قانون الغريزة والتكتل الجماعي للبقاء أحياء في هذه البيئة القاسية، فهم كما يروي له عاقول ابن محيطهم وبيئتهم حين يذهبون ليلا لسرقة الدواب من الفلاحين يدعون الله مخلصين أن يستر عليهم ويحميهم ويقيهم شرور صاحب الدواب اللئيم، ويعمي بصره لكي ينهبوا دراه ليلا دون أن يراهم ويشعر بهم!، ويتوسلون إلى الأولياء أن يحموهم في ذهابهم وإيابهم سالمين!، ناذرين النذور إلى الخالق إن عادوا غانمين بسرقتهم، ناجين من المتابعة والسؤال!. وأخذ يكد الفكر بهؤلاء الناس الذين يحيطون به في هذا الامتداد المائي الواسع، وأخذ يلوم نفسه ويصغر من شأن نفسه، وأنه ينظر إلى الأمور نظرة أقل ما يمكن أن يقال فيها إنها حولاء ترى الأشياء في غير موضعها، هل أصبح في هذا الهور كالنسر الذي تروي عنه جدته أنه إذا شعر بدنو الأجل وهناً ومرضاً، حلق عالياً وعالياً ثم عالياً ليهوي من حالق ليموت على الصخور، أو مثل البقرة إذا شعرت يوما بريح الموت انسحبت ببطء مارة بمراعيها المخضرة صوب مقبرة القرية، وهناك تلفظ أنفاسها الأخيرة، هل جاء به قدره إلى هذا الهور لينكمش على حياة خامدة، بدائية، لا فائدة منها؟. فلن يفهم أحد ما قاله لينين ولا ماركس حتى لو حول لهم الهور مرقاً وضفافه خبزاً، مثلما يقول أهل الجوابر في أمثالهم الشعبية، حين ذاك فز مرعوبا، دخل صريفته ولبس سترته، وأخذ يردد بصوت مسموع: " كان عليَّ أن أفعل ذلك أولا، كم كنت غبياً!". وركب مشحوفه وقصد مضيف شيخ المعدان في قرية الدبن، وهناك استقبله الشيخ مسروراً بهذا الرجل النظيف. كانت ملابس جميع المعدان بضمنهم شيخهم تنز وسخا أسود وزيتا، ولا يعتني أحد منهم بنظافة جسده أو ملابسه، فكر جاسم أن ذلك بسبب معيشتهم وسط الماء، فيعتقدون أن ما موجود من ماء كافٍ لتنظيفهم حتى وإن لم يستحموا أو يغسلوا ملابسهم فيه!، وتلك هي ميزة من يعيش والماء يحيطه من كل جانب!. وحُملت للضيف وسط أنوار فوانيس المضيف وأدخنة المطال ونقيق الضفادع ثلاث سمكات مشوية والدهن يسيل من بطونها، وخبز دقيق الرز السميك المدخن، وكان إلى جانب الشيخ ثلاثة من الرجال المعقلين الكبار في السن، والذين يعملون كمستشارين عنده، وقد بدا شيخ المعدان لجاسم في الخامسة والثلاثين من العمر، وقسمات وجهه الناحل حادة، شديدة السمرة، وعقاله(8) الرفيع مرتكزا على رأسه إلى الخلف فوق شماغه الأبيض الموشى بخيوط وتطريزات سوداء، وانتشرت فوق العقال والشماغ خرائط البقع الدهنية والأملاح، بعينين خرزيتين لامعتين تشعان ذكاءً ومعرفة بأحوال أبناء عشيرته والمحيط الذي يعيشون فيه، وقد أسبغ عليه الشِعْرُ الشعبي الذي يردده بين الحين والآخر سمة الفكاهة

والخيال الخصب وحب الحياة والمغامرة وبحثه عن المتع، وقد أخفى كل تلك الرغائب تحت رادء زائف من الكبرياء والسمو على الصغائر!. وتساءل جاسم داخله هل يصبح صديقا حميما لشيخ المعدان؟. وكان سرور الشيخ ومستشاريه كبيرا بجاسم العطية الذي يعرف القراءة والكتابة، وكان شيخ المعدان يقرض الشِعْرَ الشعبي ولا يجد من يدون له أشعاره، وطلب منه أن يكون كاتبه، ومنذ ذلك اليوم أخذ جاسم العطية يدون شعر الشيخ على ورق أسمر كان يحتفظ به الشيخ لتدوين المواثيق والعهود العشائرية والفصول والحشوم مع العشائر الأخرى، ومنذ تلك الليلة أصبح جاسم قارئ شعر الشيخ في الديوان، ليسمع المعدان شعر شيخهم وهم يتكئون على مخدات الريش وفي أيديهم أقداح الشاي وينفخون سحابات دخان السجائر من صدورهم، وتتنمل أجسادهم بالفرح والمتعة. وكانت للشيخ ثلاث نساء شابات قد تزوجهن في شهر واحد قبل سنة. أما امرأته الرابعة فقد كانت كبيرة في السن تزوجها في باكورة شبابه لحسم أمر مشيخة العشيرة التي كادت أن تضيع منه لولا زواجه من ابنة أكبر المرشحين من أعمامه للمشيخة، وحين تم ذلك الزواج تنازل له عن حقه، واكتفى أن يكون جداً لأولاد شيخ المعدان، وقد ولدت له ثلاثة أولاد وأربع بنات. وكان في كثير من الأيام حين يستبقي جاسم لينام في مضيفه يرسل إليه أصغر وأجمل وصيفة(9) عندهم من اللاتي يعملن لإطعام ضيوفه في المناسبات والأعياد، مستغنيا عنها لخدمة ضيفه في تلك الليلة، طالبا منها أن تكون مطيعة للضيف في أي أمر يبتغيه، ويسأله في الصباح إن كانت ليلته ضاجة بالأفراح والمتع، ويرجو أن تكون الوصيفة الصغيرة قد قدمت إليه أفضل ما عندها من خدمات، فيهز جاسم العطية رأسه ممتنا للشيخ فضل كرمه، وأصبح جاسم العطية وراء كل القرارات التي اتخذها شيخ المعدان فيما بعد وتضررت من جرائها مصالح الحكومة في أهوار الجنوب!.

- 18 –

في ذلك اليوم من أيام عاشوراء حين يقف الحسين(ع) أمام أصحابه ليصلي بهم الصلاة الأخيرة، ويخيرهم بين الاستشهاد معه أو النجاة بأنفسهم فتمتلئ عيونهم بالدموع، من يعرفه هل يستطيع أن يتخلى عنه؟، وماذا تعني الحياة بعده؟، أيستطيع أحدهم أن يتمتع بلذائذ الحياة بعده؟. يا روح هوني، هذا الحسين بن علي(ع) يطلب منا أن نغادره، أن نتركه لجنود يزيد ونمضي هاربين بأرواحنا لائذين بعارنا الأبدي؟. كل معدود منتهٍ يا ابن الزهراء(10). وهنا تجأر القرية بالبكاء، حتى جنود يزيد يبكون، سيوفهم مشرعة لذبحه وقلوبهم معه. أية مفارقة؟، أية لعنة؟، أية مصيبة جلبتم للعراقيين يا أهل الكوفة؟، أتذهب تلك الغصات المتحشرجة لرأس الحسين(ع) والشمر يبرك فوق صدره ليذبحه، والدماء المتخثرة تبلل لحيته وهو يردد "أشهد أن لا إله إلا الله ومحمدا رسول الله"؟، أية رمال أمتصت تلك القطرات الشريفة التي تسمى جزافا دما؟، أية ريح حملت أنفاسه الأخيرة وحشرجاته؟، أية أرض استطاعت أن تخفي جراحه وجسده الممزق؟. كنت مهزوما ومنتصراً وبقيت روحك تغذي الأرض بالثورات والانتفاضات(كان يردد تلك العبارات راوٍ شيخ بلحية بيضاء وقف إلى جانب الاحتفال الحزين بوشاح أبيض وعكازته تستقر فوق الأرض كساق ثالثة له)(11).

أيا تكون لحظات الصلب والتمثيل، فإنها تبقى مترددة، لاهثة فوق الريح والوجوه والمياه والرمال والتاريخ ووجوه الأحفاد، مستعادة كل لحظة، يشعرها القاصي والداني كأنما هي صرخة متكررة، ولعنة أبدية ستُبقي الأمصار شرقا وغربا تدفع ديتها وتديم حريقها(في لحظة ما قبل الذبح وأثناء القتال ستُحرق الخيم، ويدافع الحسين(ع) عن عرضه وعياله، ويقول لهم "ما زلنا أحياء، قاتلونا حتى نموت، وافعلوا بعد ذلك ما وسعت قلوبكم من ضغينة وحقد بعيالنا، أما ونحن أحياء فلا تمسوا حريمنا وأطفالنا"، وتتعالى ألسنة النار من المخيم، ويشعر الجنود بالذنب مما فعلوا، ويتركون فسحة من الوقت للثائرين لإطفاء النار وإخراج الأطفال والنساء منها، وتعلو حمحمة الخيول وصليل السيوف وبريقها، ويبرز للجيش العباس بن علي بن أبي طالب(ع) مقاتلا، وينكسر الجيش أمام صولاته وجولاته بفرسه الأبيض، وسيفه الذي لا يستطيع أن يحمله فارس غيره لثقله!، يشق الجيش إلنصفين حتى يصل النهر ليخب فرسه الأبيض في ضفة نهر الفرات، وحين يمد يده ليشرب رشفة ماء يتذكر عطش أخيه الحسين(ع) فيلقي الماء من كفه، فيضج الرجال والنساء بالبكاء، ويصرخ أحد الجنود ليسمعه العباس(ع) قائلا إن الجنود سلبوا المخيم وأخذوا النساء سبايا، فيترك ضفة النهر ويرجع وقد أخذته الحمية والغيرة على عرضه واستُثيرت النخوة في نفسه، ولم تكن تلك من الجندي غير مكيدة لمنعه من الشرب وإرواء الغليل وملئ قربته بالماء، والتم شمل الجيش من جديد وحاصروه بالسهام والرماح والسيوف والعصي، فأثخنوا الجراح في جسده، وبتروا بعد ذلك يمينه وشماله ثم طعنوه بالرمح وسقط كالجبل، عرف الحسين(ع) سقوط أخيه في المعركة حين رأى رايتهم التي سلمها له تسقط، فقال والدموع تسفح من عينيه: " الآن كُسر ظهري وشمت بي الأعداء!".

يحاول المتفرجون من أهل الجوابر كل عام التدخل لمنع سير أحداث الواقعة المأساوية، ويشتبكون في عراك عنيف مع الذين يمثلون جيش يزيد، وخصوصا حين يسقط أحد الشهداء من أصحاب الحسين(ع)، ويحاول الشمر أن يبرك على صدره ليذبحه، كما تنص أحداث الواقعة القديمة، فيتدافع الناس للنيل من الشمر ذي الجوشن المارق على الدين، وفي مرة من المرات رشقوه بصفيحة زيت سيارات فارغة فشجوا رأسه، فحار المشرفون على تمثيل الواقعة عن كيفية إسعاف الشمر وإيقاف نزيف رأسه والناس تمنعهم من فعل ذلك!. وفي عام تالٍ حاصر شباب القرية من ينوي تمثيل دور الشمر قبل العرض بساعات، وكسروا عظمي قدميه بالعصي والهراوات وتركوه طريحا في الفراش لعدة أشهر!، ولم يظهر الشمر في تمثيل أحداث الواقعة تلك السنة، وبقي الجنود في حيرة من أمرهم واستخدموا أول عابر سبيل، إلا أنه رفض خائفا من أهل الجوابر أن يفعلوا به ما فعلوا بالشمر الذي سبقه!.وبعد إلحاح شديد من أهل الجوابر وافق لقاء أن يعطوه كيسا من القمح، وتلك المرة الأولى التي نال فيها ممثل من الممثلين للواقعة أجراً، فقد كان الجميع ينتظرون الثواب في الدنيا الأخرى، وكان الرجل ثقيل الحركات أثناء التمثيل ولا يجيد الضرب بالسيف والطعن بالرمح والمناورة على الفرس، وأوشك على السقوط مرتين عن ظهر فرسه، وأظهر جبنا لا يوصف في عملية ذبح الحسين(ع)، مما اضطر الممثل الذي يمثل دور الإمام(ع) أن يتوسل إليه أن يقترب منه ليجز رأسه، فقد قتله الظمأ في ذلك اليوم!، وأتعبه الكر والفر وإلقاء الخطابات على أهل الكوفة

الغادرين، وكان يخفي إلى جانبه كيس خيش يحوي جذع شجرة رُسمت عليه تفاصيل الوجه واللحية، وأُلصق عليه شعر الماعز، ولُطخ بأصباغ حمراء، وحالما يبرك على صدره ينسحب الممثل تحت الملابس الطويلة مخفياً رأسه، ويبرز الشمر جذع الشجرة الذي له هيئة الرأس، فيعلوا النحيب والبكاء، وتصل الواقعة إلى ذروتها، وكاد الناس أن يضحكوا من ممثل دور الشمر وهم يرون ثلاثة من جنود بني أُمية وهم يقتادون الرجل عنوة لتمثيل دور الذبح والرجل يرفض ذلك. ومنذ وقوع تلك الحادثة أخذ إسناد أدوار تمثيل الواقعة طابعا سريا وأخذوا يحرصون على أن لا يعرف أحد من سيمثل دور الشمر، ويزيدون من الأصباغ على وجهه ويكثرون على صدره من الجلود والدروع، ويضعون على رأسه طربوشا مخروطيا أحمر اللون لتمييزه عن الجنود الآخرين وتغيير هيئته، فلا يقاطعه أهل القرية طيلة العام، فقد شاء الحظ في إحدى السنوات قبل أن يكون اسم ممثل دور الشمر سريا أن مثله صياد سمك كان معروفا لأهل الجوابر، فامتنع الناس بعد ذلك من تشغيله في زوارقهم وإعارته شباكهم أو مساعدته في أي أمر يحتاج فيه إلى مساعدة الآخرين، وطيلة العام بقي المسكين دون عمل حقيقي لأنه مثل دور الشمر وتجرأ وذبح الحسين(ع)، وكانوا ينظرون إليه بتأفف ويستعيذون من الشيطان الرجيم حين يقابلونه في الطرقات أو على ضفة الهور عند الفجر، وينعتونه بالأعور الفاجر، وحين يلمحونه مصادفة في الطريق يصيحون: "الشمر الأعور جاء!"، الأعور الدجال ذهب!"، ولم تفد كل شفاعات الكبار في القرية في رد أذاهم عن الرجل المسكين، مما اضطره بعد أن سُدت السبل في وجهه إلى أخذ عائلته والفرار إلى إيران ليعيش هناك مجهولا، لاعنا سوء حظه الذي جعلهم يختارونه في دور الشمر الكافر، متكتما في محيطه الجديد على ما فعل في سالف الأيام أثناء تمثيل أحداث الواقعة القديمة. تمتد أحداث الواقعة حتى وقت المغرب، والناس بلا أكل أو شرب طوال يومهم وقد انصهروا في الأحداث الدامية التي تدور أمامهم، وأصبحوا جزءاً من لحمتها الكابوسية وعذاباتها، فمن يعطش وهو يرى الدم يشخب من الحسين(ع) وأولاده وأصحابه؟، ومن يجوع وهو يرى نساء وأطفال عترة الرسول(ص) وقد ربط الجنود معاصمهم بالسلاسل الثقيلة، وأخذوا يجرونهم جر العبيد؟، من يشعر بالتعب وهو يرى زينب أخت الحسين وبنت علي بن أبي طالب عليها السلام وهي تقول شعرا داميا في أخيها، وتحاول أن تغطي جسده الممزق المذبوح بقماش الخيمة بعد أن سلبوا ملابس الشهيد وتركوه عاريا يتغطى بنجيع دمه من جروحه الخمسمائة ولعنته التي صبها على الكافرين؟(يتفاعل الجميع في أداء أدوارهم في تلك النكبة، ويتساءل الراوي الشيخ: "ليس العجيب هو قتل الحسين(ع) وعياله، بل العجب كل العجب في بقاء الحياة على الأرض بعده، وبقاء الجبال في مواقعها، والأنهار تنبع وتصب، والسماء زرقاء لا تنطبق على الأرض، والمجرات تتوسع كل لحظة ولا تتكوم كرة واحدة ملتهبة!، والليل يسبق النهار ولا يصير ليلاً دائماً، والشمس لا تبعث شواظا وحريقا ودخانا يفني كل شيء ويحيله رمادا منتشرا!".

1- زاوية في الدار يقع عليها ضوء الشمس فتكون في الشتاء مكانا للجلوس الدافئ.
2- فوانيس نفطية.
3- يتم تمثيل المعركة التي دارت رحاها في كربلاء واستشهاد الحسين(ع).

4- كان قائدا في جيش يزيد بن معاوية لكنه التحق بالثائرين واستشهد معهم.
5- الشمر بن ذي جوشن الذي حز رأس الحسين الشريف في نهاية المعركة.
6- المنبعج.
7- جمع حيزوم وهو مقدمة الزورق.
8- العقال هو ما يوضع فوق شماغ الرأس، وهو العقال العربي المعروف.
9- خادمة سوداء، وهي مملوكة للشيخ، من بقايا نظام الرق القديم.
10- فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم(ص) وأم الحسين بن علي(ع).
11- يتم تمثيل واقعة استشهاد الحسين(ع) في كافة مدن العراق قبل أن تمنع ذلك الحكومة في الثمانينات.

الجزء الرابع

- 19 –

مع كل انتصار معنوي يحققه جاسم العطية بين المعدان يردد بينه وبين نفسه: "الوعي سيد الواقع، نعم الوعي هو السيد!". ثم يتساءل بكبرياء: "من أذكى وأشد خبرة ومراسا من الشيوعيين؟". ثم يجيب علىنفسه: "لا أحد، لا أحد!". وفي أحد الأيام ذهب جاسم إلى المدينة صحبة اثنين من عبيد الشيخ لبيع ثلاث جاموسات أراد شيخ المعدان بيعهن، وبعد البيع اشترى جاسم بجزء من ثمن الجاموسات كارتوناً من خمرة "المسَيحْ"، وفي ذلك المضيف الذي يعبق بدخان المطال الحريفة وأدخنة زجاجات النفط، ورائحة الخمرة القوية مختلطة بأصوات نباح كلاب قرية الدبن، ونشيش البعوض، وأزيز أجنحة الخرفسان الأسود الطائر، ونقيق الضفادع وزحفها البطيء بعد المضاجعة، ومواء القطط وعراكها مع كلاب الجباشات المستوفزة من أشباح السكارى المتمايلين ولغطهم، وهسهسة قصب البردي والجولان وتشظي المياه، وأسطوانات مسعود العمارتلي(1) التي كانت تجيء أنغامها صادحة من الراديو القديم الذي اشتراه جاسم العطية ونصبه في مضيف(2) الشيخ مع كارتونة الخمر وبطارية كبيرة الحجم تحوي عددا كبيرا من البطاريات الصغيرة المربوطة، وكان المعدان قبل هذه الليلة العظيمة لا يعرفون الخمرة وأثرها المدوخ، وكانوا يخافون المذياع الذي كانوا يرونه في مقاهي المدينة ولا يعرفون كيف يتكلم، وكانوا يتساءلون في سرهم إن كان يحتوي على رجال أقزام ونساء ولديهم كل هذه الإمكانيات الخارقة في الكلام والغناء والعزف بالناي والدق على الطبول، وحده جاسم العطية كان مسؤولا عن إدخال الخمرة والمذياع إلى قرية الدبن المعزولة عن العالم. وكان يتساءل بيأس هل يفيد كل هذا لنقلهم إلى مؤامرات عالمه السياسي وتناحراته؟، أيكفي ذلك لنقل صرخات المظلومين من العمال والفلاحين في المدينة إلى ضمير سكان الأهوار؟. وكان يمسد شاربه المفروق من الوسط، محاولا أن يجد إجابات سريعة لأسئلة كثيرة تدور في رأسه. وفي تلك الليلة المقمرة التي لا تُنسى سكر شيخ المعدان ومعه كل رؤساء الأفخاذ(3) وكبار السن، ولم يمتنع عن الشرب إلا واحد من شيوخ الأفخاذ اشتبه أن يكون هذا المقوي هو من صنع الإنجليز، وهو يحرم كل شيء جاء من بلاد النصارى!. وكان جاسم قد أفهم الشيخ ورؤساء الأفخاذ أن السائل المر الذي يشربونه هو أحد أنواع المقويات القوية التي تنظف البطن من الطحالب والأشنات(4)، وأنها من صنع الطبقة العاملة العراقية مائة في المائة، ولا دخل لنصارى الإنجليز فيما يرون من عجائب السائل السحري. وسكر الجميع في ذلك المضيف. وحين تعالت أصوات الخمرة في الرؤوس واحمرت العيون وغلى الدم في العروق، أخذوا يرقصون ويغنون ويفرقعون بأصابعهم ويهزون أكتافهم ويميلون برقابهم، ويرفعون أيديهم إلى السماء يدعون الله بطول العمر للشيخ وجاسم العطية لأنهما أفرجا عن همومهم!، وكانوا أثناء ذلك يأكلون بأيديهم المتشققة السوداء من أوعية المزة التي تحوي خليطا من أوراق الخس واللبن الرائب، وأخذ قسم آخر يبكون ويسفحون الدموع متذكرين آباءهم وإخوانهم المتوفين، وانسل من المضيف بضعة رجال وهم يتمايلون متجهين

إلى حافة الهور، وفي الظلام أفردوا سيقانهم وانحنوا صوب صفحة الماء ليتقيأوا ما شربوه من سائل مر لم تحتمل سخونته وحرافته أجوافهم، وأخذوا يمسحون أفواههم بأطراف شماغاتهم، وأخذت تنطلق من ذلك السطر البشري الممتد على حافة الهور إضافة إلى سيل القيء، الضحكات العالية والسباب البذيء والسعال المتقطع، الجاف، ويغمسون بعد ذلك أيديهم في ماء الهور ليطهروا وجوههم، عائدين مترنحين إلى المضيف ليشاركوا من جديد في الشرب بطاسات الماء المعدنية المعوجة التي امتلأت بالسائل السحري الذي يشبه الحليب، وراحوا في مراهنات عقيمة وعقلهم السوداء، ساقطة حول رقابهم، متسائلين عمن يستطيع عبور الهور سباحة والوصول إلى الإشان(5) في هذا الليل المقمر، وراح جاسم العطية يثنيهم عن تلك المراهنات الخطيرة، وكان أكثرهم صحوا، فقد اعتاد هذا النوع من الخمرة كلما ذهب إلى المدينة، وأصر شيخ المعدان على عبور الهور سباحة، معتمدا على ذاكرته أنه قبل عشرين عاما حين كان مراهقا استطاع عبور الهور سباحة ووصل إلى "الإشان" في ذلك الحماد المرتفع، وقد ذكرهم بذلك وهو يتمايل يمنة ويسرة، ويتجشأ، وعارضه أحد رؤساء الأفخاذ وكان ابن عم له ويطمح أن يصبح شيخا للمعدان بعده، وقد فعلت الخمرة فعلها في رؤوسهم وجعلت فيهم حيوية أكثر من المعتاد، وخرجوا من المضيف وهم يتصايحون ويضحكون ويطلقون السباب البذيء، وحاول جاسم العطية ما وسعه من أن يصلح ذات البين بينهم ويثنيهم عن عزمهم المجنون، ولكن بلا فائدة، وخلعوا ثيابهم وبقوا في ذلك الظلام كما خلقهم الله عراة، ولم يكن أحد منهم في ذلك الوقت يعرف ما هي الملابس الداخلية التي تغطي العورة، ولم يخلع جاسم العطية ملابسه، تركهم يفعلون ذلك ولسان حاله يقول: "إن هؤلاء المعدان ولدوا في الماء وشاركوا الأسماك والضفادع معيشتها منذ كانوا رضعا، أما هو ابن القرية وهو في هذه الحالة من السكر سيغرق في شبر من الماء لا في هذا الهور العميق!". وفعل جاسم فعلا ذكيا حين ركب مشحوفه وصحب المارثون الليلي الغريب، وحالما نزل الرجال إلى ماء الهور خرجت نساء الشيخ وبناته إلى فسحة الجباشة وبأيديهن الفوانيس لمعرفة ما يجري، ويبدو أن الماء البارد الذي نزل فيه الرجال قد أطار الخمرة من بعض رؤوس كبار السن فارتدوا راجعين إلى جباشة الشيخ مغطين عوراتهم بقبضاتهم، متسترين بظلام المضيف المعتمة وهم يلعنون الشيطان الذي لعب بعقولهم وأنزلهم إلى الماء البارد في هذا الوقت من السنة، ولكن الرجال الباقين وضمنهم شيخ المعدان ابتعدوا يسبحون تحت نور القمر باتجاه "الإشان" البعيد، وكان قرص القمر الذي يسبح على صفحة الماء الراكدة غارقا في القعر منعكسا من جديد ليتبدد نورا مضاعفا، وكان كلما مضى الوقت في السباحة غط أحد السابحين إعياءً تحت الماء ثم ظهر من جديد ليعود سابحا باتجاه الجباشة التي انطلق منها نادما على ما فعل، وموشكا على الموت غرقا، وكانت البقية الباقية من الخمرة في رؤوس الرجال تجعلهم يسبحون بشكل دائري وهم يبتعدون عن الإشان ولا يصلون إلى شيء غير الطرطشة في الماء والدوران في دروب البردي المتشابكة، وكان من حظ بعض السابحين أنهم كانوا يسبحون في مناطق ضحلة وغير عميقة، ويقفون على أرض القعر بأجسادهم العارية التي يلصف عليها نور القمر، ويستردون أنفاسهم المتقطعة أو يتقيئون ما شربوه من ماء الهور الممزوج بما في بطونهم، بأصوات عالية، كأنما سيلفظون أنفاسهم الأخيرة مع آخر دورة قيء، وأجسادهم

السمراء ترتجف من البرد، وكاد شيخ المعدان أن يغرق لولا قرب مشحوف جاسم العطية منه، الذي مد يده وسحبه باتجاهه وجعله يتمسك بالمشحوف وعلى حيزومه تقيأ بحرقة، ليستعيد صفاء تفكيره وحكمته، ويطلب من جاسم أن يساعده ليصعد المشحوف، ويطلب من باقي رجاله العودة، فالموت أهون عليهم من عذابات السباحة في هذا الماء البارد بأجسادهم الهزيلة وقد كبروا في السن، ولم يعد هذا اللون ما يجيدون! فصرخ جاسم العطية بالرجال أن يرجعوا إلى جباشة الشيخ، وعادوا بالتتابع كالجنود المهزومين بأجساد مرتجفة، وسط ولولة النساء وتحضيرهن إزارات(6) الصوف ليضعها الرجال على أجسامهم المبتلة، وأخذ الرجال الذين وصلوا أولا يبحثون عن إخوتهم وأبناء عمهم وينادونهم للمجيء إلى الجباشة، وكان شيخ المعدان قد وضع على رأسه المبتل إزارا صوفيا وبيده لفافة تبغ ابتل نصفها، وأسنانه تصطك من البرد، وإلى جانبه جاسم العطية في ذلك المشحوف المرمم، يقودان عملية البحث عن الذين تاهوا من المعدان بين صفوف القصب في تلك الليلة الضاجة بالحماقات.

- 20 –

في ذلك اليوم المغبر تسفح الدموع من عيون أهل القرية. وحين يجف الدمع ولا تبقى في صدورهم شهقة إضافية، يتقدم الرجال المكفنون بالقماش الأبيض، برؤوس حليقة خدرها الضرب بأغصان شجر التوت عدة ساعات قبل القدوم، وبوجوه غطاها الوحل، والدماء تصب من رؤوسهم وقد ضربوها الضربة الأولى بالقامات التي كانت أعرض من السيوف وأكثر وزناً، ويسير إلى جوار كل ضارب قامة مساعد يحمل في يده خشبة عريضة تصد القامة عن الوصول إلى هدفها، وهدف ضارب القامة فلق الرأس إلى نصفين، وبالذات عند اشتداد حمى الانفعال، ويصرخ الرجال: "ياحسين، ياشهيد، ياحسين!"، بأصوات تقطع عند سامعها كل أمل بالنجاة من عقاب الله الأبدي. في تلك اللحظة المؤثرة ينزع جنود ابن زياد ثيابهم الحمراء للتكفير عن خطاياهم في محاربة الإمام، ويشتركون مع ضاربي القامة وضاربي الزنجيل(7)، ويأتون من جهة أخرى برؤوس حليقة موحلة وثياب ممزقة، دلالة على عدم اشتراكهم في جريمة القتل، فقد كانوا بعيدين عن أرض المعركة، وكانوا بقلوبهم وسيوفهم البعيدة مع الحسين(ع)، وأخيرا وردهم نبأ المقاتل فجاءوا نادمين لانشغالهم بأمور دنياهم عن دينهم، ذنبهم كان صغيرا، فعقابهم سيكون من جنس عملهم، سيجلد ظهورهم الزنجيل ويخمشها ويدميها ويصبح الزنجيل بديلا للكرباج الذي سيسوطهم به الحاكم الظالم على مر التاريخ، ستلتهب جروح ظهورهم لتتكيف بعد ذلك لمعانقة ضفيرة كرباج السلطان، دون إطلاق صرخة ألم أو عبارة احتجاج في عبودية تامة تتقبل الألم والخضوع والكف عن الولولة والشكوى والبحث عن المنقذ. فالمنقد أخذته رمال كربلاء إلى جوفها ودفنت الجسد المنزوع الرأس ووارته عن الأنظار والرؤوس حُملت على أسنة الرماح لتتوسط مجلس يزيد بن معاوية الضاج بضحكات الجواري واللوطيين والقرود المدربة وأرباب الحكم من بني أمية، حملت تلك الرماح الرؤوس الطاهرة لتزيد من جروح المحبين، ساخرة من هيبة الجبال المنتصبة بغباء!، والشمس التي تشرق كل يوم ككرة بلهاء!، هازئة بالمجرات الآخذة بالتوسع والتمدد!. ويضيع

صوت الراوية، فلا أحد يصغي لصوته الجهوري وقد أخذتهم رؤية الدماء الحقيقية الشاخبة من الرؤوس وقطع الخشب التي يمسكها المساعدون ويتمزق نثار خشبها المديوف بقطرات الدم المتناثرة، وصرخات الرجال، وهم يضربون ضرباتهم الناجحة، الفالتة من مصدات الخشب، الضاربة في الهامة، والتي ترضخ عظام الجمجمة فيتهاوى الرجال بوجوه ذابلة وعيون منتصرة، فقد نجحوا في بلوغ المرام، وعانقت أجسادهم الرمال مع الشهداء!. لا فرق بينهم وبين الحر بن زياد الرياحي أو علي الأكبر(8) أو العباس بن علي عليهم السلام. أخيرا كفروا عن ذنوب الأجداد ومسحوا بدمائهم ما اقترفه أولئك الذين سكنوا الكوفة وخدعوا الحسين برسائلهم ووعودهم الزائفة. لن يوقف موتهم أحد، فقد اصطحبهم الحسين(ع) معه في موكب الناجين! ولم يشملهم أسر ابن زياد(9)، لقد تمردوا على حباله وسيوف فرسانه وذهبه وفضته وصولجان حكمه، وانسلوا بين الأقدام ساقطين يعانقون الرمال، أهي نفسها تلك الرمال الرطبة التي مضغها الحسين(ع) باحثا في رطوبتها عما يقلل من تخشب لسانه؟، أيا تكون هذه الرمال حملتها الريح من صحراء كربلاء أو نجد، أو جاءت بها من مصر التي دُفن في أرضها رأس الحسين(ع) وجعلته مزاراً، فالحياة واحدة والموت واحد والاختيار واحد لا يتغير، ولا حياة في الحياة لغير المعنى!. يختفي الراوي بين المزدحمين لا يراه أحد، هل اختلط بضاربي القامة؟، هل أصبح واحداً من ضاربي الزنجيل؟، هل اختفى في غمامة الأتربة وسف الرمال؟، هل تحول إلى أسير يسوقه الجنود إلى ابن زياد؟، لا أحد يعرف!!. يُحمل الموتى من ضاربي القامات ليُصلى عليهم في الحسينية، وبعد ذلك يدفنون بدمائهم، فدم الشهيد هو طهارته وثوبه كفنه. وفي ذلك الموج البشري الذي أُصيب بجنون التكفير والندم يسحق الأطفال بالأقدام، وتختنق العجائز والشيوخ بفعل الغبار والازدحام، ولا يتعرف الأب ابنه، أو الرجل امرأته، أو الصاحب صاحبه!. ذلك القس الذي استأجر رأس الحسين(ع) المحمول على سن الرمح لليلة واحدة، استأجره من الحرس الغلاظ وهم في طريقهم إلى دمشق، ليحصلوا على جائزة القتل من خليفة المسلمين يزيد!، أعطى الجنود عشرين ديناراً ذهبياً بيزنطياً، وكان هذا كل ما استطاع جمعه في حياته الطويلة، قالوا له: "ماذا تفعل برأس مقطوع؟". قال لهم محاولا إخفاء نياته: "أنظره وأرى كيف تقطعون الرؤوس!". ضحكوا من بلاهته وسخروا، ولكن ما أعطاه لهم من ذهب في تلك الليلة أعمى عيونهم عن معرفة أهدافه الحقيقية. كان يعرف أن هذا الرأس يعادل مجرات الكون وجبال العالم وسهوله!. وتذكر في تلك اللحظة جسد المسيح(ع) الذي صُلب، وكان قبل ذلك يتساءل في وحدته "ألم يكن لأحد من سكان فلسطين ذرة عقل، ليُنزل الجسد بعد إنصراف الجلادين، ليأخذ الجسد ليستبقيه ليلة في بيته، ويرى في جسده آثار تثقيب المسامير وصرخات الألم المحتبسة في الفم الكريم؟". أخذ الرأس من الجنود(هل انتزعوه من سن الرمح؟، أم أعطوه الرأس معلقا بالرمح؟، لا تقول الروايات شيئا عن ذلك صراحة، ولكن استرسال الأحداث يثبت أنه أخذ الراس بعد انتزاعه من الرمح). غسله بماء الورد وجعل البخور حوله، رأى عتمة الموت تفارق ذلك الثغر الذي قبله الرسول الكريم(ص)، وكانت طاقة من النور تحيطه، وتلك الندبة المضيئة في الجبهة، لماذا هي أكثر نوراً من كل جهات الوجه؟، وذلك السرور الخفي الذي تخفيه قسمات الوجه؟، وتلك الشرايين المندلقة من تجويف الرقبة التي ما زالت تنضح دماً عبيطاً(جروح الشهداء لا تتوقف عن نضح

الدم حتى بعد ألف عام)، وتساءل القس: "أين ذهب تصلب القسمات عند مفارقة الحياة؟، هل رأت العينان في لحظة الموت ما أذهب عنها محبة الحياة؟، ماذا رأت؟، وهذا الأنف الأشم الذي سيضربه بعد أيام ابن معاوية(10) بالسوط حين يُقدم له الرأس بطست الذهب، تلك الغيبوبة هل جاءت من غربة المنفى أو فداحة القتل؟، أتبقى الخصلات من شعر الحسين(ع) تُقطع بمدية "يفعلها القس بكف مرتجفة" مضيئة، وامضة؟، كأنما هي قطعة اختزنت الأضواء وبقيت ترعف ذلك الضوء على مر الأزمان وحتى يوم القيامة!.(أخرج القس جلد غزال ودواة وريشة وأخذ يرسم وجه الحسين(ع) كما بدا له في نور الهالة القدسية، فوق المنضدة الخشبية التي وضع عليها الرأس الذي كان في ضيافته ليلة كاملة، كان رساما ماهرا(11)، واحتفظت أجيال كثيرة بصورة ذلك الرأس المقطوع، تنضح من عروق رقبته الدماء فوق قطعة قماش بيضاء، مربعة على تلك المنصة الخشبية. وبعد ذلك بألف وتسعمائة عام طُبعت من الصورة ملايين النسخ بالأسود والأبيض، وأضافت الظلال السوداء للألم الذي تشي به الصورة بعداً مأساوياً سيبقى في ذاكرة كل من وقعت عيناه على تلك النسخة من الصورة!. لم تكن صورة لرأس رجل مذبوح، بل كانت صورة العالم وقد ذُبح من الوريد إلى الوريد بلا شفقة أو رحمة!. لقد حملت تلك الصورة التي ظهرت على الملأ مناخاً متوحشاً شبيهاً بالقتل المتكرر، القتل ثم البعث، والقتل من جديد والبعث لملايين المرات!. القس رسم الصورة عندما يكون الناظر إليها وجها لوجه، ورسمها كذلك من جهة اليمين، وأعاد رسمها من جهة الشمال فوق ذلك الجلد القديم، بريشته المرتجفة ونقيع الأخشاب المحروقة، هل تساقطت الدموع من عينيه وهو يرسم تلك اللوحة -الشهادة- بكل ما حملته من دلالات؟. الإجابة واضحة من ارتعاش الخطوط وانثناء الورق الذي سقطت عليه الدموع بحامضها النووي الذي أتلف نسيجه الجلدي وأظهر تفاعلاً لونياً على الجلد تستطيع أن تلاحظه العيون، من جهة الشمال واليمين أظهرت جرح الخنجر الذي أخطأ الذبح في البداية، فقد كانت يد الشمر مرتجفة، ونفسه تواقة لإنهاء هذا الأمر الكريه والفوز بالجائزة، والجائزة كانت كبيرة، إنها مُلك الري(12)!. ولا يكلفه ذلك سوى هذا الجهد الضئيل ببتر الرأس عن هذا الجسد المتألم، المثخن بالجروح. ربما في لحظة غواية شعر أنه يفعل فعلاً حميداً بتخليصه من آلام جروحه، والإجهاز عليه ذبحاً هو الحل، لقد وضع لفعله القبيح تلك التبريرات التي يصنعها الإنسان في كل عصر تتصارع فيه الطموحات الشريرة والأهواء مع القيم والأخلاق والمبادئ، وهي في حقيقة الأمر تبريرات خرقاء، لا ترى الحقائق البسيطة إلا بعين الطمع لتحقيق الغايات، وتبتعد عن الصواب بقدر الاستطاعة، ويأخذها الخيال الشيطاني بعيداً لتبييض الأسود وتسويد الأبيض!. وقد جاءت ضربة الخنجر الأولى في جانب وجه الحسين(ع) وهي التهيئة الضرورية التي تتيحها له جرأته لقيامه بحركته الأخيرة بفصل الرأس تماما عن الجسد الشريف في أتم صورة مطلوبة في ذلك العصر!. ذلك القس كان معروفا، والذي لم يكتف بذلك الرسم التخطيطي للرأس المقطوع وذلك الاستبقاء ليلة واحدة، ذرف خلالها الدموع وأقام الصلوات على روح الشهيد، بل إنه خاطب الرأس، واستمع له وأجابه عن كثير من أسئلته، وتلذذ بسماع لذيذ نجواه، وعرف في تلك الليلة الكثير من الأسرار والنبوءات والحلول لمعضلات كانت تؤرقه منذ مقتبل شبابه وتؤرق

العالم القديم بأكمله!. كان كل ذلك يقال من على منبر القرية بعد دفن الأجساد في اليوم الثالث عشر من محرم.

- 21 –

"الحفيظ" ذلك المكان المجهول في الهور الذي يحوي خزائن المهدي(ع)(13) الغائب، المنتظر من قبل الشيعة، الذي سيظهر في يوم من الأيام، وقد امتلأت الأرض جوراً وضجت بالظلم والرزايا. وتفرقت شيعة آل البيت في كل أرجاء الأرض بحثاً عن الأمان، وللاختفاء من أعداء أشداء ينوون الفتك بهم، وقد امتلك أهل الظلم ناصية الأمور، وجعل الظالمون دأبهم في البحث عن عترة الرسول وشيعة الإمام لذبحهم وإخفائهم عن ظهر الوجود، توطئة لإزالة الإسلام عن الأرض، فلا يزول الإسلام ولا ينكسر ظهره وتضعف إرادته وامتلاكه قلوب الناس ووجدانهم إلا بزوال عترة الرسول وشيعتهم. وحين يدلهم الخطر وتزداد الخطوب يظهر "المهدي"(ع) من غيبته التي امتدت إلى أكثر من ألف وثلاثمائة عام، منذ اختفى في ذلك السرداب في مدينة سر من رأى(14)، وجنود بني العباس يتعقبونه لذبحه، كما فعلوا مع أجداده وأهله، وأبوابه ومريديه، اختفى الإمام في ظلام السرداب ليعود من جديد مع تباشير عالم جديد، وبانتظار ذلك اليوم الذي سيحتاج في دعوته للمال لتجنيد الجيوش وشراء السلاح لإقامة دولة الإسلام الكبرى التي ستمتد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، لتشمل العالم بأكمله، وسيظهر معه سيدنا المسيح(ع) ليكون ساعده الأيمن ووزيره الأول، والكثيرون ممن ماتوا منذ أقدم العصور ستعاد إليهم الحياة ليشاركوا في ثورة المهدي(ع) بإذن الله وقدرته، ستجيء الجيوش الجرارة من الشرق والغرب لمحاربته والقضاء على ثورته، لكن مشيئة الله الجبارة ستحول سلاحهم إلى حديد لا يضر ولا ينفع. وأثناء ذلك سيعود العالم إلى وسائله القديمة البدائية، وتتوقف في تلك الأيام مصادر الطاقة وتستكين الآلات، ولا تطير الطائرات أو تندفع الصواريخ،ولا تنطلق المدافع، يتحول كل شيء إلى حديد لا معنى له ولا فائدة منه! ويعود الناس مرة ثانية لاستعمال السيف والرمح والنشاب والترس وسراج الزيت القديم!. واستعداداً لهذا الحدث الكبير الذي سيهز العالم ويحوله إلى عالم لا حول له ولا قوة أمام قوة الإيمان، حيث تجيء كرات مضيئة من السماء تعلن عن الفرح الأكبر! وتكتب بأضوائها اللاهبة أسم الله والرسول الكريم وآل بيته والشهادتين وأسماء الله العظمى. وقبل تلك الأحداث الكبيرة، ومنذ زمن بعيد، يجمع أهل القرى القريبة ما يجود به أخيارهم من مال وذهب، وتُدفع إلى صناديق الحسينيات، ويُرسل بعد ذلك إلى صندوق الحسينية الرئيسية في قرية الجوابر، فيتم إحصاء ذلك المال، حيث يبعث بعد ذلك بيد أحد لاستبداله بالذهب والفضة، ويسجل كل ذلك في سجل الحوادث الخاص بقرية الجوابر، ويُرسل خمسه إلى النجف بيد مبعوث خاص لغرض دفعه إلى الحوزة العلمية للصرف على طلاب العلم وشراء الكتب لهم، وتبعث القرية عدداً من أولادها النابهين لتعلم القراءة والكتابة والتفقه بأمور الدين، ليعود من تعلم منهم بعد ذلك لمسك أمور الحسينيات الكثيرة المنتشرة في الجنوب، وتعليم الأولاد قراءة القرآن ورواية السيرة النبوية

والوعظ أيام عاشوراء والتذكير بثورة الحسين(ع). أما المتبقى من الذهب وهو أربعة أخماس، فيحملها السيد مهنا لإيداعها في كنوز "الحفيظ"(15) التي لا يعرف مكانها سوى أمثاله من الحافظين من أطراف البلاد، وهو اللقب الذي يحمله أباً عن جد، ومكان الحفيظ وكيفية الوصول إليه يورث للأبناء كإرث ثقيل وواجب صعب ولا يستطيع أحد أن يمد يداً لذخائره حتى يحضر الغائب عليه السلام ويتصرف بأمواله. وهناك حكايات قديمة يتناقلها الحافظون أنه حين حاول أحد أجداد الحافظين أن يخون أمانته، وقد أغراه الشيطان لعنة الله عليه، فتحول نصفه إلى حجر والنصف الآخر إلى جسد حيوان، وبقي يقبض بحافريه الأماميتين على سبيكة من الذهب كان يبغي التصرف بها حين كان حياً. وقد امتلأ الهور بقلاع وهمية كثيرة انتشرت في الأقصاء المختلفة منه لتضليل الطامعين والباحثين عن الكنوز والآثار!. ولن ينسى أهل الجنوب وهم يرون حملات الإنجليز الآثارية في البحث عن "الحفيظ" وكنوزه، لن ينسوا تلك الوجوه الحمراء والبنطلونات الكاكية القصيرة التي تظهر أجسادهم الملساء بزوارقهم البخارية وهي تشق ماء الهور وتوقظ الحيوات الغافية فيه منذ آلاف السنوات، والعيون تراقبهم وهم يبحثون وينقبون في القلاع القديمة والآثار التي امتلأت بها أهوار الجنوب، الظاهرة من بعيد كقلاع عائمة وسط المجاهيل المائية المترامية الأطراف، وكانت نفوس أهل الجنوب تمتلئ بالخوف والخشية من وقوع تلك الكنوز في أيدي الإنجليز، لكنهم كلما نظروا إلى الحافظ الذي كان في ذلك الوقت السيد خضر والد السيد مهنا، الذي كان ممددا في صريفته بلحيته البيضاء المهيبة، وشماغه الأزرق على رأسه وعقاله الراكز فوق الشماغ، وسبحته الحسينية في يده يفرد حباتها على بساط من الصوف، وسط أبنائه وحفيداته ولا يرف له جفن، وبين الحين والآخر يلف سيجارة ويبصق التبغ الزائد الذي لصق بشفتيه، ولا يخاف من شيء على كنوز الشيعة، فهي كما يقول محفوظة بأمر الله مهما فعل الإنجليز، ومهما كثرت طائراتهم الماسحة كل يوم مجاهيل الهور البعيد وبقعه المجهولة، وكلما بذلوا الجهد واستعانوا بالحيلة باءوا بالفشل للوصول إلى شيء، وكان الإنجليز يفرحون عندما يعثرون في حفرياتهم على تماثيل طينية مفخورة قديمة يرجع عهدها إلى السومريين وأقوام متفرقة أقدم من تلك الأقوام، كانوا يعيشون على هذه الأرض قبل أن تغمرها المياه، وتركوا قلاعهم وحصونهم، ومضوا في غيابات التاريخ البعيدة، إنهم لم يخلفوا سوى نقوشهم وتماثيلهم الصغيرة والكبيرة وبصمات أدوات الشحذ على الجدران وأعمدة القلاع، وسجلت أعمالهم التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، وقبل ذلك جاءت على ذكرهم النقوش المسمارية القديمة. وفي تلك الأيام التي يتذكرها السيد مهنا جيداً، حين اصطحبه أبوه معه وهو صغير بعد حفلة صغيرة أقاموها له في الحسينية وأعلنوا أنه أصبح السيد الشيعي لتفريقه عن باقي الشيعة، ليدله على موقع خزائن الحفيظ في ذلك الخلاء الشاسع من الماء والبردي والجولان، وقد استشعر الأب هاتفا بدنو الأجل واقتراب موعد مفارقته للحياة، وعليه أن يترك وريثاً لمهمته، كما هو معروف في الأسرة. أخذ السيد الشيعي الصغير وكان يضع العلامات على الطريق، ويقول لولده: "لا تنسى هنا شجرة سدر ضخمة"، "وهناك حجارة منحوتة كبيرة!"، "وبين هذه الأكمة والجزيرة الصغيرة المهجورة تجد مشحوفاً، بعدها تجعل الشمس إلى يسارك، حتى تصبح الشمس فوق سمت الرأس ثم تسير حتى تبلغ حجر الأفعى، وهو حجر كبير له وجه الأفعى وذنب السمكة، وتسير في الممر

الترابي حتى تقطع الإشان الأحمر، وتبدو لك صخوره شديدة الاحمرار من جهته الخلفية، وتجد أمامك لوحاً من البردي طافياً تستخدمه للعبور في مياه الدرب الضيق، يفعل كل ذلك وقد أمسك الصبي من يده وقد شد على جبهته خرقة خضراء دلالة لتعرفة الجن بالقادم بصحبته، وهؤلاء الجن هم الذين يحرسون الكنوز الشيعية، وعليهم أن يتعرفوا على وريث الحافظ، وطوال الطريق المضني الذي يتراوح بين المشي على أرض صخرية في قلاع مهجورة وركوب المشاحيف وطوافات البردي(16) لبلوغ تلك المسافة الخضراء النائية، ووسطها يقفان، كما أشار له أبوه ويمد الأب يده باحثا في العشب الطري عن شيء لا يُرى، حيث يتبدل المناخ فوق تلك البقعة المباركة، ويهمس أبوه في أذنه: "سبح ياولدي بحمد الله مائة مرة!، فأنت الآن فوق بقعة مباركة من بقاع الجنة، الملائكة والجان يرونك ولا تراهم ويسمعونك ولا تسمعهم!". ثم يضيف: "هنا فوق هذه البقعة لا صيف ولا شتاء، إنها الربيع الدائم، فهي بقعة مباركة بحق لا يعرف مكانها غير الحافظين، ومن قرية الجوابر لا يعرفها سواك وأنا، احفظ المكان جيداً لتجيء وحدك بعد أن أموت، يقول أجدادنا فيما يقولون إنها بقعة غير كائنة على الأرض!، إنها في حقيقة الأمر سن ناتئ في بداية السماء السابعة، وإننا طرنا إليها دون أن ندري وبقوة الله القوي، وكل خطوة خطوناها منذ خروجنا من بيتنا في الجوابر هي في حقيقة الأمر بين النجوم والمجرات حتى بلغنا برازخ الجنة!، فسبح بحمد الله المنجي وأشكره..".
ويكرر من جديد: "احفظ المكان جيداً، لتجيء وحدك عندما أموت لتؤدي أمانة طائفتك بحمل أموالها إلى هذا المكان، حتى يحين موعد خروجه جعل الله ذلك في أيامك، فإذا خرج من غيابه الطويل في أيامك قد يجعلك من جنوده أو لا يفعل، فإن فعل فقد كرمك!، وإن لم يفعل فهو أدرى بما يريد!. فقد قربت أيامه، إني أكاد أن أرى لحظة خروجه إلى العالم!"، ثم سبح سبعا وسبعين مرة وحمدل مثلها، فانفتحت في الأرض المكسوة بالعشب كوة فدخلاها وسارا إلى تحت الأرض على سلم يتدهور إلى الأعماق بالتواء، وكلما نزلا درجة إلى أسفل الأرض امتلأ المكان بالضوء وتلاشت العتمة!، كأنما في عمق الأرض شمس أخرى!. وما أن هبطا آخر درجة في ذلك الدرج المنحني حتى امتلأت عيونهما برؤية مساحات واسعة مزروعة بأشجار عملاقة مثمرة، لم تقع أبصارهما على مثيل لها من قبل، وأثمار ملتمعة بالضوء واضحة النضوج، وبحيرة صغيرة ساكنة شديدة الزرقة وشمس مضيئة تنعكس فوق مياهها، وهمس الأب لابنه: "إنها ليست التي نراها في قرية الجوابر!، انظر إليها فيها شق في الوسط لا يندمل إلا بظهور المهدي عليه السلام!، كما أن التحديق فيها لا يؤذي البصر، وتلك رحمة من الله عز وجل!". وما أن ولجا إلى الطريق الصخري حتى أفضى بهما إلى كهف عملاق نُحت في الجبل وقد حُفرت فوق أحجاره آيات القرآن كلها، وأسم الرسول الكريم وأسماء الشهداء من آل البيت والصحابة، منذ عهود الإسلام الأولى وحتى يومنا الحاضر، وتوهجا في ذلك المكان بنورين، كان الصبي يرى إلى أبيه فيراه محاطاً بهالة من الضياء!، فاعتصره الخوف أول الأمر ولم يفطن إلى الضياء الذي أحاط به، فصرخ منذراً، فقال له أبوه ويده تمتد في حنو لتمسد شعر رأسه: "لا تخف ياولدي، هذا نور الأولياء والشهداء قد أحاطنا!، ولو كان غيرنا في هذا المقام لاحترق من هذا الوهج الذي لا تحتمله الأبدان، إنه النور الذي سيأتي من السماء فجر ظهور المهدي عليه السلام من غيبته، الذي يوقف كل شيء متحرك!، ويحوله إلى حديد لا

معنى له ولا فائدة منه!. وفوق هذا المكان كانت الطائرات الإنجليزية تتوقف محركاتها وبوصلاتها، ويغيم بصر طياريها فلا يعرفون مكانهم إلا بعد تجاوزهم هذا المكان!". ورأى الصبي إلى نفسه فرأى وهجا مشابهاً لما حول أبيه يحيطه كالسوار، فسبح بحمد الله مثلما يفعل أبوه!، وهدأت نفسه وزال عنه الارتباك، وتبع أباه حتى تجاوزا قبة الكهف المنقوشة، وانفتح أمامهما باب حجري، بعد أن صاح والده بصوت أجش: "ياحامي المكان قد جئت بالسيد الشيعي أبن السيد خضر الذي سيكون حافظاً بعدي، فقد أزفت الساعة واقترب الموعد بلقاء الأحبة، فما أن يجيئك بعدي حتى تفعل معه ما كنت تفعله معي من حفاوة وتكريم ورعاية!". ومس رأس الصبي بكفه المعروقة، وأخذ يده بالكف الأخرى وأدخلها في كوة في الباب الحجري، فانفتح الباب الثقيل بصرير مخيف، ودلفا إلى داخل الكهف، ونظر الصبي إلى بدائع المكان وروائعه من الدر والمرجان وأكداس الذهب والفضة، ورأى ملابس الغائب المنتظر معلقة في شمعدان كبير من الذهب، وإلى جانبها على منضدة من الفضة درة الزمان التي من حملها في يده تفتحت أمامه الأبواب والنوافذ والمسالك الموصدة، وتساقطت الأقفال وذاب الحديد والبرونز والنحاس بإذن الله وقدرته!. وفي قراب من الجلد نُقش عليه بماء الذهب أسم الله العظيم وأسم الرسول الكريم "ص" وأسماء آل البيت عليهم السلام أجمعين، وعُلق سيف المنتظر(ع) الذي سيحارب به أهل الكفر وأعداء الإسلام، ويحق الحق وينشر السنة النبوية ويجعل الناس تنطق بالشهادتين وتصلي للواحد الأحد في مشارق الأرض ومغاربها. وأخرج الأب من جيبه الصرة التي تحوي ذهب المتبرعين وفتح صندوقا كبيراً نُقش على غطائه بزخارف جميلة ورصع بأصداف وكُتب عليه بماء الذهب وبخط كوفي قديم: "لا فتى إلا علي(17) ولا سيف إلا ذو الفقار(18)". وأفرغ من صرته القطع الذهبية داخل الصندوق فأحدثت صوتاً في ذلك الصمت المهيب، وأعاد غطاء الصندوق إلى وضعه السابق، وتساءل الصبي في ذاته: "ما قيمة ما جلبناه لهذا الكم الهائل من الثروات؟". وهمس أبوه وقد تورد وجهه بالنور وذبلت عيناه من ذرف الدموع: "يابني أخفض بصرك ولا تحدق في أموال المسلمين لئلا يطمع قلبك! أخفض بصرك ولا تتعلق نفسك بما موجود! فإن هذا الجود له وليس لبشر!". وبعدها قرأ الأب سورة البقرة وردد الصبي بعض آياتها مستمتعاً برائحة البخور التي ملأت المكان. خرجا من كهف الكنوز وسُدت الصخرة وسلكا في طريق الخروج الذي جاءا منه أول مرة، ولكم كانت دهشة الصبي عظيمة حين اكتشف أن ما رآه حين كان قادما يختلف تماما عما رآه وهما يغادران المكان، فقد خرجا إلى أرض صخرية غابت عنها الشمس وأختفى عشبها ومناخها الربيعي، وعادت إلى قيظها اليومي اللاهب، وعاقولها الساخن الذي يخز الأقدام، وراح أبوه يرشده إلى طريق الرجوع إلى قرية الجوابر ويحدد له الاتجاهات لئلا يضيع في المرة القادمة حين يقصد المكان وحده لإداء الأمانة بدلا عنه. وراح الصبي يحفظ بعينين مدهوشتين وقلب غُمر بفيض الإيمان وشفتين تسبحان بحمد الله والصلاة على رسوله الكريم... قال الأب وهو يسترد أنفاسه: "هذا هو الحفيظ ياولدي، القريب من الناس والبعيد عنهم بذات الوقت! الذي يبدو لساكني الأهوار(19) وضفاف الأنهر من القرى والمداشر(20) ليلاً كبركان النار الحمراء، التي لن يهتدي إليها أحد، نار كبيرة حمراء وسط الهور الشاسع، كلما سعيت إليها ازدادت عنك بعدا، وكلما نأيت عنها أقتربت منك وأشعرتك

أنها قريبة منك وعلى قاب قوسين أو أدنى من ذلك، ولن تطال شيئا من قربها أو بعدها عنك، فقط إنها تشعر الناس بإلحاح غريب باليوم القريب القادم!.

- 22 -

في تلك الأيام الباردة من أواخر شباط، حيث تظهر الشمس فوق الهور بكامل سطوعها وعنفوانها، وتتكرر لأهل الهور مرتين، مرة عند ظهورها الساطع في السماء، والثانية عند إنعكاسها فوق صفحة المياه الصافية، كاشفة هدوء العمق ولحمته المزدحمة بالأسماك الصغيرة المتجولة، وبيوض الضفادع تفقس عن دعاميص صغيرة منتفخة البطون، وطحالبه الخضراء المتداخلة، وقواقعه الملونة، وقعره المزدان بنباتات عنقودية غامقة الخضرة تحرك أغصانها التيارات المائية يميناً ويساراً،مختالة في ظل أعواد القصب والبردي الشائخة أو تلك الوليدة حديثاً بإخضرار مصفر، متمايلة بارتخاء، فاتحة وريقاتها الملساء كالسكاكين الباشطة، مبللة بالندى الذي بدأ يتبخر بعدما ارتفعت الشمس في المدى.

سارت مشاحيف النساء التائبات صوب الإشان في ذلك اليوم الشباطي صوب ذلك البناء القديم، المتفرد في عمق الهور بقبته الحمراء وأبوابه التي بلون النحاس الصدئ، ورياته البيض التي على قماشها بصمات أكف ملوثة بالدم، وذلك الدخان المتصاعد من مدخنته، وكل شهر تقصده نساء المعدان اليافعات من أجل أن تمتلئ أحضانهن بالأطفال بعد أن أصاب اليأس حكيم "الدبن"(21) من أن يصبحن أمهات، فلم يبق أمامهن غير صاحب القبة الحمراء ليقوم مقام الحكماء والأعشاب، بعد أن مللن من البخور وأخشاب الصندل وملء الملابس بالدخان الزكي الرائحة، وبلع مرارة الديك على الريق، وسلق عيون القنفد والخلد واليربوع في قدر واحدة، واستنشاق أبخرته الحريفة والاستحمام بنقيعه. نساء صغيرات تكومن في تلك المشاحيف الصاعدة صوب الإشان الذي أخفته صفحة الماء الواسعة، ولا يبدو منه شيء لأهل الدبن. صغيرات مكحلات العيون، بملابس مزركشة بالورود، تزوجن قبل عام أو أكثر بقليل من ذلك، وبقيت أرحامهن جافة، عاجزة عن الإنتفاخ، وحضن المضغة لتكون علقة، والعلقة لتكون عظماً وإكساء العظم لحماً، فتدب الحركة في ذلك الفراغ المظلم، المملوء بوسائد من سائل دافئ رجراج، حتى يحين موعد الطلق، فيحضر الإمام علي وفاطمة الزهراء عليهما السلام، ليمسكا بذراعي الأم، فتلد حيوة صغيرة تبحث بشفتيها المضمومتين، الورديتين، والرأس الصغير المعصّب عن مكان له في جوف الصريفة المظلم، ودخان الزجاجة المشعلة، ورائحة زفرة الدهن الحر(22) والأسماك المجففة، المعلقة مع رؤوس البصل والثوم في حبال الصرائف كجوارب مثقوبة، ومياه الهور التي لها رائحة الغرين وطلع القصب والعنكر، ووشيش أجنحة البعوض والذباب والفراشات، ونقيق الضفادع وفساء السلاحف المتشمسة في أطراف الجباشات، وفلول الأسماك الصغيرة والدعاميص الجوالة، الهاربة بتوفز بفعل تحرك ظلال القصب المتكسرة في الماء. تدرج المشاحيف الثلاثة بحملها من نساء الدبن صوب ذلك البناء القديم الذي يتحدث عنه المعمرون في رواياتهم أنه موجود منذ الأزل، بنقوشه القديمة، وصخرته التي كانت تذبح فوقها الأضاحي، وحين جاء الباحثون عن التاريخ والحضارات القديمة فسجلوا في كتبهم أنه من معابد السومريين القديمة، وأرفقوا كتابتهم بصور التقطوها له وأطلعوا العالم على ما يحوي من نقوش وكتابات وآثار موغلة في القدم،

ذاكرين فيما كتبوا: "إن تلك الأمكنة كانت تقام فيها أفراح ومناسبات الخصب والنماء، حيث تلون النساء وجوههن بالأصباغ، ويفعل الرجال كذلك، وتصبح النساء مشاعاً للرجال لأكثر من يوم كامل، وتُقدم الأضاحي على تلك الصخرة الداكنة، وسط البناء، ولم يبق من ذلك المعبد القديم سوى تلك الصخرة وذلك البناء الصغير الذي تم ترميمه في عهود مختلفة بأيدي كهنته، الذين توارثوا العمل فيه منذ قديم الزمان، ولا يصل إليه الرجال(في الوقت الحاضر، ولا يسمح لهم بذلك باستثناء خدامه) لئلا تمسكهم جنيات الهور، ويعبث بهم شياطين الحماد(23)، كما تروي روايات المعدان، فيضيع صوابهم ويبقون في العراء، ولا يجرؤ أحد على إيوائهم مخافة العدوى من إنتقال الجن إلى أجسادهم السليمة، وليس في ذلك المعبد القديم من الرجال سوى خادم المعبد الشيخ، المريب النظرات، وخدام المعبد الثلاثة من الشباب الغرباء، الذي فقدوا قدرتهم على الكلام أو السمع منذ سكنوا ذلك المعبد الوثني القديم، وهم من "الخرسان" الذي نذرتهم أمهاتهم للعمل في هذا المكان، لقاء أن تجد قلوبهن السكينة، ولا يدري أهل الدبن من أين جاء هؤلاء الغرباء الذين اعتادوا السكن في شمال البلاد حيث الجبال والوديان، ولم يعتادوا الحياة في الأهوار، منذ سنوات كثيرة وهم بشبابهم الدائم، وبياض سحنتهم وشعورهم الشقراء الطويلة، أيقوم خادم المعبد الشيخ بإستبدالهم بين فترة وأخرى دون أن يدري أحد؟. وليس سوى وجهه المعتاد، الحليق من الشارب واللحية، وسترته الرمادية التي يلبسها صيفاً وشتاءً، وطربوشه الأحمر الذي لا يدل على أصله ولا يضفي عليه المهابة، فقط يجعله مريباً ويساعده في ذلك وجهه المملوء بالأخاديد وآثار الكدمات والحروق القديمة، وطقوسه الغريبة التي يؤديها مع الشبان الثلاثة كل يوم، بعد مغيب الشمس، حيث يعلو عويل غامض لا يعرف أحد سره، ويكتفي الشيخ باستقبال الزائرات وتقريب مشاحيفهن للمرساة لتتمكن النساء من النزول إلى أرض الإشان، ثم حين يكمل عمله ينهض وينظر بعينين وجلتين إلى النساء الصغيرات صحبة عماتهن وأمهاتهن، ويمد يده ليأخذ نذر كل واحدة منهن من القطع الذهبية الصغيرة وخواتم الفضة، والأوراق النقدية المدعوكة، وبعد أن يجمع ما لديهن من نذور وعطايا يقودهن صوب ذلك البناء المقفل، الذي لا يدخله أحد، وفي فجوة في جداره الخارجي الذي شُيد بصفوف من القصب والحصران، وكُسي بطبقة من الطين، تبدأ المرأة التي تروم الحمل بالتمدد على الأرض على ظهرها والزحف، وتدخل قدميها في فجوة الجدار الطينية، وببطء تزحف وتزحف على ظهرها، حتى يختفي جسدها بأكمله داخل البناء، ويبقى رأسها ظاهرا للنساء في الخارج، وسرعان ما يغطيه الشيخ بقطعة قماش خفيفة، وتبدأ النساء حولها بالدعاء، ويُسمع من داخل البناء أصوات عراك وصراع مع جسد المرأة الذي توغل في الظلام، ويهمس الشيخ المريب النظرات للنساء في الخارج: "إنها تصارع الجن والحمل سيقع لا محالة!"، وتشعر المرأة بجسدها يستباح في ذلك الظلام، تحاول أن تدافع عن نفسها بقدميها، لكنها تشعر بإيادٍ كثيرة وقوية تمسكها وتحد من مقاومتها، وتغمض المرأة عينيها مستسلمة بعد ذلك لشيء دافئ يخترقها، وحالما تبدأ بالتلذذ بما يحدث لها في ذلك الجزء المظلم من البناء، وتفرح منتشية وتشعر بامتلاء روحها بدفق سري لم تشعره من قبل، فتمتد الأيدي لتغطي عريها الفاضح، ودفعة قوية لقدميها توحي لها بأن العلاج قد تم، فتسحب جسدها المبتل، المرتجف، وتساعدها باقي النساء بسحب جسدها من تلك الكوة، فتجلس في

الزاوية مهيضة الجناح، تشعر إنها مازالت مسكونة بالرجولة التي غسلت جسدها وبللته وغمرته بفيض من الذهول والبلادة والمرض!. وما إن يتم فعل ذلك لكل امرأة ولج جسدها تلك الكوة، وتوشك النساء على العودة إلى المشاحيف، حتى يظهر الشباب الثلاثة، الذين أبتلوا بالخرس وهم يلوحون للزائرات بأيديهم، ويحكون بالأخرى أثوابهم البيضاء الواسعة عند مواضع أعضائهم الذكرية، وتظهر وجوههم السعادة لهذه الزيارة القصيرة، مثلما يفعل المضيف الكريم حين يودع زائريه ويتبعهم إلى نهاية الطريق في حفاوة تليق بهم، ليبقى في ذاكرتهم مهما كر الزمان ومضت السنوات!. وفي رحلة العودة، لا تجرؤ أية واحدة منهن أن تروي ما حدث لها في ذلك القبو المظلم، وتبقى عيونهن ساهمة في ذلك الاتساع الكوني لصفحة ماء الهور الساكنة، وهن يزفرن بإرتياح!..

- 23 –

في ذلك الدكان الصغير الذي افتتحه كعيد البلام وسوادي العبد وريسان الفهد في القرية منذ مدة قريبة، وأصبح مكاناً لعقد صفقاتهم لبيع السلاح والعتاد المهرب لرجال القرية، وأنشغل وادي بن كعيد ببيع ما يحتاجه الناس في القرية من شاي وسكر وتبغ وقماش وأمشاط خشب وبخور وبهارات وإبر وخيوط، وقد أجبره أبوه على ترك العمل في أرض السيد مهنا والتفرغ لمساعدته في الدكان. وبالرغم من حب الشاب لعمله في تلك الأرض كباقي أهل الجوابر لأنها توفر له إضافة إلى ذلك رؤية حبيبته ليلى يومياً عندما تأتي بصرة الغذاء ظهراً عبر ذلك الطريق المعشب، وتتبع صرتها فراشات الحقل الملونة وكلبهم الأبيض "الذيب" الذي يسير وراءها كأنما يحرسها من أخطار محتملة، بأذنيه المشنفتين وخطمه الطويل المنتصب، وتكشيرته العدوانية. وما أن تنظر في عيني الكلب إلا وتشعر بخوف غريب ينتابك حتى ولو كان الكلب يعرفك وبينك وبينه مودة قديمة، وسبق لك أن رميت له شيئا يأكله، إنه يتصنع عدم معرفتك بنكران جميل لا مثيل له، ويزأر بشدة حالما تقترب من صاحبته أو تحدثها!. وخلال رؤيته لليلى يتوقف الزمن ويحدق وادي بعينيها، يريد أن يعرف صدى ما أسمعها من كلمات في اليوم السابق هامساً، ولم يستطع أن يخمن شيئاً في هذا الوجه الصافي كصفحة ماء ساكنة. كانت عيناها الفارغتان من أي تعبير وشفتاها الورديتان، المحتقنتان، لا تعبران عن شيء، لا الرفض ولا القبول!، وخرجت من صدره آهة، وهمس لها من جديد: "سأعمل في دكان أبي منذ الغد ولن أراك بعد يومي هذا!". لم تقل شيئاً، ولم تضف جديداً على ما كانت تفعله كل يوم، ووضعت الصرة بين يديه وأخذت تملأ منخريه رائحة الطعام الذي حملته لهم، كان أبوها يثبت مسحاته(24) في الأرض استعداداً لاستراحة الغذاء، وبقي أخوها مرتضى يجتث نباتات عاقول نبتت إلى جانبي ضفة الساقية، وصاح عليها أبوها ليقول لها شيئاً تفعله في الدار، وبقي وادي حاملاً الصرة، ورفيف ثوبها وعباءتها يعبث بهدوئه، والتفت إليها بعينين ضارعتين وهي تحدث والدها دون أن تهتم به، والعباءة تلتصق على جسدها بفعل الريح، وذلك المنديل الموشى بالورود، الذي تغطي به رأسها يتوشح متزملا بالضوء، وشعر لحظتها أنه لو سمع كلمة واحدة منها، مهما كانت تلك الكلمة، رفضاً أو قبولاً، لتغير حال الدنيا

في عينيه. وتساءل ماذا ترفض هذه الجميلة وماذا تقبل؟، هل في يدها أمر من أمور مصيرها؟، هي كانت تعرف أنه ليس بإمكانه أن يتزوجها ولن تستطيع أن تبدي رغبتها في الموافقة أو الرفض إذا طلب منها أبوها الزواج من أحد ما، وتقاليد قريتهم لا تسمح بزواجه هو العامي بواحدة من نسل آل البيت مثلها. فماذا يبقى من كل هذا العبث الذي لا طائل وراءه؟. فأطلق الشاب كل ضيقه في تنهيدة طويلة، سمعتها ليلى وفهمت مغزاها، وأخذت تفكر به وهي عائدة إلى البيت يسبقها(الذيب) بخطوات رزينة، وذنب قائم ورأس مثلث وهو يتلفت يمينا وشمالا.

قال في ذاته: "لا أمل في هذا، إنها قرأت في عيني كل شيء، وسمعت كلماتي وفهمت ما تعنيه تنهداتي، هذا اليوم الأخير ولا أستطيع أن أقول لكعيد البلام إن دكانك الصغير وبضاعتك القذرة ستضيع حياتي وأحلامي!". وفي ذلك الدكان الصغير كان وادي يلوك أحزانه ويسترد شريط حياته مثل الفلم القديم الذي قُطع في أكثر من مكان وأُعيد لصقه، بينما انشغل أبوه وشركاؤه بالكلام عن تجارتهم السرية، فالأحوال لا تسر بعد أن أصبح في كل بيت من بيوت القرية بندقية أو قطعة سلاح وتوقف الشراء منهم، وكان من المفروض أن يجد أبوه وأصحابه سوقا أخرى لتصريف بضاعتهم من السلاح، وحول ذلك الموضوع كان الرجال دائمي النقاش والمشاجرة، تاركين وادي لأمشاطه وسكره وشايه والطناجر المعلقة في واجهة الدكان وأحزان عشقه، وبحثه الدائم عن ليلى بين النساء الداخلات ساحة القرية أو الخارجات منها، وهن يحملن قرب الماء والحليب والأعشاب اليابسة وأطفالهن بمؤخراتهم العارية على أكتافهن أو معلقين بأثدائهن ووسطهن بقماش، أو ممسكين بأثوابهن الزاهية الألوان، الفضفاضة، محاولين اللحاق بهن في مشيهن السريع. كان يبحث أن أية وسيلة للإتصال بها لمعرفة جواب السؤال الذي يحيره: هل تفكر به مثلما يفعل؟، وهل ينوشها الأذى والشوق كما ينوشه؟. لكنه كان يرد على نفسه: "ما فائدة كل هذا مادام الزواج بها ممنوعاً؟". وأعاده من أفكاره صوت أبيه وهو يحدث شريكيه عن طريقة مبتكرة لتسويق السلاح الذي بحوزتهم، وقاطعه سوادي العبد قبل أن يبدأ بطرح فكرته: أن يترك المعدان وشأنهم ولا يفكر ببيعهم البنادق الحديثة، التي لو أمتلكوها لقتلوا بها أولاد قرية الجوابر جميعاً، فقد كانت المعارك منذ القديم قائمة على قدم وساق بين سكان الأهوار من المعدان وأهل الريف، وبالذات أهل الجوابر الذين تحملوا وزر المعارك، وفقدوا الكثير من أبنائهم لكسر شوكة المعدان وردع عدوانهم المستمر، وجعلهم يقبعون في جباشاتهم في عمق الهور، كما إنها ترد غارات اللصوص من المعدان الذين يقصدون القرية ليلاً لسرقة دوابهم وماشيتهم، وكانت آخر الاتفاقيات بين الشيخ جلال وشيخ المعدان أن لا دية(25) لمن يُقتل من المعدان وهو يسرق، لا دية له ولا فصل أو حشم. ولم تحد كل هذه الاتفاقيات من غارات المعدان الليلية لسرقة ما يمكن سرقته من أهل الجوابر. وأمام هذه المعضلة الشائكة، لم يجرؤ الشركاء الثلاثة على بيع قطعة سلاح للمعدان. ولكي يتجاوزوا الأزمة وكساد السلاح، فكروا بالعبور حيث الضفة الأخرى صوب إيران لبيع السلاح هناك بإثمان معقولة. وبسبب نشاط الدوريات المسلحة المكثفة والنشطة للحكومة هناك، جعل الشركاء يفكرون ألف مرة قبل الشروع بتنفيذ أفكارهم، لكنهم كانوا يعانون للوصول إلى حل قبل أن يحل بتجارتهم الخراب.

في تلك الأيام أزداد عدد المعممين الهاربين من إيران عبر الحدود صوب قرية الجوابر، كانوا يقضون ليلهم في الحسينية، وتقوم عائلات القرية باستضافتهم في البيوت الطينية، ويستمعون لمن يجيد العربية منهم وما يروونه من قصص مرعبة مما يفعله السافاك(26) بأبناء الشعب الإيراني من إرهاب وتنكيل وعقوبات ومظالم يشيب لها شعر الطفل الصغير، وكان أحد المعممين يصرخ بألم وحسرة: "إخوتكم الشيعة في ذلك الجانب يُقتلون مع علمائهم دون رحمة ". وكان رجال القرية يعرفون ما يحصل هناك من تقتيل للناس، وكان الجميع يتساءلون: "كيف نستطيع مساعدة المظلومين هناك؟!". ووجد الشركاء الثلاثة فرصتهم وتقدموا كمنقذين، وقالوا لهم: "يا إخوة، الكلام لا يفيد، تدربوا على السلاح، ذلك أفضل الحلول!". وضحك الرجل المعمم: "نحن أم الشباب؟!". وقال كعيد البلام لائماً: "لقد تحدثتم فيما رويتم عن الحسين عليه السلام، كان معمماً ويحمل سيفه ليقاتل أهل الظلم!". ولم يقتنع أحد بما قاله، فقد كانوا لفرط ما رأوه وعاشوه من عذاب وإضطهاد في بلادهم أن يتركوا كل شيء للخالق للانتقام من الظالم، والمضي إلى النجف بأي شكل من الأشكال للوصول إلى تلك البقعة الطاهرة والاختلاء إلى النفس مع الحبيب وذرف الدموع وقراءة الكتب الممنوعة وسماع الدروس في الروضة المطهرة!. وصرخ بهم كعيد البلام من جديد: "يا إخوان، اشتروا السلاح ودافعوا عن أنفسكم في بلادكم، ولا تتركوا أرضكم أبدا!". ولكن لم يسمعه أحد، وبذلك فقد الشركاء فرصتهم لبيع سلاحهم المخزون للإيرانيين، وفي تلك المحنة الأليمة، لم يتمكن منهم اليأس، أخبرهم كعيد البلام: "إنهم لو قرروا شراء السلاح فإنه وشركاؤه على أتم الاستعداد لتزويدهم بكل ما يحتاجونه وبأسعار مخففة، لإعلاء راية الإسلام ومقاومة ظلم الشاه!". وفي الصباح ودعهم الحاج حسون إلى طريق السيارات حيث تمكن من كراء سيارة لنقلهم إلى النجف الأشرف وأعطاهم المال الذي يكفيهم لتلك الرحلة، وأوصى السائق أن لا يمر على السيطرات العسكرية(27) المنتشرة على طول الطريق حتى النجف، وأوصاه بإنزال راكبيه ليمروا مشياً خلف السيطرات، وينقلهم بعد أن يمر هو عليهم فارغاً من حمولته، ثم يحملهم من جديد بعد تجاوز السيطرات بمسافة كافية. وكل هذه التوصيات لم تفد، إذ بعد يومين رأى أهل القرية المعممين وقد وضعوا في سيارة حمل كبيرة، وقد قيد رجال الشرطة أيديهم بقماش العمامات وبصحبتهم شرطة من الأكراد الغلاظ الذين لا يعرفون كلمة عربية واحدة، وقد بدت على وجوه الإيرانيين أمارات التعب والإعياء والجوع والخوف، وكانوا يشيرون لأطفال القرية ورجالها الذين تبعوا السيارة بأن الشرطة العراقية ستقوم بتسليمهم إلى الشرطة الإيرانية، ولم يكن سوى طريق القرية المؤدي إلى الحدود عبر الهور مسلكاً أميناً. وهز كعيد البلام يده لائماً للمقبوضين وهو يغطي وجهه بكوفيته، وقال بصوت واطئ لشريكيه بعد مرور الحافلة: "أخبرتهم عدة مرات، قلت لهم أشتروا السلاح وارجعوا إلى بلدكم، فالذي يملك سلاحا في هذه الأيام سيعيش على أرضه بسلام، وسيتحول أعداؤه إلى خراء ينفع الأرض ولا يضر أحداً!، ولكن لم يصدقني أحد، وهذه هي النتيجة، سيذبحونهم على الحدود كالخراف وذلك معروف لا يحتاج لمن يؤكده!". وشيعت الشاحنة القديمة عاصفة من الأتربة ودخان محرك السيارة القديم، وعيون الرجال المتلصصة من فتحات وخصاص جدران البيوت والغرف الطينية!. في تلك الأيام كان موسم حصاد الرز ممتازا في قرية الجوابر، وباع

الناس المحصول للتجار بأسعار مرتفعة، وظهر المال الإضافي الذي حصلوا عليه بازدياد أفراح أهل القرية، وتم ختان الكثير من أطفالها بموس سالم الحلاق، كما ظهر هلال المجنون بدروب القرية بملابس جديدة وحذاء إنجليزي جديد تلمع الشمس على جلده المصبوغ، وهو يحيي أهل القرية بذراعه الملوحة كلما مر بأحدهم، وأزدهرت الأعراس والولائم، وأستغل كعيد البلام الفرصة وشركاؤه وقصدوا المدينة، وأشتروا الكثير من إجهزة المذياع الصغيرة ـ الترانسستر ـ التي تعمل بالبطاريات، وباعوها في القرية بأضعاف ثمنها وجنوا من ذلك أرباحاً طائلة، وأصبح المذياع في يد الشاب أو تحت كتفه في القرية عادة عصرية يفعلها جميع شباب قرية الجوابر ويقلدهم في ذلك بضعة رجال من القرية، ومن لا يفعل تلك العادة الجديدة يُتهم بأنه من المعدان الذين لا يفهمون شيئاً، وتلك كانت أسوأ سبة توجه إلى أبن القرية، كان الشركاء الثلاثة فرحين بهذا الإزدهار المفاجئ، ولم يجل في خاطرهم أنهم نقلوا الناس بهذا المذياع الصغير إلى حيث لا يتمنون. كانت أغنيات الريف التي يذيعها المذياع تستحوذ على أهتمام جميع أهل القرية رجالاً ونساءً، ومن تأثيرات أنتشار المذياع أن بنات القرية عرفن ماذا يعني الحب، وكانت كل واحدة لا تعرف غير المعنى المحرم للعشق، وهي كلمة تعني في قاموس القرية: الخطيئة والعار والفضيحة!. فماذا تعني هذه المفردة الجديدة "الحب"؟، والتي لا يحرمها أهل المدينة ويعتبرونها حلالاً وشيئاً لابد أن يقع بين المرأة والرجل، مرة أو مرات في العمر!. وسمعن من أفواه المذيعات أن لهذه الكلمة قدسية خاصة، ولا ينالها من هب ودب من الناس، وتبدأ عادة بدقات القلب العالية والابتسامات المتبادلة، والسلام والكلام والموعد واللقاء، ورحن يرسمن في خيالهن تلك اللقاءات المشحونة بالعواطف بين الفتاة وفارس أحلامها!، ولم تجرؤ عقولهن المراهقة على الخيال بغير قبلة خائفة يطبعها الحبيب الوجل على خد الحبيبة المنكمشة والخجل يصرعها، أما تبادل القبلات فماً بفم، فم تجرؤ أية واحدة من مراهقات الجوابر على التفكير بها على الإطلاق!، وكان ذلك في خيالهن رديفاً للعمل الجنسي ومؤاخيا للبذاءة والخلق السيء بلا جدال ونقاش!. وبدأ الشباب يتخلون عن الشماغات التي يغطون بها رؤوسهم التي كانت تزيد أعمارهم، وأخذوا ينسلون شعورهم ويدهنونها بزيت الطعام ليلصف تحت الشمس!، ويتسكعون في طرقات المزارع والقرية وقريباً من النهر بأنتظار أن يروا وجها لفتاة من خلال كوى الصرائف، أو من خلال فتحة باب الصفيح، وفعلت الفتيات مثلما فعل الشباب ولكن لم يهجرن "الشيلة"(28) السوداء التي تغطي رؤوسهن، بل إنهن أبرزن مقدمة الشعر لتسيل على الجبهة بشكل جميل وقد قصصن أطراف الشعر الزائدة، وتساوى في لطخة سوداء أو شقراء على الجبهة، وكلما رأى رجل شيخ ما يدور في القرية من أمور مستحدثة لم تكن في أيامهم، كخروج الشباب مجموعات وراء الشابات اللائي يملأن جرارهن بالماء من النهر، صرخ معترضا على ما يحدث: "لقد اقترب يوم القيامة! هذا واضح ولن يضع أحد حداً لهذا الفساد غير الله وحده!". وكانت الغصة والمرارة في فم كعيد البلام، لأنه تسبب في هذا البلاء الذي حل في القرية فجأة، بعدما جلب تلك البضاعة السيئة من المذياعات لتقلب حال القرية الساكنة!، ولأول مرة بدأ أبناء العم يتشاجرون بسبب وبلا سبب!، وقد بلغت بهم العصبية أن أشهروا مسدساتهم وبنادقهم بوجوه بعضهم البعض، ولولا أن الله لطف بأهل القرية لوقع ما لا تحمد عقباه، وكلما رأى ولده وحول كتفه السير الجلدي الأسود

للمذياع الصغير وهو يردد كلمات الأغنيات التي يسمعها، تعوذ من الشيطان الرجيم!، وتساءل بألم مع نفسه: "أية كارثة جلبتها إلى أهلنا؟، كنا مستورين،راضين بعيشتنا، والآن الله وحده يعلم أين يقودنا هذا المذياع؟!". ولا يدري من أين برز له مؤذن الحسينية عاتي ورآه أمامه في الدكان فجأة، وطلبه ليحضر مع شركائه في الدكان إلى الحسينية!، شعر بالغصة في بلعومه وسأله: "من يطلبني؟!". قال وهو يقلب أمشاط الخشب بيده بلا اهتمام: "الحاج حسون والسيد مهنا والشيخ جلال والملا قنبر، كلهم الآن في الحسينية وينتظرون حضورك!". وسأل : "وماذي يريدون؟". ترك عاتي أمشاط الخشب وقال: "لا أعلم، لقد طلبوا مني أن أخبرك بضرورة حضورك إلى الحسينية ولا أدري لماذا!". كان كعيد يعرف لماذا طلبه وجوه أهل القرية، أخبر عاتي أن يذهب وسيلحق به بعد قليل، وحالما ذهب الرجل طلب من ابنه أن ينتبه للدكان حتى عودته من الحسينية، وأوصاه أن يبلغ شريكيه أنه ذهب إلى الحسينية وعليهما أن يتبعاه!. وعندما وصل إلى هناك وجد وجهاء القرية وقد بلل العرق وجوههم، وقد بدا أنهم كانوا قبل مجيئه يتناقشون بحدة ليجدوا حلاً للكارثة التي ستحل بالقرية لو بقيت الأمور على ما هي عليه!. ونظر إليه الحاج حسون حالما دخل الحسينية، وقال غاضباً حتى من دون أن يرد على تحيته: ــ "أنت من ورطنا بحكاية الراديوات ونريد أن تجد لنا حلاً سريعاً، ولا أعتقد أن حال القرية يعجبك وما حصل لشبابها وشاباتها من جراء الاستماع للإذاعات الإنجليزية!".

نظر كعيد البلام في وجوه الرجال الذين ينتظرون منه أن يقول شيئاً، وكان واضحاً أنه لا يستطيع الدفاع عما اقترفه من ذنب كبير، قال مهدئاً: "يا إخوان، لو لم أجلبها أنا لجلبها غيري، وهذا الذي جلبته من المدينة هو أهون الشرور، فقد وجدت هناك تلفزيونات تنقل الصورة والصوت، ويمكن أن تعمل بالبطارية أو الكهرباء، وحاشاكم الله وحاشاني، إنها تظهر النساء عاريات ويرقصن هكذا بخلاعتهن أمام الناس!"، وقلد حركة لراقصة من المدينة!. قال ملا قنبر مقاطعاً: "لا تذكرنا بما موجود في المدينة، خلصنا من هذا البلاء الذي جلبته لأولادنا!". قال كعيد: "يا إخوان، المذياع فيه قرآن وأخبار، وعلينا أن نعرف ماذا يدور في العالم!". قاطعه الشيخ جلال مغتاظاً: "نقول له إن شباب القرية اقتربوا من حافة الجنون!...، ويقول قرآناً وأخباراً!".

ــ "أهل القرية يبحثون عن الجديد يا شيخ جلال!، إنها فترة ويعود بعد ذلك الشباب إلى سابق عهدهم!".

قاطعه الحاج حسون: "يبدو أن لا فائدة من الحديث مع هذا الرجل!". وصفق يداً بيد، قال ملا قنبر وهو يزر بعينه السليمة، فقد بدت أجفان عينه الأخرى منتفخة وقد لفها بالشماغ، ولكن شده لم يكن محكماً فظهر إنتفاخ الجفون: "هذه المذياعات تعمل بالطاريات؟". أجاب كعيد: "نعم".

أكمل ملا قنبر:

ــ"ألا تنفذ هذه البطاريات مثل بطاريات مذياع الشيخ جلال الكبير؟".

كان بيت الشيخ جلال الوحيد الذي يحوي مذياعاً كبيراً، ولا يدير موجته أحد من أفراد العائلة غير الشيخ جلال ذاته، مكتفياً بسماع القرآن في الفجر وأخبار الإذاعة. أجاب كعيد دون أن يفهم ما يرمي إليه ملا قنبر: "نعم!". تابع الملا قنبر بحماس: "لا تجلب بطاريات جديدة

لأهل القرية!، ومع مضي الوقت ستتوقف لذاتها!". كانت خطة حكيمة، ويوماً بعد يوم أخذت البطاريات تضعف والأصوات تخربش وترتعش في المذياعات، ولولا الحدث الكبير الذي حدث في الجهة الأخرى في إيران، لتوقفت المذياعات إلى الأبد في قرية الجوابر!، ولتلاشى تأثيرها على الناس هناك، ولنُسي ذلك الجهاز الأسود الصغير الذي تضعه على صدرك وأنت تتمدد باسترخاء، وتطرب لغناء المغنيات وتهدهدك الأصوات حتى تنام، أو تستمع للقصص التي يرويها المذيعون عن الحب والعشق والهيام!، وكل تلك الاهتمامات انطفأت بذلك الحدث العظيم الذي هز القرية من أقصاها إلى أقصاها، وهو خروج الناس في طهران وأرجاء إيران في مظاهرات صاخبة لإسقاط نظام الشاه، وسقوط أبناء الشعب هناك بالآلاف أمام بنادق الشرطة والسافاك!. وطلب الملا قنبر ذاته من كعيد البلام أن يذهب إلى المدينة ليشتري البطاريات اللازمة ليتابع الناس أحداث إيران الدامية، وخيمت في تلك الأيام أجواء الحزن المؤلم، وارتدت النساء الملابس السوداء على أبناء الطائفة الذين يُقتلون بالمئات هناك وتدوسهم السيارات المصفحة!، ويمثل بجثثهم السافاك، ونمت اللحى على وجوه شباب القرية وهم يتابعون تلك المظاهرات الشجاعة التي تتصدى بصدورها للرصاص!، وتابعت قلوبهم رحلة الإمام الخميني وهو يحط في طهران والجموع المحتشدة وهي ترفعه على الأكتاف!، وهرب الشاه من البلاد وتخلي الجيش عن مستودعات السلاح لصالح الجماهير المتدافعة!، وجلس وجهاء القرية في الحسينية بشكل دائم متحلقين حول مذياع ترانسستر من تلك التي كانوا يزمعون التخلص منها، وراحوا يتابعون أحداث الثورة الشيعية في إيران وفي رؤوسهم ينمو خوف خرافي من أن يتخلى الناس في إيران عن الإمام الخميني، كما فعل أهل الكوفة بالحسين عليه السلام!، ولكن توقعاتهم لم تكن في محلها، وأنطلق بعد ذلك صوت المذيع من إذاعة الأحواز بقراءة أنباء أنتصارات الثورة الإسلامية، وعم الفرح والارتياح قلوب أهل قرية الجوابر لأول مرة، وشعر الناس في القرية بالسعادة الحقيقية، وبدأوا بوضع سعفات النخيل الخضراء على الأبواب والجدران، وخضبت النساء باب الحسينية بالحناء، وقال الحاج حسون بسرور أمام جمع من أهل القرية:

ــ "أخيراً يا إخوتي دولة المهدي المنتظر تلوح تباشيرها في الأفق ".

- 24 –

كلما عرض جاسم العطية أفكاره السياسية على شيخ المعدان أثناء جلستهما المسائية في صريفة أعدها الشيخ وجد صدوداً أو عدم رضى، وكانت الصريفة إلى جانب المضيف الذي تُحل فيه مشاكل العشيرة في الصباح، وتُحسم في جلسات مطولة الفصول وتُدفع الحشوم وتُشد الرايات. تفصل بين الاثنين زجاجة خمر، فوق الناصية الترابية التي أعدها الشيخ بعد أن اعتاد على شرب الخمرة وحتى بعد أن عرف أنها المقصودة بالتحريم!، وليست من المقويات التي جلبها جاسم العطية من المدينة كما ادعى سابقاً ولا يشملها التحريم الذي ورد في القرآن، وحاول جاسم بخبث مبيت أن تكون جلستهما في المضيف!، لكن الشيخ أخبره أن المضيف هو في حقيقة الأمر مكان رزقه ورزق عائلته، ولا يستطيع أن ينجس ذلك المكان، فوافق جاسم

مضطراً، واستطاع جاسم إلى حد ما وبعد جلسات طويلة مع الشيخ ومناقشات طويلة أن يفند الكثير من قناعات الشيخ ببديهيات بسيطة ومغالطات فكرية، منها أن الخمرة صُنعت للبشر وليس للطيور، ولو كانت للطيور لما شربها الناس!، ولو أنها كانت محرمة تماماً لتوقف الناس عن صنعها وضاعت من الأسواق، فلا يجدها طالبها، أما الذنوب فكلها تقع على من صنعها وباعها، ولا يقع إلا الجزء اليسير من عقابها على شاربها، وأضاف إلى ذلك قوله وهو واثق تماماً مما يقول إن الله سيغفر لهما ذنوبهما، فلا يحاسب أبن الهور المظلوم، المسكين، البعيد عن كل ما يسر النفس ويبهجها بذات العقاب الذي يعاقب به أبن المدينة الذي توفرت له الكابريهات والسينمات ورؤية النساء بالتنورات القصيرة إلى درجة الخلاعة، والصدور العامرة، العارية، والنظافة التي تُشم حتى من الأرض التي يمشون عليها!، ولم يقصم ظهر البعير إلا حينما قال له: "وماذا فعلنا لنغضب الله؟، نشرب سائلاً مراً يفري بطوننا، لمعالجة الدود والطحالب التي نشعر دبيبها في أمعائنا كل لحظة؟، أيعاقبنا من أجل أن ننيم الذئاب العاوية في رؤوسنا؟، إن الله غفور رحيم يا صاحبي، لكنه لن يدخلنا الجنة أبداً، ولن نزيد في تعاسة أيامنا بعد أن تأكدنا أننا خسرنا آخرتنا! فليس من المعقول أو المنطقي أن يدخل المعدان الجنة! لن أصدق هذا حتى لو رأيته يحدث أمام عيني، إن دخول معيدي واحد بالخطأ إلى الجنة يعني فساد هوائها وخراب خضرتها!، ولا تغضب من قولي هذا، واعتبر الموضوع من المواضيع الأخوية بيننا، وأنت قبلي أدرى وأفهم بعشيرتك وشؤونهم، فهم يا عزيزي نمامون في النهار وسارقون في الليل!، وبين الليل والنهار لا يتركون دقيقة تمر دون أن يكذبوا خلالها، كما أنهم يحلفون أغلظ الأيمان ويحنثون بما أقسموا عليه قبل لحظة! ولا ترتاح الأرض ولا السماء من شرورهم إلا حينما ينامون في القبر!. وبعد كل هذه الصفات تريد أن يدخل الرب المعدان إلى الجنة؟ لن أقول لك إنهم يدخلون النار! لكنني أجزم إنهم لا يدخلون الجنة!". وطفقا يشربان صامتين في عزلتهما. كان الإيمان عند المعدان هشاً ومختلطاً بعادات وقيم لم يعرفها الإسلام من قبل ومن بعد، بالرغم من أن الحوزة العلمية للشيعة في النجف كانت تبعث بالعديد من المعممين المتعلمين في فقه الدين الإسلامي ليعلموا الناس من سكان الأهوار شؤون الدين، وكانوا يسكنون مع الناس في الجباشات المنتشرة في عمق الهور، ومؤاخاتهم!، ويبذلون جهدهم لنشر الفضيلة، وتعميم أحكام الدين، وتحفيظ بعض سور القرآن للصبيان وقراءة المواعظ في أيام عاشوراء. وأخذ جاسم العطية يُدهش شيخ المعدان بكتاب قديم أحضره معه في جلستهما اليومية، وأخذ يقرأ له ما يخص تاريخ المعدان، فيهز الشيخ رأسه موافقاً ومؤكداً الحوادث. كان جاسم العطية قد حصل على الكتاب عند زيارته لسوق الجمعة(29) في البصرة آخر مرة من ضمن كتب قديمة أخرى أشار لها رفاقه في الحزب، وطلبوا منه أن يجعلها من ضمن برنامجه التثقيفي، وقرأ جاسم من الكتاب: "وكان أول من جاء إلى تلك البقاع المغمورة بالماء والمهملة، ورأى من العجائب التي حدثت وتحدث كل يوم ما جعله يشمئز ويكتب إلى الحوزة في النجف أغرب الرسائل وأكثرها تشويقاً، وكلها تعبر بشكل واضح لا لبس فيه عن عدم فهم الناس في الأهوار لدينهم وللكثير من الأمور الشرعية التي يتداولها الناس في حياتهم بطريقة مغلوطة، وتوصفهم تلك الرسائل بأنهم لا يتورعون عن الزواج بعماتهم وخالاتهم لاعتقادهم إن ذلك ليس حراماً وفق شريعة المسلمين، وقد

وجدتُ حالات كثيرة من ذلك النوع، وقام المبعوثون بتفريق المتزوجين بالطلاق، لكنهم لا يرون ماذا يعملون بذريتهم، ويطلب المبعوثون حلاً عاجلاً من جناب رئيس الحوزة وفتوى سريعة لحل الإشكال في هذا الموضوع!". ورفع جاسم رأسه ليتأكد من متابعة الشيخ لما يقرأ، وسمعه يتمتم: "أجل، أجل... حدث هذا منذ زمن بعيد!".

فعلق جاسم ساخراً: "وتريد أن يُدخل الرب المعدان إلى الجنة؟". فرد الشيخ: "أكمل بربك، أريد أن أعرف كيف حلوا هذه المشكلة، وقد رأيت أبي يرحمه الله يحرق سجائر اللف ليحل هذه المشكلة دون أن يهتدي إلى حل!". وقرأ جاسم من جديد: "وقد قال أحد المبعوثين في رسالته إنه حين أخبر المعدان بأن ذلك لا يمكن أن يتم - يقصد الزواج بالخالات والعمات - أخبروني بفرح إنهم جربوه فعلياً ونجح أيما نجاح!، ولم تقع أية عواقب وخيمة لتلك الزواجات!. وكان الدليل على نجاحهم الباهر - كما يعتقدون- هو إنجابهم للبنات والأولاد من عمامتهم وخالاتهم والعياذ بالله!. وأمام هذه المعضلة لم يكن أمامي غير أن أطلب بتفريق هذه الزواجات الباطلة كإجراء أولي!، فضحك المعدان مني وسخروا مما أقول، وقالوا: إذا فعلنا ذلك أين يذهب أولادنا؟ وهل نستطيع إرجاعهم إلى بطون أمهاتهم لتلافي ما حصل؟. وحاججوني بالدلائل الدامغة والحجج القوية ورددوا أنهم حين فعلوا ذلك لم يكونوا يعلمون ببعدهم عن مسطرة الإسلام، والإسلام يمحو ما قبله من جاهلية، وما تم في الجاهلية ولا يستطاع منعه أو السيطرة عليه في الإسلام يُترك كمرض خبيث لا يُرجى شفاؤه!، وقد كان شيخهم بلحيته البيضاء وشاربه المنتوف -وهنا صرخ شيخ المعدان وهو يدلق قدح الخمر على ثوب جاسم العطية- "هذا هو أبي! إنه أبي وهذه صفاته! كانت لحيته بيضاء وشاربه منتوفاً بفعل الدمامل التي كانت فوق شفتيه!". وأخذ جاسم ينكت الخمرة الساقطة عن ثوبه، وقال ساخراً: "شوارب المعدان كلها منتوفة، فكيف استطعت أن تميز أباك دون أن يذكر صاحب الكتاب اسمه الصريح؟". فردد شيخ المعدان: "أنا أعرف أبي، وهو المقصود بهذا الكلام المكتوب!". صمت جاسم لحظة، وشرب من قدحه، وقال لائماً: "إذا قاطعتني مرة ثانية لن أقرأ ثانية!". فقال الشيخ متوددا: "لن أقاطعك، أكمل..". وعاد جاسم إلى الكتاب القديم وأخذ يبحث عن الصفحة التي وصل إليها في القراءة، وقال: "وقد كان شيخهم بلحيته البيضاء وشاربه المنتوف يسوق لغة وأحكاماً لا يعلم إلا الله وحده من أين جاء بها!، وحين سألته عن مصادرها أخبرني إنها من إرث أجداده، ولا أستطيع أن أوردها في رسالتي لأنها تعتمد المداورة والحيلة والقفز على الموضوعات، ليجد بعد ذلك التبريرات للأخطاء والخروقات لأبناء عشيرته التي مست جذور الطهارة والإيمان عند المعدان!. وفي نهاية حواري الطويل معهم أخبروني إنهم سينفذون ما طلبته منهم من تفريق بعد أن نحل لهم مشكلة الأولاد والبنات!. فقعدت حائراً مهموماً أمسد لحيتي وأتدبر الأمر، ولم أجد في نهاية الأمر غير أن أكتب للعلامة رئيس الحوزة أطال الله عمره، بعد أن أعيتني حيلتي وطالب عقلي بالمشورة وإصدار الفتوى المناسبة لحل هذا الأمر الخطير!".

علق شيخ المعدان: "لقد حيرهم، وجعل صغيرهم يسأل كبيرهم ذلك هو أبي يا جويسم!". ودون أن يهتم جاسم بالمقاطعة أكمل: "وفي رسالة أخرى كتبها أحد هؤلاء الموفدين ويُدعى الحاج شلتاغ نور الدين الفقير لله، ووجدت في السجلات القديمة المهملة، المتروكة من سنين

كثيرة، في إحدى سراديب الحوزة في النجف: إن إرساليات أجنبية، إنجليزية وأخرى هولندية، أقاموا لهم فوق إحدى الجباشات القريبة من حماد الجبايش ما يشبه الكنيسة لتنصير الناس وحثهم على ترك دينهم الإسلامي، وقاموا بتوزيع الملابس القصيرة عليهم! لكنهم بالرغم من جدتها ونظافتها لم تناسب أذواق أهل الهور من المعدان!، فمزقوها وحولوها إلى رايات وعلقوها بأعواد فوق صرائفهم لتطرد الجان والأرواح الشريرة! كما أن كل المعدان تقريبا عشقوا المرأة النصرانية الشقراء وأسمها "كلوديا"، وقد سمى الآباء في تلك السنة بناتهم المعيديات الصغيرات بأسم كلوديا!. وهنا قاطعه شيخ المعدان ضاحكاً مؤكداً ما جاء في الكتاب وقال: "أجل حدث ذلك من زمن بعيد، ومازالت حتى هذه اللحظة امرأة كبيرة في السن تُدعى "كوديا" وتعيش في أطراف الدبن! سأريك جباشتها في الصباح!". وشرب من قدحه رشفة والتهم بكفه قبضة حمص مسلوقة، ومن خارج الجباشة جاء نباح كلاب، بعيداً متلاشياً، ووشوشت مويجات صغيرة على جرف الجباشة، وأنقطع نقيق الضفادع، لحظات، ثم عاودت نقيقها بعنف، كأنما نفد صبر الإناث في طلب الذكور، وأكمل جاسم:

ــ "وتلك الجميلة، التي كانت تُدعى كلوديا كانت تعالج النساء بأدوية ولفافات نظيفة جلبتها معها من بلاد الفرنجة، وقد ترك أهل الهور مصادر رزقهم وجلسوا أمام الإرسالية ليحظوا بنظرة من وجه تلك النصرانية الجميلة، الرشيقة القوام، بعنق طويل كالزرافة، وشعر كسبائك الذهب! أما هي فلم تهتم بأحد منهم، واكتفت بأداء أعمالها اليومية المعتادة! مداعبة كلبها الضخم، الذي كان يراقب المعدان الجالسين بعينين حذرتين وروح عدوانية متوثبة لتمزيق الحشد حالما تأمره صاحبته بذلك، والموضوع برمته في الأهوار أصبح حرجاً، بسبب أن أهل الهور لا يتورعون عن أكل الطعام النجس الذي يوزعه عليهم صاحب الإرسالية النصراني، بثوبه الأبيض الواسع، الموشى بالدانتيل الأحمر، ظهر كل يوم أحد، عقب إقامة صلواتهم وتلاوة تراتيلهم التي لا يفهمها أحد، ويقومون بعد ذلك بتوزيع الصلبان الفضية والنحاسية مع الطعام على الناس، وتلك الصلبان معلقة بسلاسل صغيرة، فاعتاد الناس وضع تلك السلاسل حول رقابهم، ويندر في هذه الأيام أن تجد معيدياً في الأهوار وهو لا يضع هذه البدعة في رقبته!". وهنا كرر شيخ المعدان ضاحكاً، وقال: "أجل حدث كل ذلك في عهد جدي الشيخ مجاري الغضبان(30)!".

أكمل جاسم دون أن يهتم للمقاطعة: "والوضع خطير وأريد أن تصدروا فتوى لتحريم طعام النصرانية وبدعة السلاسل التي يضعها أبناء المعدان حول رقابهم كزينة، وختم رسالته بتلك اللازمة المتكررة في الرسائل المتبادلة، بالدعاء لرئيس الحوزة". وتمتم الشيخ بلسان معوج، وقد بدأ تأثير ما شربه من أقداح الخمرة يظهر في نطقه وتنمل ساقيه وحركة يديه: "كانت الحياة أجمل في تلك الأيام يا جويسم!. أنا لم أر كل الذي تحدث عنه مبعوث النجف، لكنني سمعت أبي يقول بعض الأخبار التي رواها هذا الرجل!". وأخذ جاسم العطية الكتاب وقربه من نور الفانوس وأخذ يقرأ من جديد: "وبعد أكتب إليكم حول نقص الخمس الذي نجمعه من أموال الأهالي، كفرض إسلامي، يقابله النصارى في الطرف الآخر بإعطاء الهدايا والهبات وتوزيع الطعام والصور الملونة التي ما عادت صريفة من صرائف الهور إلا وعُلقت في خصاصات قصبها صورة من هذه الصور للزينة وللتبرك بالوجوه الجميلة، المرسومة بدقة

عجيبة، وحول رؤوسها طاقات من النور!. أكتب وألح عليكم بضرورة إرسال صور ملونة لآل البيت، والمسابح النجفية والترب الكربلائية(31)، وتخصيص المبالغ المناسبة لمساعدة الأهالي في شراء الكسوة، وما أمكن من هدايا المصاحف القرآنية الكريمة، وأبلغكم أن الإسلام في هذه البقعة من وطننا سيضيع، وها أنا أقرع لكم ناقوس الخطر!، سيتحول المعدان بعد فترة قصيرة إذا ما أسرعنا وقارعنا الوسيلة بالوسيلة والحجة بالحجة من مسلمين إلى وثنيين!. والمعروف لي ولكم أنه لا يمكن تنصير المسلم، بل استحالة ذلك عملياً!، لكنهم سيضيعون الطريقتين وسنجد الهور ملآنا بالناس التائهين!... وأفيدكم إن الأمية هنا تنتشر مائة في المائة!، وما أقوم به من تحفيظ الآيات القرأنية القصيرة للرجال والأولاد لا تفيد إلا في إتمام تعليم فروض الصلاة، والدعاء إلى الله في نصرنا على أعداء الإسلام وآل البيت عليهم السلام!، ونرجوا من الله أن يخلصنا من شرور البعوض الذي أخذ ينتشر في هذه الأيام بكثرة لم ير الهور من قبل لها مثيلاً، ويسير سحابات متصلة ليلاً ونهاراً تحجب نور الشمس حتى النصراني في الإرسالية امتنع هو وجماعته في الأحد الماضي من الخروج لإقامة صلواتهم المعتادة، وبقوا سجناء وكرهم!".

وهنا صاح الشيخ مصححاً وهو يمضغ حبات الحمص المسلوقة: "أجل حدث هذا منذ زمن بعيد!". وأكمل جاسم القراءة دون أن يهتم بالمقاطعة: "ولا يجدون الجرأة في الخروج لمواجهة غضب الله، أما نحن فنواجه ذلك القدر بقلوب مؤمنة! ونلف شماغاتنا على وجوهنا فلا تظهر منا سوى العيون!، ونسير وكأننا نمشي في روضة من رياض الجنة!، ونؤدي أعمالنا ونقضي مصالحنا ونهدي الناس للتي هي أقوم وأصلح!، وينصر الله من يشاء من عباده ويقدر والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته!".

1- مطرب ريفي قديم من جنوب العراق.
2- المكان الذي يستقبل فيه الشيخ ضيوفه.
3- جمع فخذ، وهو فرع العشيرة.
4- الأمراض المعوية.
5- الأرض المرتفعة في الهور والبارزة كجزيرة.
6- جمع إزار، وهو غطاء صوفي خفيف يستخدم بشكل واسع في جنوب العراق.
7-يشبه السوط ولكن ضفائره من المعدن.
8- ابن الحسين بن علي(ع).
9- قائد الجيش الأموي الذي حارب الحسين(ع).
10- يزيد بن معاوية.
11- طُبعت الملايين من النسخ وبِيعت في الأسواق منذ بداية القرن التاسع عشر في إيران والعراق وتركيا.
12- العراق وخرسان وأجزاء كبيرة من إيران.
13- من نسل الإمام علي(ع) اختفى في سامراء في العصر الثاني من الدولة العباسية.
14- سامراء الحالية شمال بغداد.

15-منطقة في أهوار الجنوب تظهر ليلا محاطة بطاقة حمراء من النور.
16- يُحزم قصب البردي على شكل فراش سميك يطفو فوق الماء.
17- علي بن أبي طالب(ع).
18- سيف الإمام علي بن أبي طالب(ع).
19- تغطي الأهوار ثلثي مساحة جنوب العراق.
20- المدن الصغيرة على ضفاف الهور.
21- قرية في هور الحمار في جنوب العراق.
22- الدهن الحيواني.
23- الأرض المنبسطة.
24- أداة لحفر الأرض تستخدم في جنوب العراق.
25- ما يدفع من مال لأهل القتيل كتعويض.
26- الشرطة السرية في عهد شاه إيران.
27- نقاط التفتيش على الطريق بين المدن.
28- غطاء أسود للرأس يستخدم في جنوب العراق كثيراً.
29- سوق يعقد في البصرة يوم الجمعة تباع فيه كل الأشياء القديمة، وضمنها الكتب والمخطوطات.
30- لاحظ أن المعدان يسمون أولادهم بذات أسماء أجدادهم، واسم شيخ المعدان مجاري كاسم جده الراحل.
31- جمع تربة، وهي قطعة من تراب نقي مجفف من كربلاء تستقر عليها جبهة الشيعي الذي يصلي كموضع طاهر.

الجزء الخامس

- 25 –

بلغ بوادي الحب لليلى مبلغا تعدى الهيام، وهي حالة لم يشعرها من قبل أحد من أهل الجوابر، فقد أخذ وجهها الجميل يطرز أحلامه ليلاً، ويغزو خيالها العذب نهاراته، ولم يعد يطيق الجلوس في دكان أبيه وعقله معه، لسماع بلاغات الثورة الإيرانية، التي يذيعها المذياع الصغير، ومناشداتهم لأبناء الشيعة في كل مكان من العالم للثورة ضد ظالميهم! من أجل إنطلاق عصر جديد يهيئ لظهور الغائب المنتظر!، وعافت نفس الشاب الطعام والشراب وصار يعُدُّ الطيور الهادلة فوق أشجار النبق الضخمة في ساحة القرية وعيناه مصلوبتين على بيتها، عسى أن يلمح وجهها أو طيفها عبر باب مفتوح أو كوة أُزيحت عنها الستارة. يتأمل خيالها في خلواته، مراقباً كلاب القرية في لعبها ومطارداتها لبعضها البعض في دروب القرية الخالية، ويتابع النمل الأسود متسلقا الجذر الضخم والصاعد إلى أعلى الساق المتحرشفة، بلا كلل أو تلكؤ، وينظر ذرق العصافير المتساقط على الأرض ويسمع أزيز زنابير سوداء ورفيف أجنحة الفراشات المحلقة، فوق أزهار عين الشمس المتفتحة كالشموس وأزهار أشجار البرتقال البيضاء، ورأى في مرة من المرات أخاها الصغير مرتضى وحالما رآه سلم عليه كغريق وجد طوقا ينقذه! كان الصبي خارجاً للذهاب إلى الحسينية ليحفظ سور القرآن على يد الملا قنبر، وكان الولد الوحيد في عائلة السيد مهنا، وكان أبوه يعده لإستلام أسرار الحفيظ. أراد أن يسأله عن ليلى وأحوالها وينقل تحياته لها، لكن لسانه لم يطاوعه ولم يجرؤ على ذلك أبداً، فقال له مستفسراً عن أحوال عائلته، فأجابه الصبي باقتضاب: "إنهم بخير". ثم سأله الصبي لماذا لا يجيء إلى الأرض ليعمل مع أبيه كما كان يفعل في الماضي، فأجابه إنه يعمل الآن في الدكان مع أبيه، لكنه سيمر في يوم من الأيام على الأرض ليساعدهم في حرثها، استعداداً لموسم الزرع الجديد. وغمز الصبي له وقال: "أن الملا قنبر سيعنفه إذا تأخر عن موعد الدرس، ويقول عني إني سأرث مكانة أبي وعليَّ أن أحفظ القرآن بأكمله عن ظهر قلب!، وذلك صعب كما تعرف". تساءل وادي وهو يفكر بذات الوقت عن شيء ما يقوله لليلى عبر أخيها، لكنه لم يجد شيئاً وتبخر الكلام كله مرة واحدة: "هل تحفظه بأكمله ؟!". أجاب الصبي بحميمية: "بأكمله يا وادي، ما أصعب ذلك يا أخي!. فقال وادي مواسياً: "لكنك ذكي وتستطيع أن تفعل ذلك بسهولة!". وأثناء ذلك الحوار القصير، كان يستشف قسمات الصبي ويتذكر الحبيبة وحرمانه من رؤيتها، ويشعر بشوق مرير يسيطر على فؤاده!، وما أن غادره الصبي، إلا وشعر أنه لا يطيق الصبر والجلوس بعد ذلك أبداً، ودق جرس كبير في رأسه معلنا أنه يريد أن يتملى ذلك الوجه الحبيب ويرى ذلك الثوب ملتصقا بجسدها ويحدق عميقاً بصفاء عينيها، يريد أن تمس أصابعه شفتيها، أن يقول لها إنها له وهو لها، ولن يفرقهما إلا الموت، وفي لحظة عمى حقيقية، فقد قدرته في السيطرة على عواطفه وأشجانه، وشعر بقدميه

تقودانه، دون إرادة منه، إلى جدار بيت السيد مهنا، لم يقصد جهة الباب الصفيحي ليطرق عليه بيده كما يفعل من قبل!، وهو يعرف إنها لن تأتي إليه لتعرف من هو الطارق، ستقوم أمها بفعل ذلك، فليس في القرية فتاة تفتح الباب لطارق مجهول أو عابر سبيل!، وهو يريد أن يراها ويتملاها دون استعداد منها أو معرفة إن وادي الهائم بعشقها قد جاء ليسأل عن أمرها، فتأخذ حذرها وتلبس العباءة والحجاب فلا يلمح ما يطمع برؤيته!، وتغزوه ملابسها المعتمة وخيال الحبيبة المختفي وراء الأقمشة!، يتمنى أن يراها بثوبها، عارية الصدر والوجه، يحلم بلمس أصابعها الطويلة وحمرة خديها، ويروي ظمأه من الوهج الأخاذ في عينيها!، ولكي يرى تلك المباهج مرة واحدة، عليه أن يزيح جانبا من جدار القصب ويدخل دارهم عنوة، مهما حدث له أو جرى عليه!. في تلك اللحظة الآنية التي كان يراها في خياله بغلالتها الشفافة، ووجهها المشرق، شعر أن رؤيته لها في ذلك الوضع تسكره وتخلب لبه وتجعله فاقداً للإرادة وبعينين رصاصيتين خامدتين، وأصابع متوترة علق بها الإرتجاف والتشنج، أمتدت كفاه صوب الجدار القصبي وأزاحه إلى فرجتين، وأدخل جسده من خلال الفتحة التي أحدثها، وأصبح في باحة الدار الفارغة، ولم يشعر إلا وهو بمواجهة كلبهم المتوحش، وقبل أن يسترد أنفاسه وعقله، قرر العودة إلى الطريق في لحظة رعب لا مثيل لها! كان الكلب قد أنشب أنيابه ومخالبه في ثوبه! وللخلاص من هذه الأنياب المتوحشة قفز من جديد إلى خارج الدار من خلال شق الدخول ذاته، تاركا بين شدقي الكلب جزءاً من ثوبه، ولم يكتف الكلب بذلك الانسحاب الخائف، بل أخذ يطارد الشاب في درب القرية الضيق، وحمد وادي الله وهو يسترجع أنفاسه المتقطعة: "إن أحداً لم يمر في ذلك الطريق ليرى عاره وخيبته في تلك اللحظات المخجلة!". أمسك حجراً من حجارة الطريق، وثوبه الذي قُدّ من قُبلٍ أظهر ساقيه المرتجفتين والكلب ينبح بوجهه! متقدماً بجسارة لا مثيل لها محاولاً النيل من العاشق الولهان!..

- 26 –

في تلك الليالي المقمرة، وعلى ضوء الفانوس يتحدث جاسم العطية عن عمال المدن، الذين ينبغي أن يتحدوا، ويهز شيخ المعدان رأسه! كأنما يتابع صاحبه، لكنه كان يفكر بالمدينة التي يجيء ذكرها شذرات متناثرة في حديث صاحبه المتشعب! قال في ليلة من الليالي راوياً عن المدينة التي يأسره ذكرها: "بعد فراري من قرية الجوابر في حوض حافلة تنقل محصول الرز، فوجئت بأحوال المدينة، رأيت النساء بتنورات فوق الركبة شبه عاريات! ويلبسن بنطلونات تظهر كل ما خلق الله في المرأة من عورات! وكل واحدة تسير مع رجل وتتكلم وتضحك بلا احتشام! فوقفت إلى جانب الشارع أنظر وأتملى النظر بدهشة، وأقول لنفسي أخيراً سأتوقف عن مضاجعة البهائم وجلد عضوي في دار الخلاء! وأجد حريتي الكاملة مع هاته النساء الجميلات، وعندما اقتربت من واحدة منهن معتقداً أنها أجملهن وأكثرهن وداعة واستسلاماً، ولم يكن بصحبتها رجل، فاجأتني وهي تنحني لتلتقط كعبها العالي! لتضربني به، وقد حذروني في السكن من ضربة الكعب القاتلة، قلت في نفسي إنها مجنونة بلا شك وتركتها! وحاولت مع أخرى أصغر سناً، ولولا أهل الخير والشهامة لأودعتني السجن ؛ ثم

اكتشفت مع الأيام أنهن يشبهن نساء قريتنا في العفة؛ ولكن الفرق الوحيد أنهن مصبوغات بالألوان وشبه عاريات! أما الرجال الذين في صحبتهن فإما أن يكونوا أزواجهن أو إخوانهن، أو زملاء عمل يحرصن على إيقاعهم في براثن الزواج! وأخذت أدق على جبهتي بكفي في تلك الغرفة القذرة، الرطبة، التي أكتريت فيها سريراً لأنام عليه، فسمع بكائي عامل بناء كان يسكن في الغرفة المجاورة، وعندما عرف سبب بكائي ضحك، وأخذني من يدي في ذلك الليل إلى سرداب أحد الفنادق القديمة في باب المعظم(1)، وعرفني على أم جابر العوراء، التي تبيع الشاي في النهار وتفتح في الليل فخذيها بربع دينار! وما أن تضطجع فوقها حتى تشعر إنك مبلل وحسب! ولكي تتحاشى ركلتها العظيمة بقدميها المتفطرتين، فعليك أن تنط إلى الوراء كالقرد قبل إتمام العملية! وأن تكمل ما بدأت به عندها في غرفتك بالفندق القديم، على الفراش الأصفر النتن! وبعد أن توطدت علاقتي بأم جابر، حكت لي عن أصلها وفصلها، وقالت إنها جاءت قبل سنوات من قرية من قرى الجنوب، وإنها تطمح أن تعود في يوم من الأيام إلى مسقط رأسها، ونظرت إليها وأنا مشفق على حالي، وقلت في نفسي: "يا جاسم المطية وليس العطية! لم يتغير في حياتك شيء حتى وأنت في المدينة! حملت بهائمك على ظهرك وفوق رأسك لتضاجعها في سراديب باب المعظم!". وحدثه عن البارات التي تبيع الخمرة، والنساء النظيفات والجميلات. الشوارع العريضة والنيونات التي تجعل ليل المدينة نهاراً، فيدلق شيخ المعدان في جوفه بحرقة غضب السائل الأبيض، الذي اعتاد مرارته، ويحدثه جاسم العطية من جديد عن موسكو، المدينة التائهة في الثلوج والمتع الخرافية! ويسأله الشيخ متعجباً: "وهل رأيتها ؟". ويهز جاسم رأسه نافيا، ويكرر لازمته المعتادة حين يدلي بشيء غير متأكد منه: "يقولون عنها أشياءً عجيبة، سمعتهم يروون عنها في المدينة ومن رواياتهم عشقتها!"، ثم يضحك ويرجع رأسه إلى الوراء فيبرز شارباه الكثان أمام عيني الشيخ ويمتلئ صدره الواسع بالفخر وهو يقول: "عشت في بغداد سنة وفي البصرة أربع سنوات!"، ثم أخذ يحدثه عن البصرة، وكان شيخ المعدان قد زارها بصحبة والده حين كان صبياً مرة واحدة، وأكل الكباب(2) الشهي في مطاعمها، ولكن بعد ذلك لم يزرها أبداً خوفا من الانضباط العسكري كبقية الرجال من المعدان الذين لم يخدموا الخدمة العسكرية المطلوبة من كل مواطن، وينتظرون في الهور حتى تتجاوز أعمارهم الثلاثين بسنوات، وبعدها لا تلفت هيئاتهم أنظار الانضباط العسكري فيزورون المدن متوجسين، متحاشين النظر بوجه كل من أرتدى بزة حكومية. وعن تلك المدينة حدثه جاسم قائلا: "إنها مدينة كبيرة وواسعة، تمتلئ بالسيارات والحدائق و....، المنزول(3) هناك فيه من البنات الجميلات ما لا يصدقه عقل!. ثم يضرب بيده على الناصية الترابية أمامهم، التي جعلوها كمائدة، كانت مزتهم في تلك الليلة: رؤوس الفجل وحبات الطماطة والحمص المسلوق، وعلى ضوء الفانوس كان وجه الشيخ الأسمر النحيل يبدو وكأنه رغيف خبز طالت مدة بقائه في التنور، فاحترقت حافاته واسمرّ متنه وتقطف شاربه الرفيع،بعينين خرزيتين تلتمعان، وذلك النبل الغامض في القسمات الذي ورثه عن أجداده شيوخ الهور، الذين يصل نسبهم للسومريين قبل آلاف السنوات، وقال الشيخ محركاً رأسه كما يفعل صبي أمام أبيه لينفذ وعداً قطعه على نفسه: "متى تنفذ وعدك لي وتأخذني إلى البصرة؟". نظر إليه جاسم وخوص بعينيه، وقد بدأ تأثير الخمرة يظهر واضحاً على صوته:

"في الغد إن شاء الله ". قبل شهور عديدة وهو يعده بذلك الغد الموعود ولا يأتي هذا الغد أبداً، ففي الصباح يذهب مع الشيخ في جولة على المعدان، الذين سيخرجون لصيد السمك، وجولة أخرى على المعيديات اللاتي سيذهبن إلى حماد الجبايش ليعرضن ما لديهن من زبد وقيمر وحليب وبيض ودجاج وبط للبيع، وللشيخ في كل هذا حصة، وجاسم منذ اليوم الأول أصبح مسجل حساباته، فيسجل ما سيخرج به المعدان من بضاعة إلى السوق، وبعد العودة قبل المغرب بقليل يجرد ما رجعوا به ويأخذ نسبة الشيخ، ويدفع المعدان تلك النسبة بطيب خاطر ودون قسر أو إلحاح من أحد، فهم يعرفون منذ الولادة أن عليهم الدفع للشيخ، الذي تسوى عنده جميع المشاكل التي تقع بينهم أو بينهم وبين العشائر الأخرى التي تسكن الحماد، كما أن الشيخ ينظم الصرف على الولائم الجماعية التي تُقام في الأفراح والمعازي للمعدان وأيام عاشوراء، وهو الذي يعوض المتضررين أثناء حدوث الكوارث والنوائب، فالناس تتذكر قبل سنوات عديدة عندما بدأت السماء تلقي بالحالوب، وكانت الواحدة بحجم البيضة، وقتل ذلك البلاء النازل من السماء أغلب ما يمتلكه المعدان من جواميس، وهي وسيلة حياتهم ومصدر رزقهم، وما أن توقف سقوط الحالوب الكثيف، أرتفع عويل الناس على جواميسهم ودجاجهم النافق! واشتد الحزن بالجميع، وأخرج الشيخ ما ادخره من مال وأعطاه للمتضررين، ليشتروا بدل الجواميس التي ماتت، وأثناء ذلك العام حل بينهم مرض "أبو زويعة"(4)، وكان الناس يتقيئون ويتبرزون وتزداد حالتهم سوءاً ويموتون، وأخذ المرض يحصد العائلات واحدة بعد الأخرى، وعندما سأل الشيخ عن سبب ذلك المرض أجابه الحكيم الذي أوفدته الحكومة إلى الهور، بأن مرض المعدان بسبب قلة النظافة، والماء الملوث! وحين طلب منه أن يوضح لهم، أفهمه الحكيم أن من الأمور المهمة أن يغلوا المياه قبل شربها! وضرورة أن تكون لكل واحد منهم قطعة صابون يفرك بها جلده أثناء الاستحمام، فأعطى الشيخ المال اللازم لشراء ذلك الصابون الضروري لإنقاذ المعدان من الموت! وما أن جُلب الصابون واستحم الباقون بهذا الصابون العجيب برائحته الزكية ولونه الناصع، وشربوا الماء الذي سبق غليه، وجاءت كل تلك التطورات الصحية في نهاية دورة المرض، فأختفى المرض فجأة كما ظهر فجأة! وعادت للمعدان ابتساماتهم وشاع الفرح بينهم، وارتفعت أيديهم بالدعاء للشيخ، وما أن نفد الصابون حتى عاد المعدان لعاداتهم القديمة، ولكن مرض "أبو زويعة" لم يطرق أبوابهم بعد ذلك! ولن ينسى الناس سنة الجراد! وعام البرغش! وعام الحكومة! ففي ذلك العام الأسود جاءت زوارق ترفع أعلام الحكومة وفيها عدد كبير من الجنود، وعلى زوارقهم نُصبت مدافع موجهة لجباشات المعدان! وطلبوا من المعدان أن يسلموا أولادهم للخدمة العسكرية، ولم يكن هذا مألوفاً ولا معروفاً، فلا سلطة لأحد على المعدان غير سلطة الشيخ!، فكيف يسلمون أولادهم إلى الحكومة ؟، ومن هي الحكومة لتأخذ منهم أولادهم ؟، وأطلق بعض المعدان النار من بنادق الصجم القديمة التي يمتلكونها، فرد الجيش برمية مدفع مفردة أزالت الجباشة التي انطلقت منها رمية الصجم بمن عليها، وأرتفعت النار وعلا الدخان، وعلا الصراخ في الجباشة المنكوبة، وأُسقط في يد المعدان، كيف يقاومون هذه الكارثة التي توجه فوهتها إليهم وتهز الأرض تحت أقدامهم!، وعلق صاحب الجباشة المنكوبة الذي نجا بأعجوبة من قنبلة المدفع: "هذا بلاء من الله وكذاب من يقول إنه من صنع بشر"!. وحدث المعدان بعد شهر على تلك

الحادثة: "كان أخي المرحوم في الجانب الآخر من الجباشة يُدخل الدجاجات إلى القفص حيث صُوبت الدانة(5) إلى الجباشة، وأنفجرت فهزت الأرض وانفتحت باب جهنم على الصريفة كتلة من النار ولحم البهائم المحترق! ورأيت أخي كان سالما يرحمه الله ولم يُصب حتى بخدش واحد!، لكنه جلس لا يستطيع الوقوف، ولف سيجارة!، وقبل أن يتم لفها فاضت روحه ومات!". في تلك الساعات المريرة، ركب شيخ المعدان مشحوفه وقد تمنطق بحزامه، وقد ملأ جوف ثوبه فوق الحزام بحزم الدنانير وتوجه صوب كبير الجيش، وبقي هناك حتى العصر، وعاد مبتسماً، وغادرت المراكب الرمادية وعمت الأفراح جباشات المعدان، وأرتفع صوت إطلاق النار في السماء وهم يشيعون الميت الذي سقط ذلك اليوم!. ومنذ ذلك اليوم، الذي سُمي بيوم الحكومة شُطبت قرية الدبن من سجلات وزارة الدفاع! ولم يقصدهم أحد ليطلب أولادهم لأداء الخدمة العسكرية، وكان جميع المعدان يحلفون برأس الشيخ، وإذا حلفوا بذلك القسم فهم لا يحنثون به أبداً، وكان ذلك الشيخ هو جد شيخ المعدان الحالي، وكان الحفيد يتباهى بأمجاد جده عندما تُدق هاونات(6) القهوة وتعلو أدخنة المطال الحريفة!.

- 27 –

كان القس يشعر بأشياء تتغير داخله، أشياء لم يعهدها من قبل تتبرعم داخل روحه، لها عطر الورد وبصيرة الذين يرون كوى النور. تنملت أعضاؤه وتحول إلى لا شيء، بلا وزن أو حجم، هل تحول في تلك الساعات إلى نور؟، كان يشعر أنه تحول إلى مشاعر فياضة هائمة، وخطوط ضوئية لا يمكن مسكها، لا ظل له، لا شيء يوقفه عن أختراق الجدران، وبسعادة فضفاضة تملأ روحه وتكفي لملايين من البشر وتفيض عليهم وتموج كالمحيط المتلاطم، وترتفع بخاراً وضباباً وشذى ياسمين، مستمتعاً بغناء قادم من بعيد ولا يفقه كلمة مما تقول كلمات الأغنية، لا يسمعها بأذنيه، فقد تعطلت حاسة السمع عنده، لكنه كان يسمع بمساماته وذراته النابضة بدبيب الحياة، وأنغمرت الأشياء في غرفته بروح قدسية لا يمكن لملمتها أو أكتشاف ما تفعله بالأشياء المشكلة كمادة، أهي من أنواع الخمرة السماوية، التي جاء ذكرها في التوراة والإنجيل ؟، أم إنها خروج الروح والهيام في العتمة فلا سلطان للبدن عليها؟، أيًّا تكون فلن يتذوق بشر السعادة التي تذوقها "ميلانصو" في تلك الليلة العظيمة! هل حدث الرأس المقطوع في تلك الليلة؟، وبقي ذلك الحديث السري في صدر الرجل لا يقوله ولا يكتبه وقد اعتاد الرسم والتدوين لظواهر وأحداث أقل أهمية من تلك المعجزة، ولو لم تكن الرأس قد حدثته فلِمَ كل هذه المبالغة منه في متابعة جيش يزيد الراجع إلى دمشق، وهو يقدم خدماته إلى السبايا من عائلة الحسين(7)، وينط كالقرد ليلا عندما تتوقف القافلة للراحة قرب الآبار والواحات تحت أشجار الغضا والأرطا(8)، بين الرؤوس المحمولة على أسنة الرماح، يمسح التراب عن وجوهها ويرشها بماء الورد، ولا يبتئس مما يفعله معه حراس الرؤوس الغلاظ من دفع وجر وتهديد بالنطع! وفي الليلة السابعة والعشرين من تلك الرحلة الضاجة بالأحزان أوسعوه ضرباً حتى تساقطت بقية أسنانه من فمه، وبالرغم من الدماء النازفة من فمه ومنخريه والألم. كان يقبل أيدي الجنود أن يعطوه الفرصة لغسل شعر الرؤوس المقطوعة

والتي تخثر عليها الدم ممزوجاً بالتراب، بماذا حدثه رأس الحسين في تلك الليلة ؟ هل أُصيب الرجل بلوثة جراء بقاء الرأس المقطوع عنده ليلة كاملة ؟ أعمال ميلانصو الأخيرة لا تشير إلى جنونه مطلقا، فقد تجاوز عمره المائة قبل أن يموت وكان مثالاً للحكمة والاتزان والتبصر، وكان له طلاب وأتباع ومدونات، وقد تابع المجلس الأعلى للشيعة في العالم تلك المدونات(9) وحللها كلمة كلمة وحرفاً حرفاً، لمعرفة هل تم ذلك الحديث السري بين راس الشهيد وذلك الرجل الذي أمضى ليلة صوفية معه! وبعد ذلك تبع رأس الشهيد إلى دمشق وبقي ينتظر وينتظر حتى أرضى يزيد غروره وأمر بدفن الرأس، حينذاك برز "ميلانصو" من جديد للرجال المكلفين بدفنه وأغراهم بمال كثير لا يعرف المؤرخون من أين حصل عليه، وأخذ يتبعهم متوسلاً كما روى ذلك أحد الرجال المكلفين بدفن الرأس لابنه، ومن الابن إلى الحفيد وهكذا لألف عام بعد تلك الواقعة، حتى سجلها المؤرخون وإضافوها إلى التاريخ:

ــ"أعطوني الرأس لأدفنه، ولكم ما تشاءون من المال!".

نظروا إلى ملابسه القديمة، التي مزقتها كلاب الطرق السائبة، فقد أمضى الليالي متربصاً، قريباً من أسوار القصر الأموي، بأقدام حافية مرتجفة ووجه مدمى، يدفعه الحراس ويسخر من طيشه عابرو السبيل، ويجيبونه بفظاظة:

ــ "أمرنا خليفة المسلمين بدفن رأس المرتد، ولا يدفنه أحد غيرنا!". كانوا ثلاثة، وقد وضعوا الراس المبارك في كيس من الخيش وحمل الكيس أصغرهم سناً، وأخذوا يسخرون منه:

ــ"أنت يهودي أ م نصراني ؟ لحيتك تدل على يهوديتك وأنفك لا يدل على ذلك "!. قال لهم: "ما دخل ديني في إجراء صفقة ؟".

قال الذي يحمل الرأس: "أتعرف لمن هو.. ؟". لم يجب ميلانصو لئلا يعطيهم الفرصة في معرفة نواياه، قال الرجل الأول: "هذا الرجل معتوه، أو يريد إثارة البلبلة في دمشق!". وكانوا يسيرون وكأنما كانوا يركضون بحملهم! وهو يبذل جهده ليصل إليهم ويتشبث بالكيس المخضب بالدم، قال أحدهم:

ــ "لنضرب عنقه!".

ضحك الآخر: "إنه معتوه".

تبعهم حتى المقبرة، كان أحدهم يحفر، وكان هو يتجول حولهم بثوبه الأبيض المتسخ، الممزق وقدميه الحافيتين. كانت الأرض قاسية على الفؤوس التي يستخدمها الرجال، وترتد إلى الوراء عند كل ضربة، وكانت الشمس في أوج سطوعها، عرض عليهم الدنانير الذهبية وقال من بعيد:

ــ"سأوفر عليكم كل هذا الجهد، وتأخذون هذه الدنانير الذهبية الكثيرة!".

تركوا الأرض القاسية إلى مكان آخر في المقبرة وحاولوا من جديد الحفر وميلانصو يدور حولهم في دائرة تضيق، قال أحدهم وهو يمسح العرق عن جبينه ويسمع إلحاح ميلانصو: "أقسم بالله إن هذا الرجل سيبيع الرأس بثمن أكبر، وإلا لما قاتل كما يقاتل الآن للحصول عليه!".

ومن جديد ظهرت لهم قساوة الأرض، وأخذت الفأس ترتد بقوة وتوشك أن تفلق رأس الذي

يحفر، وصرخ أحدهم قائلاً إنهم يحفرون في الحديد، لقد تحولت الأرض إلى حديد حقيقي دونه حديد الدروع، قال لهم ميلانصو وهو يرى صعوباتهم ومن بعيد لئلا يقتلونه بالفأس من شدة يأسهم وتعبهم:

ــ"الشمس ساخنة، والأرض قاسية، أتركوه لي وأنا سأقوم بدفنه!".

للمرة الثالثة غيروا المكان دون فائدة، وجرحت الفأس كف أحدهم وكان ذلك نذير شؤم للرجال الثلاثة، فاتفقوا بينهم وتعاهدوا وأقسموا أغلظ الأيمان أن لا يشي أحد منهم بالآخرين إذا سألوهم عن مصير الرأس! وفي نهاية الأمر أعطوا الرأس لميلانصو وأعطاهم الدنانير الذهبية، وخرج الرجل من المقبرة بحمله، كأنما أخيراً حصل على كنوز الأرض. ذلك ما توفر من القصة في السجلات القديمة، ولم يرد في مخطوط "مدافن الأئمة الأطهار" لشدة خصوصية الأمر، في بحثه عن رأس الحسين الشريف، وتعلق الأمر بالعقائد الشيعية التي تقوم على حتمية رجوع الأجزاء وتكوينها الكل، المكتمل بإرادة الله، وتلك النظرية المعقدة لا يعرفها غير المتبحرين في علوم أهل البيت وآثارهم عليهم السلام أجمعين، ووردت قصة أخرى في "شموس وأخبار الصالحين"، والتي لم يرد فيها أن ميلانصو قد أشترى الرأس المقطوع من جنود الخليفة، ولو كانت قصة الشراء قد تمت، لما بقيت أية قيمة فكرية لذلك الحوار الذي دار بين ميلانصو والرأس في تلك الليلة التي استأجر فيها الرأس وأبقاه عنده ليلة كاملة! لو تم الشراء فعلاً لتمكن ميلانصو من الحديث معه ما شاء من وقت ولياٍل طويلة، وما بقي من حكاية الشراء وترتيب الحوار وما دار في القصة من حوادث هي من نسج أهل الشيعة المتأخرين!. وعموماً، فقد ظهر رأس الحسين المقطوع في مصر بعد شهور من استشهاده، ودفن الرأس هناك، وأُقيم له ضريح كبير مازال حتى يومنا هذا يؤمه الزوار من كل حدب وصوب، لقد أنقطعت قصة ميلانصو في شموس وأخبار الصالحين عندما سلم القس الرأس عند الفجر للجنود الغلاظ المسؤولين عن حراسته وأنتهى الأمر عند هذا الحد ماعدا محاورات ميلانصو ومخطوطاته التي تركها وبقيت بأصولها القديمة في مكتبة المجلس الأعلى للشيعة والحوزة في النجف، أما ما جاء من متابعته لقافلة السبايا "والتي تُمثل في قرية الجوابر ضمن أحداث فرحة الزهراء، بعد أربعين يوماً على واقعة الطف واستشهاد الحسين وأصحابه عليهم السلام، والتي تمتلئ فقراتها بتلاوة الشعر القديم الحزين والفقرات النثرية الغارقة في الصوفية واستجلاء الذات المقدسة!".

ما قام القس به من أعمال في خدمة الرؤوس المقطوعة، فقد وردت في أكثر من مصدر شيعي وكلها تتفق على ما جاء في القصة الأصلية، وتنتهي عند دخول القافلة إلى دمشق وعرض الرؤوس على يزيد بن معاوية، أما رأس الحسين(ع) فقد حُمل أولاً بطست من الذهب، حيث ضربه يزيد عدة مرات بالسوط على أنفه وإلى الأسفل من فمه، وشمت به، وقال شعراً في تلك الواقعة الأليمة، وكل هذا كان مدوناً ومعروفاً وفصلته أقلام الأولين. المهم في كل ما كُتب وقيل هو الوصول إلى حقيقة أن الرأس الشريف قد تكلم في تلك الليلة، هل تكلم كما يتكلم رأس الحي بالمدارك المعروفة في الحفظ والتحليل والذاكرة خارج القوانين البايلوجية والكيميائية والفيزيائية المعروفة في عالمنا ؟ وإذا تكلم فهل كان حديثه بمستوى العقول الآدمية ؟ أم أنه كان أكثر وأصعب على الفهم ؟ هل كان صوتاً بشرياً سوياً، كما تعودنا ـنحن

البشر- أن نسمعه ؟ أم كان شيئًا قريباً للصوت ؟ أكان صدى لأحاديث قالها الإمام(ع) حين كان حياً ؟ وبذلك تنطبق عليه قوانين الفيزياء المعروفة للأصوات على أنها محض طاقة، ويستحيل ذهابها إلى فناء، وتبقى تدور وتدور بموجات متضاغطة وأخرى متباعدة ويمكن إلتقاطها من جديد، وفصلها عن الأصوات الأخرى حتى تصبح شيئاً مفهوماً بعد سنة أو ألف عام ؟ وبذلك تتيح لنا إمكانية أسترجاع أصوات الأنبياء والرسل ومعرفة ما كان يقوله جدنا آدم لجدتنا حواء عليهما السلام، حين كانا يتناجيان في غربتهما في الوطن الجديد على فيض تلك السهول الواسعة! لو توفرت للعلماء الوسائل والإمكانيات لبلوغ هذا المرام، والعلم ماضٍ لتأكيد هذا. المدونات التي تركها ميلانصو كثيرة، ويعاني دارسها من الشرود والتشتت، فهي كالخمرة التي يكون مذاقها في البداية يبعث على الغثيان والشعور بالقلق وكره الحياة، لكنها حين تتمكن من قارئها تأخذ بلبه وتسري في عروقه سريان الترياق والخمرة الأصيلة! وحين تسأل القارئ يجيبك أنه يشعر بسعادة غامرة تطلق قيود روحه وتنتزعه من الأرض انتزاعاً وتلقي به في متاهة شاملة، ولا يستطيع أن يجيبك عما فهم من معان وحكم فيما قرأ وهي ليست شعراً ولا تاريخاً ولا نثراً ولا فلسفة، كما إنها ليست ابتهالات صوفية أو صفات قدسية متكررة، إنها تصدمك في البدء، لكنها سرعان ما تتغلغل في مسامات روحك لتوقظ ذكريات وعوالم نسيتها وأخرى لم ترها أو تعشها لا أنت ولا غيرك، هي في حقيقة الأمر كل ما تعرف ولا تعرف عن العالم! وكل ما خضته من تجارب حسية وغير حسية، توقظ في عناد كل كوامنك الغريزية وتأخذ بناصيتها تهذيباً وصقلاً وتقودك إلى ما فوق الذات الإنسانية إلى عالم آخر، لم تعرف أنه يقيم بين جوانحك منذ الأزل، ونضج معك كالخبز المحمص، يراقبك وأنت لا تشعر به ويحدثك فلا تسمعه! حتى تجيء اللحظة وتتسع عيناك لترى وتشنف أذنيك لتسمع، فما معنى هذا المقطع الذي ورد في إحدى مدونات ميلانصو ويكرر في المجالس الأربعينية(10): "لقد أستقام لنا الأمر في كلا العالمين من سبعة أشياء معوجة، فهل رأى أحد منكم كيف نقوم المعوج ؟ زججت نفسك في أصول الأفول وألقيت بالشمس والقمر في الملكوت، ووضعت الروح في الحبيب، فنطق حباً، وباح كلاماً ونأى عن النفس والولد والأهل منفرداً، وأزال الحجاب عن وجه الدنيا، وطرحها بأسرها أسفل قدميه وقال ذلك من مفردة وجهت روحي وضميري إليك، فما هي حيلة العبد وأقداره جارية ؟. أيكون الصمت حيلته والتطهر من وجوده الكائن غايته ؟، حدثني المغموم بدواخله، بشفتيه المضروبتين بالسوط ليلة الرحيل، يا من ظفرت بالكنز الإلهي وحصدت به الحديد الحاكي والنافث للنار ببأسه الشديد، السائر كالراسيات، المحلق بسلطانه، أوجدت ألف عام ملآناً بالحكمة والزهد، عارفاً مركز الأرض والمجرة، السابحة في المجرات، فإذا جُعل نصيبك ذرة سعادة امتلأ الكون بنصيبك وفاض، أينبغي أن يُغسل وجهي بدم العالم لتفيض البركة ؟ وحتى يكون طائر روحي مرفرفاً يرى السم ترياقاً ويترك الملك راعي الغنم يرعى غنمه، فهو لا ينقطع عن خلقه إيجاداً مع الأنفاس وتعليماً ". في ذلك الاحتفال المهيب، الذي تدور أقسى أحداثه وأشدها رهبة حيث يُدفن الرأس المبارك في منفاه الجديد وتُتلى نصوص ميلانصو وسط العويل وصفق الصدور وتنتهي برجوع الناس إلى صرائفهم الطينية بأقدام منهوكة ووجوه مكفهرة متربة وعيون وسنانة لم

تذق طعم النوم، لكنها تشعر بالراحة وهدوء البال فقد تم كل شيء وجرت ذكرى الأربعين كما ينبغي أن تُجرى!.

- 28 –

في اليوم الأول من تموز نفذ جاسم العطية وعده لشيخ المعدان واصطحبه إلى مدينة البصرة، أرتدى الشيخ في ذلك اليوم أجمل ملابسه التي لم تَخْلُ من رائحة حريق المواقد وأدخنة المطال الحريفة، وتلك الروائح المخلوطة خلطاً تاماً وتشبه في نكهتها رائحة الحليب والشحم الحيواني وزفرة السمك، ووضع على رأسه شماغه وفوقه عقاله الرفيع، وجعله راكزاً للخلف وأرتدى صايته(11) المفتوحة من الأمام والتي يتفاخر دائما بأنها من قماش إنجليزي ماركة ممتازة، وفوقها عباءته الجوخ، حتى إن أصغر زوجاته نظرت إليه غاضبة، معتقدة أنه سيتزوج بامرأة جديدة! فضحك الشيخ من غبائها وقلة فطنتها وأفهمها أنه ذاهب إلى مدينة البصرة لأخذ عطوة(12) من إحدى العشائر القاطنة هناك، لأن أحد المعدان الذين استقروا على حافة الحماد قد قتل أحد الحضريين، وهو من فخذ عشيرة المعدان، الذين أستقر على حافة الحماد، الذي لا يعطي ولاءه التام لمشيخته، ويريد أن يُشعرهم أنه مازال شيخهم! وبالرغم من أن الحكاية برمتها كانت ملفقة ومن صنع جاسم العطية، إلا أنه أراد أن يظهر أمام زوجاته وأعمامه ما يبذله من جهود من أجل أهله وأولاد عمه من المعدان، ورفع شأنهم بين العرب في كل مكان يتواجدون عليه، وأخذ الشيخ نصف ما أدخره من مال، فهي ليلة العمر التي لا تضاهيها ليلة كما قال جاسم العطية!. وصلوا عصراً إلى المدينة، وهاله إتساعها وازدحام السيارات فيها، وكان يقف دقائق بطولها ليرى كيف يسير هذا العدد الضخم من السيارات دون أن تحدث اصطدامات مريعة، وكان كلما عبر شارعاً وضع طرف الشماغ في فمه وأمسك بذراع جاسم كأنما يمسك بجذع نخلة يطفو وسط ماسورات مياه سريعة دائرة والزبد الأبيض يتجمع في زاويتي فمه، وحالما ينجحان بعبور أحد الشوارع المزدحمة يسأل جاسم العطية: "كيف لا يُدعس أبناء المدينة جميعاً بهذه السيارات المسرعة، التي لا تعرف كبيراً ولا صغيراً وتنبح كالكلاب المسعورة ؟!". كان في هذه الفوضى العارمة يمسك سويجت حارس الشيخ الشخصي، بصاية شيخه وقد ربط طرفي شماغه حول رقبته وشعوره بالضياع قد ملك لبه، ويردد: "عجيبة شيخنا! كيف يعيش كل هذا الخلق ؟". كان الشيخ لا يخرج في سفرات بعيدة إلا وعبده سويجت معه بالرغم من معارضة جاسم العطية لوجود ذلك الأسود وإحساسه الدائم بأنهما مراقبان من قبل سويجت! الذي لا محالة سيهمس في يوم من الأيام بما حدث لهم في المدينة لأهل الهور، إلا أن الشيخ أفهم جاسم أنه طلب من عبده أن لا يتحدث بما يراه لأحد وإلا قطع لسانه، وأضاف أن من عادة شيوخ المعدان منذ كان أجداده شيوخا أن يصطحبوا عبيدهم معهم أينما ذهبوا. ودخلوا باراً يقع قبالة شط العرب(13)، وأجلسوا سويجت على منضدة بعيدة، وطلب جاسم العطية شراباً له وللشيخ ومزة، وأوصى لسويجت بالحمص المسلوق الذي

يحبه، وأندهش الشيخ فيما أندهش لنظافة المكان وأضواء النيون الملونة، التي كانت مشعلة حتى في النهار، ورؤيته للسفارين بملابسهم البيضاء، كأنهم أطباء يؤدون أدوارهم في تلبية طلبات المرضى، وقال جاسم العطية: "إن ما نفعله هنا في حقيقة الأمر للتسخين وإمضاء الوقت للاستعداد حتى تفتح الكابريهات أبوابها!". قال الشيخ بعد أن رشف كأسه الأول والتقزز يظهر على وجهه: "أظن أن هذه الخمرة أكثر مرارة من التي كنت أشربها معك!". ضحك جاسم مسروراً وقال: "الليلة سأجعلك تدخل الجنة وتذكر أنك أول معيدي يدخلها!". وترقرقت الدموع في عيني الشيخ من شدة عرفانه بالجميل: "يا أخي جاسم لم أذق منذ ولدت لحظة سعادة إلا بعد أن تعرفت عليك، نحن ميتون في ذلك الهور، الحياة الحقيقية في المدينة!". رفع جاسم كأسه وقال: "في صحتك". رفع الشيخ كأسه وأخذا يشربان بينما كان سويجت مذهولاً بما يرى وقبضة من حبات الحمص المسلوق في كفه يتلفت يميناً وشمالاً ويأكل منها بحرص، حدثه جاسم العطية عن أهداف الحزب الشيوعي وراح يعدد له ما حفظه من وقائع عن سوء أوضاع الناس في المدينة، وهنا كان شيخ المعدان يفرد كفيه محتجا على ما يقول صاحبه، مشيراً إلى مكانهما: "كل هذا الخير وتقول إن أهل المدينة مظلومون! والله لم يُظلم أحد في العالم مثل المعدان!". وأخذ جاسم العطية يحدثه بصبر عجيب عن المادية الديالكتيكية والتاريخية وما تعنيان، ونظر إليه شيخ المعدان بعين مغلقة وأخرى مفتوحة:

ــ"أرجو أن لا تعيد علي هذه الكلمة مرة ثانية، لأنني كلما سمعتها شعرت بالنعاس! ولو كنا على جباشتنا لطلبت من سويجت أن يعطيني مخدة أتوسدها، أما وأنا في هذه الجنة، فأرجوك متوسلاً أن ترحمني منها!" شرب من كأسه مرة أخرى، ومد يده نحو صحن السلطة وأخذ قبضة كف منها بكفه المتشققة بسبب سوء التغذية والأمراض الجلدية، ونظر إليه بعض الجالسين باشمئزاز لما يفعل! ومن جديد قال جاسم عازفاً على ربابة أفكاره الحزبية: "لن نعيش ويهنأ لنا بال إذا لم يصل الحزب الشيوعي في بلادنا إلى السلطة!". وشاء حظهما العاثر أن يمر في تلك اللحظة السري المسؤول عن حفظ الأمن في البار وسمع ذلك الاسم المحظور يفرقع كحزمة دنميت في البار الهادئ، فاعتقد السري أنه أخيراً وقع على خلية شيوعية ناشطة، فأخذ كرسياً قريباً منهما، وأفرد جريدته كما يفعل كل السريين في البلاد وهم يتابعون طرائدهم المسكينة من السياسيين، ولم ينتبه إلى جلوسه الرجلان، فهما قد اعتادا في الهور على الحديث الطليق غير المرموز، الذي يستعمل عادة بين السياسيين في المدن، إذ كان يرمز للحزب بكلمة الجماعة، وللديمقراطية بالفرح، ولرئيس الجمهورية باسم "حسونة"، وفي أحيان أخرى "غليص" نسبة إلى مسلسل تلفزيوني كان يتابع بثه الناس وهو يتحدث عن شيخ ظالم، خبيث امتلأت الأرض بشروره وخططه اللئيمة للإيقاع بضحاياه من الناس الآمنين! وفي الهور كانت الريح الغادرة تنقل حديثهما الصريح إلى الجواميس المجترة في الزريبة، والدجاج المقوقئ، والنساء اللاتي هدهن العمل في النهار وأغمضن عيونهن في نوم عميق، وأخفى الأطفال عيونهم المتورمة ورمدها المتصلب في بطون المخدات للتخفيف من آلامهم وقد غطوا في النوم بعد ساعات من البكاء بسبب الآلام والحر الشديد، أما في هذا المكان الضاج برجال الحكومة من الأمن، ووكلاء الأمن، الذين يحلمون طيلة الوقت بالقبض على شيوعي واحد! وقد أوشكت الحكومة على تصفية هذا الحزب بشكل كامل في حملة أمنية

كبيرة، مداهنة، أخطبوطية، شملت البلاد كلها، منذ فترة قريبة، واعتقد الجميع أن لحية الشيوعيين قد حُلقت تماما، ولا تنبت تلك اللحية من جديد إلا بعد عقد أو عقدين من الزمن، وما بقي منهم إلا شراذم هنا وهناك، وقيادات الحزب، والله وحده يعلم في أي وكر تحت الأرض أو فوقها يختفون، وبضربة حظ وقدر جامح سعيد يظهر شخصان غبيان يسكران في مكان عام ويتحدثان بصراحة عن الحزب المحظور!، بلا رموز أو إشارات سرية ودون أن يرد اسم "غليص" مرة واحدة في حوارهما، ويسبان الحزب الحاكم علناً، وينعتان رئيس الحكومة علناً بالجهل والتخلف والدكتاتورية، فمعنى ذلك أن الخلايا قد نشطت من جديد، أو أن الحظ أوقعه على اثنين من القيادة العليا للحزب تعمل في قطاع الريف، البعيد عن ضبط الحكومة وأنظارها، وراح السري ينصت لكل كلمة ويقلب صفحات جريدته الحكومية بقلب متوتر، مشحوناً بالآمال أن يُرقى درجة أو درجتان مع مكافأة مناسبة لتكفيه إكمال بناء داره، ويتساءل وهو يستعجل الوقت: "متى يا ربي أضع القيد في أيديهما وأسلمهما إلى أقرب مركز شرطة وآخذ بهما وصلاً يدل على التسليم والاستلام ؟".

قال جاسم وهو يلوك ورقة خس وقد بدأت الخمرة تفعل فعلها، وأخذ يتلو شعراً ثورياً من ذاكرته وقد أزدادت حميته وثورته على أوضاع الحياة البائسة:

"حلم الملايين الجياع من الرقيق
ولِمَ الشهيق ؟
الخبز تنضجه السياط الداميات
لِمَ الشهيق ؟
ولم العويل ؟"(14).

توقف عن ترديد أبيات القصيدة لحظة، ثم أطلق آهة محبوسة من صدره، وفكر السري وهو يتخيل رئيس الجهاز وهو يسلمه أمر الترقية مع المغلف المالي ويعده بالترقية الحزبية، التي ستجعله في حل من واجبات الحزب المسائية! وأخذ يبتسم ويدعو الله في سره أن يزداد تهور طريدتيه، لتكون الأدلة التي سيرويها لمفوض المركز دامغة ولا مجال للتنصل منها والإفلات من الاعتقال! أكمل جاسم العطية بلسان ملتو، ثقيل:

"الخبز تنضجه السياط الداميات
لِمَ
الشهيق ؟ ولِمَ العويل ؟
غدا الرحيل
عن هذه الأرض الخبيثة
ـلعنة
العيش الذليلـ
حلت بجيل بعد جيل
غدا الرحيل"(15).

وطفق جاسم يبكي بدموع غزيرة وتلوح أمام بصيرته المضببة أشباح الظالمين والطغاة، وراحت إرتعاشات الشمس الغاربة وحركة الزوارق العابرة للنهر تلقي بظلالها الحزينة على

ذلك الغروب، موشحة وجوه الناس بغلالة من اليأس والاستسلام للقدر الظالم، وحاول الشيخ أن يوقفه عن البكاء عدة مرات، وكان يمدُّ يده ويجعلها على ظهره ويقول له مهدئاً: "الرجال لا تبكي يا جويسم! البكاء للنساء!". وسمع السري مقطع القصيدة بإلقاء جاسم الثوري، فتأكد بما لا يقبل الشك أنه وقع على قيادي مثقف من الشيوعيين يحفظ الشعر، فشنف أذنيه ليسمع المزيد من الأدلة، ويتحسس مسدسه المخفي تحت قميصه وهو يشعر مسروراً أن المكافأة على وشك أن تكون في جيبه، وأنه أخيراً حصل على الترقية التي حلم بها طويلاً، وأشار جاسم بيده للشيخ كأنما يعده بشيء، وقال:

ــ"حالما تنجح ثورة الجياع في بلادنا، سيجعلك الحزب وزيراً للزراعة!".

وتمتم السري في ذات نفسه: "احترق شيب موتاكما(16) وزير مرة واحدة، ستبيتان في التوقيف الليلة مثل كلبين أجربين، ولن يستطيع أحد إخراجكما من هناك، حتى يتمزق ظهراكما بالسياط، وتسقط أسنانكما بإذن الله بعد ربطها على آلة الكهرباء الجديدة وبعدها ستنالان حصتكما من الخازوق بإجلاسكما عاريين على قناني الكوكاكولا الفارغة(17)، وبعدها تُسلم جثثاكما إلى أهلكما مع فاتورتين لتسديد ما خسرته الحكومة من مبالغ أثناء دبغها جلديكما! اللهم لا شماتة، لا شماتة وأجعلهما يسبان الحكومة والرئيس(18) بصراحة، لا لبس فيها ولا تهرب، ليقبض عبدك المسكين عليهما بالدليل القاطع، وينال ترقيته ومكافأة مالية، ليكمل بها تشييد داره!".

وكأنما سمع جاسم أصداء ما يعتمل في نفس السري من أفكار، فأنشد وهو يحاول الوقوف:

"من هنا أماه! أعواد المشانق
والحريق
من هاهنا بدأوا ونبدأ، فالطريق
وعر طويل..
لا عاش رعديد ذليل "(19).

وردد السري في ذات نفسه: "يا ربي أجعله يشتم رئيس الجمهورية، ياربي إنه ليس إلا سكيراً أحمق ولن تشمله رحمتك فيتوب! فارزقني من غلطة لسان سكران يا أرحم الراحمين!".

ووقف جاسم، وأخذ يهتف في البار من بين دموعه وآهاته ومخاطه وتعرق وجهه: "لا عاش رعديد ذليل"!. وخابت توقعات السري، وشعر بالإحباط، وهتف بعض الزبائن على المناضد البعيدة، مواساة للرجل وتخفيفاً لآلامه الممضة، وسخرية من حال جميع الجالسين: "عشت يا بطل، وتحيا القدس، وفلسطين عربية، والموت للاستعمار!".

وأجلسه شيخ المعدان، بينما أفرغ سويجت صحن الحمص المسلوق وطلب من الجرسون أن يأتيه بصحن باقلاء مسلوقة، وجلس ينظر للأضواء والناس ولبكاء جاسم العطية دون أن يفهم سببه، أو يتدخل كما أوصوه، كما أن أحداً لم يمس شيخه بشعرة، قال الشيخ:

ــ"جويسم أحترق شيب موتانا هل سكرت ؟".

أجاب بصوت ملتو: "أنا لا أسكر يا شيخ، ولكن القلب ينزف هموم الوطن وأحزانه!". "جويسم فضحتنا، أنظر الناس كلهم ينظرون باتجاهنا ويسخرون منا، أخيراً أصبح شيخ

المعدان مجاري مسخرة لأهل المدينة! وعلينا أن نغير مكاننا بسبب دموع النساء التي تذرفها!".
ضحك جاسم، وقال:
ــ "نذهب إلى المنزول(20)، هذا أفضل وأشرف مكان في هذه المدينة العاهرة!".

- 29 –

في ذلك الليل الذي ثار خلاله الجسد على أحزانه المريرة من أقدار غاشمة لا ترحم، أحقا تمور داخلها لواعج وآهات، مسورة بسياج من الجن والأخلاق، فلا يقربها رجل إلا ويموت ؟ أحقا إن هذا الجسد الممتلئ حياة وأنوثة لا يمكن أن تضمه الأفرشة والأغطية مع رجل إلا أن يكون ثالثهما عشيقها الجني ؟ الذي تراه في أحلامها ظلاً أسود يتحرك في أرجاء الدار ثم يعتلي البرحية(21) بحذاقة قرد ليقطف ثمرها اللين، ويقهقه ضاحكا فتفز من نومها مرعوبة، أخبرها الصابئي(22) الشواف حين قصدته مع أمها بعد موت عريسها في تلك الخرابة التي يسكنها، لقد قال بالحرف الواحد إنها مسكونة بالجني ولا تتذكر الاسم الذي أطلقه عليه وأشترط عليها شروطاً عديدة حتى يستطيع إخراجه من جسدها، كان شرطه الأصعب أن تترك جسدها مستباحاً لعشرة شباب!، فلطمت خديها أمامه وقالت: "أموت قبل أن يحدث لي هذا!"، صمت الصابئي، وقال بعد أن فكر لحظات: "لو فعل ذلك من ركبه جني مثلك، لما عادت لك حاجة بالتسعة الباقين!"، وتساءلت: "وأين أجد هذا الذي ركبه الجني ؟". قال ضاحكاً: "أي مجنون من المجانين، هو في حقيقة الأمر قد ركبه جني وأفقده عقله!"، وفي تلك اللحظة، لا تدري لماذا تخيلت هلال المجنون الذي يعشقها بل عشقها حد الجنون، لِمَ لا يكون الذي يحل عقدتها عسى أن يتركه جنيه أيضا، لكن كيف الانفراد بهلال وهو يدور كالرحى بين المزارع وصرائف القرية ودروبها ويلقي أشعار عشقه لها على أسماع الأبقار والخراف والحمير والكلاب في الزرائب وبين القبور في مقبرة الجوابر، التي يُدفن في ثراها أطفال القرية ومن لا يملك المال من الكبار، لنقله إلى النجف، فيبقى مدفونا كأمانة في ثرى المقبرة، لفترة ستة شهور وبعد أن يدبر الأهل مبالغ النقل والجنازة يتم حفر الجسد مجدداً ويُنقل إلى النجف، ويقسم الناس أغلظ الأيمان إن تلك الأجساد الموضوعة في الأرض لا تنتن ولا تتفسخ! وإن الأرض تحمي أماناتها وهي بذلك أفضل من بني آدم، الذي لا يحفظ أمانته!.
في ذلك المساء الساخن، حيث ذهبت أمها تساعد إحدى نساء القرية في ولادة من الولادات المستعصية، وأبوها ذهب ليبيت في دار امرأته الثانية، في طرف القرية، ونام أخوها في الصريفة الأخرى بعد أن زالت عنه حمى الملاريا، التي كانت تجيئه في ساعات متفرقة من اليوم، وبقيت في صريفتها، حيث أثاث الترمل، المرصوف، المغطى بدثار من الغبار!، أسيرة لأحزانها وإحباطاتها، في ذلك المساء قررت أن تجتمع بهلال المجنون مهما كان الثمن، ومنذ ساعة سمعت ضجة دخوله الزريبة، وقد عم الهدوء بعد دقائق من مجيئه، وتساءلت في ذاتها: "هل نام في فراش القش الذي أعدته له أمي؟". لفت رأسها بالشيلة وجعلت منها نقاباً على نصف وجهها الأسفل، هي تعرف أنه الآن ينام في زريبتهم، خرجت من صريفتها في ذلك الليل

المسكون بنباح الكلاب. كان القمر بدراً تاماً والنجوم تشع مختلفة وبنات نعش(23) يشيعن أختهن المترملة إلى قبو أحزانها في متاهات السماء. كانت كفها ترتجف، دفعت الباب الصفيحي فأصدر صوتاً مكتوماً، وسقط نور القمر على هيئة مستطيل كبير على الخراف والبقرة وفراش القش، وتعالى صوت غثاء وتعالى خوار خفيض، ثم هدأت الحيوانات وأخذت تسمع صوت إجترارها وشخير هلال العالي. بقيت واقفة هناك لحظات تنتظر حتى اعتادت عيناها الظلام، رأته نائماً وقد أنحسر ثوبه الممزق عن ساقيه، وأنتصب الثوب المتهرئ عند بطنه على شكل خيمة صغيرة، وتعالى نباح كلب بعيد من طرف القرية البعيد، وسمعت مواء قطة في باحة الدار، شعرت بقلبها يخفق كقلب طائر صغير أتعبه الطيران! أقتربت من مجنونها خطوات وهي ترتجف خائفة، محاذرة من التعثر بشيء في الظلام، صارت عند قدميه، صارت تراه الآن بشكل أفضل، بركت على ركبتيها وأخذت تداعب ساقيه العاريتين، ثم شعرت بالدموع تسفح من عينيها، كانت دموعها غزيرة، مالحة، ودون أن تدري سقطت شيلتها من فوق رأسها، صارت ضفيرتاها فوق جلده العاري، وأخذت تشهق باكية دافنة رأسها في ذلك الجسد المرمي على بساط القش، لم يفعل شيئاً، فقط توقف عن الشخير وفتح عينيه ببطء، همست خائفة: "أنا نرجس يا هلال، جئت أغطيك!". تنهد، وحاول بعينيه الرامشتين أن يحدد وجودها، ويقطعه عن ظلام الزريبة بوضع كفه علىجبهته. ساد الصمت بينهما لحظات، كانت نرجس ترتعش حتى أخمص قدميها، وكان هلال كأنما يرى رؤيا جميلة، ويخاف أن تضيع منه كباقي الرؤى التي يراها في يومه! ذيل الصمت يطول، وقطرات العرق تتجمع وتسيل من وجهها على رقبتها، تشعر بالعرق يبلل جسدها كله، وهمست من جديد: "أتحتاج شيئاً ؟"... وفز مرعوباً، أطلق صوتاً عالياً، ووقف بكامل قامته، وأنطلق يصرخ بمفردات لم تفهمها، ودفع باب الزريبة الآخر المؤدي إلى دروب القرية وخرج، فلطمت نرجس خديها بكفيها: "الفضيحة يا نرجس! الفضيحة!"، وشعرت بعرقها يبرد ويصبح ثلجاً يغطي جسدها، ورددت مع نفسها وهي تقف لتغلق باب الزريبة بالمزلاج الخشبي: "لن يصدقه أحد!". ومنذ تلك الليلة أخذ هلال المجنون يروي قصصاً مختلفة لشباب القرية عن ضفائر نرجس التي غطت عريه، وفي كل قصة جديدة يضيف تفاصيل إضافية، ويخترع أفعالاً لم يفعلها، حتى وصلت الحكايات المتناثرة التي لم يصدقها أحد أسماع أبي نرجس، فمنعه من النوم في الزريبة فاستعاض عن ذلك بالنوم فوق أغصان شجرة السدر المعمرة!.

- 30 –

ودفع جاسم ثمن ما شربوه وأكلوه للجرسون، وتهيأ رجل الأمن لمتابعتهم، وأمام البار وقف الرجلان وجلس سويجت على الرصيف خوفاً من السيارات المارقة بين الحين والآخر كالسهم، أزدادت شكوك السري بالرجلين وأصر على الوقوف على بقية أفراد القيادة العليا، وأخذ يدعو الله في سره "أن تكون القيادة موفورة العدد! لها مهابة، ووقع كبير على مدير الأمن، وأن يهرع إليه مدير الأمن حالما يسلمهم المجرمين، ويضع قبلة على جبينه!". واستقل تاكسيا وراء التاكسي الذي نقل طرائده، وطلب من السائق أن يتابع السيارة التي تسير أمامه،

واستمرت المطاردة في شارع الوطني، ثم أنحرفت صوب الغرب، ثم اتجهت شمالاً صوب سوق حنا الشيخ(24)، وبدأت تتجه من جديد بمحاذاة شط العشار صوب الغرب، باتجاه البصرة القديمة، وأخيراً انتهت أمام مبغى كبير أجازته الحكومة، ونزل الرجال الثلاثة ودلفوا إلى المبغى وتبعهم السري إلى الداخل وهو يتعوذ من الشيطان الرجيم ويقول في ذاته: "ربي لا تؤاخذني بما يفعله هؤلاء السفهاء، إنك تعرف أني أقوم بعملي وما دخلت هذا المكان إلا في سبيل طلب الرزق والإمساك بالشيوعيين المارقين!".

في الباحة الواسعة التي دخل الرجال الثلاثة إليها وجدوا المكان يزدحم بالرجال والنساء، وأُصيبوا بالدهشة لكثرة النساء وجمالهن العاري!، وقصات شعورهن الجميلة والعطور المنثالة من ثيابهن وحركة أيديهن الرشيقة وهن يضعن سجائرهن بين شفاههن وينفثن الدخان الأزرق على دفعات متتابعة، نساء بمختلف الأعمار، الصغيرات بتنانيرهن السود القصيرة فوق الركبة، وصدورهن العارية وعيونهن الكحيلة، ونساء في أواسط العمر بأرداف ممتلئة وأسنان غُلفت بصفائح الذهب، النحيلات والممتلئات، بشعور سوداء وشقراء، وجوه بيضاء وأخرى سمراء، والأكبر سناً وأقل جاذبية يجلسن بأوضاع مغرية وقد أظهرن أفخاذهن السمينة وصدورهن البيضاء، الممتلئة مشرعة صوب نور النيونات، وتتعالى ضحكاتهن الماجنة بين الحين والآخر، كان هناك عدد من البحارة الأجانب، بشعورهم الشقراء ووجوههم الصهباء بأذرع مكشوفة، مملوءة برسوم موشومة زرقاء لأسماك وأسود وكلمات أجنبية، كان الرجال يختارون بغيتهم من النساء ويسحبونهن من معاصمهن صوب غرف داخلية قديمة، مظلمة، بأبواب خشبية مواربة، فتعلو ضحكاتهن الماجنة في أرجاء المكان!. جلس السري والقلق يبدو عليه خوفاً من ضياع طرائده علىمصطبة للانتظار على حافة الباحة، وعلق شيخ المعدان والفرح ينبسط على قسمات وجهه: "نحن في الجنة يا جويسم! نعم إنها الجنة!". وأشار لسويجت بكرم: "اختر واحدة، أية واحدة من هذه المدامات(25) وخذها!". وأخذ الأسود يتلمظ كقط وقع علىقطعة لحم كبيرة، واختار سويجت امرأة بيضاء ضخمة الردفين وتعلك لباناً في فمها المرصوف بأسنان ذهبية(26)، وقبضت أصابعه السوداء المرتجفة على معصمها الأملس، الأبيض، وأشار إليه جاسم أن يقودها إلى إحدى الغرف الداخلية، لكن الغرف كانت مملوءة بالزبائن وليس هناك غرفة فارغة، فبقي واقفاً مع قحبته التي تنفخ علكها على شكل بالون، فينفجر بعد لحظات ويخلف شظاياه فوق شفتها العليا كشارب صغير، فتجمع العلكة من جديد بلسانها وتدوره في فمها لتنفخه من جديد! كانا واقفين في باب إحدى الغرف بأنتظار أن تفرغ وعيناه على عجيزتها المنتفخة، وأخذت امرأة سمراء تتحرش بالسري، الذي كان يستغفر الله بصوت واطئ مما يرى، وأخذتْ تلك السمراء يده قسراً ووضعتها بين فخذيها العاريين، فسحب السري كفه كالملسوع، فقالت له المومس وهي تنظر إليه غاضبة: "من قال لك إننا نبيع في هذا المكان طماطة ؟". فقال السري بغباء: "إني لا أبحث عن الطماطة!". فقالت: "إذن اترك يدك لي ولا تتمتم كالمعتوه!". فأعطاها يده وصمت خوفاً من افتضاح أمره، وهو قد سمع من زملائه في السلك عن حالة مشابهة لحالته، حين أكتشفت المومسات شرطياً سرياً بين الزبائن، فمات في المنزول ضرباً بقباقيبهن الخشبية، التي أخذت تنزل على رأسه بلا رحمة، حتى الرجال من الزبائن تعاونوا معهن بضربة على كليتيه بالأحذية، وحين عرفوا

أنهم قتلوه، تركوه وحده في المبغى وهرب الجميع! حتى القحاب غادرن إلى دور أخرى، وضاع دم المسكين، حتى عائلته لم تحصل حتى هذا اليوم على راتب تقاعدي بسبب دخول المرحوم المبغى دون أمر صريح من رئيسه المباشر، وأعمامه تبرأوا منه لأنه مات في مكان مشبوه! حتى صارت ميتة ذلك السري المسكين مثلا يُضرب به بين السريين للتحذير من الدخول في مشاكل ومشادات مع القحاب! فأخذ السري يطلب من الله الستر والعافية وآثر الصمت والتحمل لنيل السلامة!.

أخذ جاسم يبحث عن واحدة تليق بذوقه، أذهلته شقراء بعينين خضراوين، لكنه سرعان ما شعر بقلبه ينقذف من جوفه إلى فمه، وصرخ مذهولا: "بلقيس.. أبنة الإيرانية ؟!"، وسمعته يصرخ بأسمها، فانتبهت إليه، رددت مذهولة بهذه المصادفة: "جويسم العطية ؟!"، وهرع إليها وأمسك بمعصمها، وذابت المسكينة خوفاً وخجلاً، كانت كل واحدة من قريتهم تُعد أبنة عم لرجال القرية، وها هو أخيراً يجد أبنة عمه بلقيس، التي اختفت من القرية منذ سنوات كثيرة، وأخبرهم أبوها إنها ذهبت إلى إيران عند أمها، شعر بقدميه لا تحملانه، لم ينتبه شيخ المعدان إليه وهو يهرع للإمساك بمعصم أبنة عمه، فقد كان مشغولاً بشابة بيضاء مكتنزة الساقين، وأسفل حنكها شامة كبيرة يحبها في وجوه النساء، وتتحدث بلهجة بغدادية(27)، ووجد له مكاناً ليجلس قربها على المصطبة الطويلة، وامتلأ أنفها برائحة هي خليط من رائحة الزريبة والخمرة الرخيصة ورائحة المطال، ووضعت أصبعين حول فتحتي أنفها وقالت بدلال:

ــ"منذ كم سنة وأنت لم تستحم ؟".

قال مبتسماً: "منذ شهر يا نور العين!".

قالها بلكنته الشعبية وهو يقول ذلك لأية امرأة أخرى من زوجاته الثلاث أو طليقاته اللاتي يشتاق للنوم معهن من جديد بدعوى أن لا زنى يقع بالنوم معهن مادامت كل واحدة منهن لم ترتبط بزواج جديد! والطلاق ليس إلا ورقة يمكن دحضها بورقة أخرى من الملا(28) بعد التمتع بساعة من الأنس على فراش وثير، ويمكن تأجيل تلك الورقة ليوم أو يومين، فما قيمة الزمن في هذا العراء، وماذا يحدث لو تأخرت تلك الورقة، مادام أنه أقسم لها إنها زوجته أمام الله والناس؟!. ضحكت المومس وقالت:

ــ"ستدفع نصف دينار وليس الربع دينار، الذي يدفعه الآخرون!".

وضع يده على صدره كأنما يقسم لها:

"سأدفع لك ديناراً كاملاً يا نورالعين!".

علت ضحكتها المسترسلة من جديد فشعر شيخ المعدان بروحه تذوب وتتبخر في الباحة، المكتظة، ووضعت المرأة فخذها المكتنز على ساقه النحيلة، وأخذت تحركها ببطء لتزيد من جنونه ولهفته عليها!.

جلس جاسم قريباً من بلقيس، التي همست له:

ــ"دخيلتك يا جويسم العطية لا تفضحني!".

ــ"ماذا صنعت بحياتك يا أبنة العم ؟!".

لم تصبر على لومه لها فطفقت تبكي، وتمسح دموعها بكم ثوبها، وأنتبهت القوادة العجوز، التي تجلس خلف منضدة صغيرة قديمة وأمامها الصحن الذي تجمع فيه مال الدخول، فتركت المنضدة وقالت لجاسم العطية بوجه مكفهر:

ــ "ماذا فعل أبن... هذا وأبكاك ؟".

نظرت إليها بلقيس بوجه جميل وعينين دامعتين وهمست:

ــ "أتركيه إنه من قريتي..".

وحين عرفت القوادة ذلك لطمت صدرها بكفها:

ــ "يا مصيبتك يا مسكينة!، أي حظ سيء جاء به إليك؟".

أفردت بلقيس يديها أمام القوادة:

ــ "لن يخبر أحداً، لقد أقسم على ذلك!".

شعر جاسم بالإحباط، وجلس قريباً من بلقيس بروح محطمة، وتساءل بصمت حزين: "هل يصمت حقاً ؟"، ويترك أبنة عمه في عارها، تلوث سمعة الأهل بما تفعل ؟، لو كان الشيوعيون في السلطة لما تعرضت بلقيس لهذا المصير الشائن!". وراح يردد على مسامعها أستنكاره لوضعها:

ــ "لماذا يا بلقيس ؟ لماذا ؟".

تمتمت وهي تمسح دموعها: "كنت صغيرة يا جويسم وتبعت السائحين، ثم بعد أيام، فاجأوني بعزمهم على الذهاب إلى بلادهم وطلبوا مني أن أصحبهم، لكنني رفضت ذلك، أعطوني المال وذهبوا، ووجدت نفسي بعد أن نفد المال على الرصيف، ولا أستطيع الرجوع إلى أبي أو إلى أي مكان آخر، في حقيقة الأمر إني مذنبة، نعم مذنبة! لقد جئت إلى هذا المكان برغبتي، وصحبت الأجانب برغبتي، لم يفرض علي أحد ما يريد، بل أنا التي فعلتُ كل ما أريد أن أفعل، هذه حكايتي كلها! وحالما تصل إلى أسماع أبي، أعرف أنه سيكون مضطراً لغسل عاره بذبحي! وأنت ستكون سبباً في قتلي، صدقني يا جويسم لا أحب الحياة بعد الذي حدث، لكن من أجل أبي المسكين لا أريده أن يقضي بقية عمره في السجن!".

صمت جاسم ولم يعدها بشيء، كانت الخمرة قد تبخرت من رأسه، ثم سحبته من كفه ناهضة، فوقف هو أيضاً كسيراً وغمزت للقوادة المتوترة، فتحركت قبلهما وأفرغت غرفة من الغرف، وأدخلتهما إليها، قابلتهما نساء يخرجن من غرف أخرى عاريات، وأخريات يقفن أمام الأبواب المشرعة تحت المصابيح المتدلية من السقوف بصدور مشرعة والرجال يخرجون مسرعين وبأيديهم أردية داخلية متسخة طويلة وقصيرة يلبسونها على عجل وهم يمشون، وولج المكان حشد آخر من الرجال السكارى، وتعالى السباب من القوادة وأغلقت باب الغرفة عليهما، وجاءت ضحكات مدوية من وراء الأبواب وازدحمت الممرات بالرجال المنتظرين لدورهم في طلب المتعة.

في تلك الغرفة الفقيرة الأثاث، وفوق ذلك الفراش الأسمر الذي أنتشرت عليه البقع والخرائط وفاحت نتانته. أذاقت بلقيس أبن عمها لذائذ جسدها، التي بذلتها إلى زبائنها بنفس غير راضية مصحوبة بعبارات نابية تعلمتها من زميلاتها، شعر جاسم لحظتها أنه يمارس جنساً محرماً، لكن في دواخله المتوترة، المتمردة على الأعراف والنواميس العشائرية، شعر أن بلقيس

بالرغم من عهرها ومعرفته بذلك فقد أمتزجت روحها بروحه، ولن ينسى تلك التأوهات الحقيقية التي كانت تطلقها كمنصهر الرصاص وهو يجمد فجأة في الماء البارد وجسداهما يلتحمان في حزمة واحدة، خلية فوق خلية، كحزمة الثوم المتراصة، مملوءة بالإرهاصات والأشواق والدموع، أينسى تلك الدموع التي كانت تنثرها عيناها الخضراوان وهي تلهج بما يشبه البكاء: "اِبن عمي.. حبيبي.. عريسي.. أنت أهلي، وحياتي!". كانت كل ذرة فيهما تتوتر وتُشنق على أعواد الحب، وما أن تنهد التنهيدة الأخيرة وإنهار فوقها، وأراح رأسه بين نهديها، شعر أنه لن يفارقها ولن يشي بمكان وجودها لأحد أبداً..! حتى لو علقوه من عقبيه في غصن شجرة أرطا أو غضاة، أو اقتلعوا أظافره، ظفراً، ظفراً.. هي أنثاه منذ هذه الليلة، ولن يتخلى عنها أبداً. إلى الجحيم بالجميع، هؤلاء الجبناء، الذين هم من الشيوعيين الأقحاح وينكرون ذلك حتى مع أنفسهم! خوفاً من الحكومة وشرطتها السرية! وضعت رأسها على صدره وهمست وقد بدا اليقين في عينيها من ولائه لها: "لن تشي بمكاني لأحد ؟!". ومد يده لتمس بشرتها الناعمة:

ــ "لن أفعل ذلك!..".

ــ "سأنتظرك كل يوم، وإذا لم تأت سأفعل المستحيل لألتقي بك!". ثم أكملت وهي تحدق في عينيه في ضوء المصباح المشنوق بخيط الكهرباء وسط الغرفة النتنة:

ــ "إذا احتجت للمال أو أية مساعدة أخرى فقط أخبرهم إنك تريد ليلى! أسمي هنا ليلى، سيدخلونك عليَّ حتى إذا كانت أبوابنا مقفلة، لأي سبب!".

1- منطقة تقع وسط العاصمة بغداد.
2- أكلة تتكون من اللحم المفروم الذي تم شيه على النار.
3- دار البغاء.
4- مرض الكوليرا.
5- القنبلة.
6- المفرد هاون، وهو ما يستخدم لسحق حبوب القهوة الناضجة.
7- حُملت رأس الحسين(ع) ورؤوس أصحابه المقتولين إلى دمشق عليهم السلام جميعاَ.
8- أشجار وارفة الظلال تنبت في الصحراء قريبا من الآبار العيون.
9- مدونات تاريخية ومخطوطات غير مطبوعة.
10- اليوم الأربعون بعد يوم مقتل الحسين وأصحابه عليهم السلام.
11- تشبه الجبة، ويستخدمها أهل الهور والريف في العراق.
12- فترة زمنية تشبه الهدنة بين جيشين متقاتلين.
13- يتكون من التقاء نهري دجلة والفرات ويصب في الخليج العربي.
14- للشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي، قصيدة "القرية الملعونة".
15- نفس القصيدة أعلاه.
16- عبارة يستخدمها العراقيون لإظهار دهشتهم وتعجبهم.
17- من وسائل التعذيب العادية في دوائر الأمن العراقية منذ عام 1969 وحتى الوقت

الحاضر.
18- عقوبة شتم رئيس الجمهورية الإعدام في العراق.
19- القصيدة السابقة.
20- دار البغاء في البصرة القديمة.
21- نوع من أنواع أشجار النخيل.
22- الصابئة طائفة دينية تسكن في جنوب العراق.
23- سبعة نجوم متقاربة تظهر في السماء ويسميها أهل الجنوب بهذا الاسم.
24- شوارع ومحلات تجارية في البصرة جنوب العراق.
25- السيدات.
26- تستخدم العاهرات في ذلك الوقت تغليف أسنانهن بصفائح الذهب لتمييزهن عن النساء الشريفات.
27- لهجة أهل الجنوب تختلف عن لهجات أهل الوسط والشمال من العراق، ويتم التفاهم بها بصعوبة.
28- الملا هو الرجل المتعلم تعليماً أولياً وحافظاً للقرآن، ويقوم في قرى جنوب العراق بعقد الزيجات الجديدة وتسجيل أوراق الطلاق.

الجزء السادس

- 31 –

دخل شيخ المعدان مع صاحبته البغدادية وكانت تنتهره بصوت عال ليستعجل نزع ملابسه، كان مرتدياً الكثير من الملابس بعضها فوق البعض كعادة المعدان، لم تصبر عليه وأخذت تسبه سباً بذيئاً وهو لا يجرؤ على الرد عليها بصوت عال بل يرد كل سبة بأخرى في قلبه! كانت نائمة على ظهرها فوق سرير خشبي قديم، متهالك، وأخرجت ساقيها العاريتين تحت ضوء المصباح، وأخذت خصلة من شعرها الطويل ووضعتها بين شفتيها للإغراء، وحالما أكمل نزع لباسه الداخلي الطويل المتسخ حتى أثارت ملابسه المنزوعة موجة من الرائحة الكريهة وأختلطت بنتانة الغرفة المظلمة! وعند مقدمة السرير أستقرت مرآة طويلة مشروخة في الوسط فعكست عري الشيخ مرتين، فكل شرخ في المرآة عراه مرة، وحين رأى ذلك أنكمش خجلاناً متعرقاً، وسحبته المرأة من معصمه فتعثر بالسرير ووقع فوقها، وبسبب خجله وإرتباكه لم تطاوعه رجولته، فبقي هكذا فوقها، كالمغلوب على أمره، لا يتحرك ولا يبدو أن رجولته ستستجيب، فأخذت تسبه من جديد سباً بذيئاً، ومدت يدها إليه، وفعلت شيئاً بأصابعها المدربة على مسرى العروق في ظهره، فقضت على خجله وإرتباكه وجعلته يتوفز ليقتنص من جمالها الثر المطروح أمامه وتبتل ساقيته بفيضها المألوف، وعطرها الرخيص ينثال حوله ويمتلئ سمعه بتنهداتها وصرخاتها المصطنعة، في حرارة الغرفة وبخارها الساخن وتشبثاتها العشوائية بصدره وأذنيه وذراعيه، ممثلة دور العاشقة المتدلهة بحبه، وكغريقة وجدت وسط اليم جذعاً طافياً أودعته كل أمنياتها بالنجاة!.

حين اطمأن السري إلى وجودهم في غرف المتعة خرج من المبغى قاصداً مركز الشرطة القريب، فرحبوا به وأبلغهم بقصة الشيوعيين اللذين يتابعهما منذ العصر، واصطحب بعد ذلك عدداً من الشرطة لإلقاء القبض عليهما حالما يغادران المبغى، ومن جديد رجع إلى ذلك البيت القديم، فوجدهما يهمان بالمغادرة، فخرج قبلهما وحالما أصبحا في الشارع هجمت عليهما الشرطة، فصرخ جاسم منبهاً شيخ المعدان فطار صوابه وهو يرى رجال الشرطة ببزاتهم الرسمية، وقفل راجعاً إلى الوراء وحالت بينهما وبين الشرطة مجموعة من السكارى خرجت تواً من المبغى ودخلا من جديد في ازدحام المبغى ودخل ثلاثة من الشرطة وراءهما، وصرخ شيخ المعدان: "جويسم.. انفضحنا وانتهى الأمر!". ودخلا غرفة إلى اليسار من رعبهما، فصرخت المومس التي كانت فيها وفز مرعوباً الرجل الذي كان يعانقها، وفر عارياً إلى خارج الغرفة صارخاً: "عقارب!.. عقارب يا رجال!" وذلك ما يطلقه رواد المبغى في ساعات الخطر، معتقدين أن الشرطة السرية ستلقي القبض على الجميع! وارتفع صراخ القحاب في

الباحة، ووقفت القوادة العجوز بوجوه الشرطة وهي تضع يديها حول خصرها، قائلة لهم: "إن المكان مرخص من الحكومة، وليس لهم الحق بالدخول عنوة!". وبدأت تسبهم سباً بذيئاً لم يسمعوا مثله في حياتهم، وانحنت ملتقطة قبقابها(1) الخشبي وأخذت تضرب أقرب شرطي منها، وردد أحد الزبائن ساخراً: "إن دواء الشرطة يكمن في قباقيب القحاب!". وتشجعت قحاب الباحة وهجمن على رجال الشرطة ضرباً بالقباقيب على رؤوسهم وصدورهم! وفر بضع زبائن دون أن يدفعوا للقوادة الأجور المعتادة بعد أن قضوا وطرهم، ووجدوا فرصتهم في العراك الناشب بين القحاب ورجال الحكومة، والازدحام ليفروا بجلودهم ونقودهم من المكان الذي تحول إلى ساحة معركة حقيقية، أراد شيخ المعدان أن يختفي تحت سرير القحبة وهو يرتجف عاراً وخوفاً، لكن القحبة الحائرة، التي لا تدري ماذا يحصل في الخارج صرخت بهم دون أن تعنى بتغطية جسدها العاري:

ــ "ماذا حدث؟ هل وقع السقف، كنت أعرف أن هذا سيحدث!". صرخ بها جاسم: "الشرطة في أثرنا!".

فضحكت وقالت ساخرة: "الحمد لله الشرطة أمرها سهل وهو مقدور عليه! جففتم الدم في عروقي أماتكما الله!". قال جاسم: "أنا صاحب ليلى زميلتكم!". ففهمت إشارته وأدخلتهما الكنتور(2) الخشبي القديم وردت البابين وراءهما، فأصبحا بين الملابس القذرة، بصحبة الصراصر والبراغيث والرائحة الزنخة ويخنقهما الحر الشديد، وقد طارت الخمرة من رأسيهما وأخذا يلعنان حظهما العاثر، ولم يكن سويجت العبد مقصوداً بهذا الهجوم المباغت، لكنه رأى ما حصل للشيخ مجاري ورأى فراره من أيدي الشرطة مع صاحبه فوقع قلبه في قدميه وهو المسؤول أمام المعدان عن حماية الشيخ، فماذا يقول لهم في العودة؟! هل يرجع إليهم ويقول كالمرأة الخائبة، إنه فقد أثر الشيخ؟!. وفرح حين رأى الشرطة يخرجون من المبغى وحدهم والقباقيب المقذوفة تتبعهم إلى وسط الشارع وهم يتلمسون رؤوسهم المجروحة في عدة مواضع! ولم ير شيخه ولا جويسم مع الخارجين، وقرر أن يبقى قريباً من المبغى يراقب ليعرف نتيجة هذه الفاجعة التي حلت بهم، ثم أزداد غمه حين رأى أعداداً جديدة من الشرطة يأتون من الخلاء ليعززوا جماعتهم وأخذوا ينتشرون في الأزقة الضيقة، وقريباً من باب المبغى والبيوت المشبوهة الأخرى ويسدون الطرقات بعصيهم وبنادقهم، وقرر بعد ساعة من الانتظار غير المفيد أن البقاء في هذا المكان كارثة وعليه العودة إلى قرية الدبن لجلب المزيد من المعدان لتخليص الشيخ من ورطته التي أوقعه فيها جاسم العطية ولا أحد غيره!. هرعت بلقيس إلى حجرة المحاصرين وأخرجتهما من كنتور الملابس وصرخت:

ــ "ماذا فعلتما ليجد كل هذا العدد من الشرطة في طلبكما؟".

قال جاسم:

ــ "لم نفعل شيئاً، سكرنا في البار وجئنا إليكم، وما هربنا منهم إلا لاعتقادنا أنهم سيقبضون على الرجال الذين دخلوا مبغاكم ".

حارت بلقيس وقالت: "لكن مبغانا مرخص من الحكومة، ولا يمكن أن يكون تهمة، ويلجه الرجال صباحاً ومساءً كالأمراء، بعلم الحكومة ومعرفتها، فماذا حدث للدنيا هذه الليلة؟".

ونظر جاسم إلى صاحبه، الذي كان مشغولاً بإخراج عقاله، الذي سقط حول رقبته أثناء فراره، وقال:

ــ "ربما أحد أعدائك فضحك فدبر لك دسيسة، لا يعلمها إلا الله!". بدا الارتباك والخوف من الفضيحة على وجه الشيخ وردد:

ــ"أولاد عمي حالما يكتشفون ما صنعته بنفسي وما ألحقته بهم من عار، سيقيدونني إلى جذع نخلة ويطلقون علي النار بلا رأفة!".

دخلت القوادة متوترة، قالت غاضبة: "قطعتما رزقنا يقطعكما الله!". وأكملت بعد ذلك وهي تسترد أنفاسها:

ــ "طردت الجرابيع وأغلقت الباب بالمفتاح، لن يجرؤ أحد من الشرطة على طرق الباب!". وانتبهت لجاسم، الذي امتقع وجهه واحتد صوتها:

ــ "يا صاحب المصائب، أنت من جلب لنا كل هذا البلاء بمجيئك. البنت تعمل على باب الله، وأنت تأتي فتقطع رزقها!". لكزتها بلقيس بكفها:

ــ "اتركيه ولندبر لهما مخرجا من هذه الورطة!".

نظرت القوادة نحو بلقيس ثم باتجاه الرجلين المرتجفين، قالت: "اتبعاني!". وعند خروجهم من الحجرة وجدوا القحاب في الباحة يروحن عن أنفسهن بالمهفات(3) ووضع الأحمر على الخدود والشفاه وعلك اللبـــان، قالت القوادة بصوت أمومي: "انتهى العمل يا بنات، لنبحث عن مخرج لهذين البطلين!". وقف الرجلان أمام نظرات القحاب المتفحصة مرتبكين والعرق يتفصد من وجهيهما ولا يكادان يقويان على الوقوف من فرط التعب والارتباك، قالت واحدة، كمثرية الوجه تجلس على المصطبة وقد وضعت ساقاً على ساق وتدخن بشراهة:

ــ "وماذا فعل هذان البطلان ليلحق بهما كل هذا الحشد الكبير من الشرطة؟". أجابت أخرى ساخرة:

"سرقا محفظة المفوض!(4)". فتعالت الضحكات، وعلقت أخرى: "يبدو عليهما أنهما ناما مع فوزية العوراءء، ومن ينام معها يصاب بالنحس طوال يومه!". فوزية كانت قوادة الجانب الآخر من المنزول في الشارع المحاذي وكان ثمة تنافس شديد على طلب الرزق بين القوادات في المنطقة بأكملها!.

حاول جاسم أن يلطف الجو ويجعل القحاب تنظر إليهما باحترام، فقال وهو يحاول أن يختار الاسم المناسب لهن، فهل يقول يا أخوات؟ وذلك غير ممكن، لأنه لا يمكن أن يقبل الارتباط بالأخوة بمثلهن، فهل يقول يا قحاب؟، وإذا قال ذلك هل يضمن عدم شعورهن بالإهانة؟، وإذا قال يا سيدات فربما يعتقدن أنه يسخر منهن ويمدن رؤوسهن من النوافذ معولات، معلنات للشرطة عن وجودهما؟، وحين لم يجد الاسم المناسب بدأ كلامه دون أن يسميهن: "أنا وصاحبي هذا من سادة أهل الريف والهور، وصاحبي هذا!..". توقف عن الكلام لحظات ليثير فضولهن وقد أفرد سبابته باتجاه صاحبه، وعلقت واحدة خبيثة منهن: "ولكن ماذا حدث له؟، يبدو أن نصفه الأعلى قد أحترق!". وعلت القهقهات وأطرق الشيخ حزيناً، محبطاً، وهو يود لو أن الأرض أنشقت وابتلعته.

صرخت القوادة بهن: "اجمعن أشياءكن سنأخذهما معنا إلى غرف النوم!". وهللت القحبات مسرورات كأنما حصلن على قردين، واحتبست الكلمات في فمي جاسم وصاحبه، وتبعا القحاب إلى باحة أخرى في الدار صامتين، ووصلوا إلى باب سري في الجدار وأخذا يمسحان العرق عن وجهيهما ودلفت النساء من الباب المفتوح، ودخلا مع الداخلين، فوجد الرجلان أنهما أصبحا في دار ثانية تقع إلى الخلف من المبغى، قالت بلقيس: "إذا خرجتما الآن ألقت الشرطة القبض عليكما! يجب أن تبيتا هذه الليلة في الدار وفي الغد سنتدبر الأمر!". ومدت بلقيس يدها لتأخذ جاسم بعد أن أفهمت صاحباتها أنه عشيقها منذ أيام شرفها الأولى، وتصارعت القحاب للفوز بصاحبه شيخ المعدان، فكل واحدة منهن أرادت هذا النحيل الأسمر، الذي يكاد الخجل أن يقتله، وأمام العار الذي ينتظره في الخارج أنقاد لدفع النساء وضحكهن منه وعبثهن بمؤخرته، ولمزيد من العبث والسخرية وقضاء الوقت الثقيل تقاسمته في ذلك الليل الساخن أكثر من عشرين قحبة مجربة! فشعر بعدها أنه سيكره النساء ما تبقى له من العمر، ولن تنتصب رجولته بعد ذلك مهما فعلت النساء به من حيل وإغراء وأحابيل!.

- 32 -

قبل الفجر بقليل أغار أكثر من عشرين معيدي مسلح بالبنادق القديمة والفالات والمكاوير(5)، والسيوف على الشرطة المتشرين في الحي، ودارت معركة شوارع حقيقية أنكسرت فيها شوكة الشرطة وولى رجالها هاربين، حاملين أصحابهم الجرحى على ظهورهم وأنتهز عاقول المعيدي هذه الفرصة ونثر المنشورات التي أودعها عنده جاسم العطية، التي لا يفهم حرفاً واحداً مما كُتب عليها أمام البيوت والمحلات التجارية، نكاية بالشرطة والحكومة، واقتحم المعدان بيوت الهوى بيتاً بيتاً باحثين عن رجليهما. وقبل أن يطلع الخيط الأبيض في الأفق الشرقي، اهتدوا إليهما وأنقذوهما من ورطتهما. كان شيخهم قد فقد صايته(6)، ولا يعرف أية واحدة من قحاب الليل أخذتها للمزاح والسخرية منه وافتقد أيضاً لباسه الطويل المتسخ وعقاله!.وفي ذلك الفجر الدامي، أنسحب المعدان فرادى وجماعات، ولم تفق الشرطة أو مؤسسات الأمن من الصدمة واعتقد الجميع أن انقلاباً إسلامياً حدث في العاصمة وعليهم أن ينتظروا حتى تجيء الأوامر من القادة الجدد! فانسحب المعدان إلى بيوت في ضواحي المدينة يسكنها أقارب لهم وأصولهم من المعدان وقد استقروا هناك في بيوت الصفيح وامتهنوا مهنا عديدة منذ زمن طويل، وفي الصباح عرف الناس من المنشورات القديمة المتروكة أمام الأبواب والصور والشعارات التي كانت تطالب بتحرير فلسطين من الصهاينة! وتطالب بالحرية والديمقراطية وبظروف وأجور أفضل للعمال، وصورة لـ"ماوتسي تونغ" بحجم الكف، بوجهه الكبير ونظرته الأبوية وسماحته، وهيبته! وقال الناس: "لم يقم بتلك الحملة غير الماويين، الفرع المنشق عن الحزب الشيوعي، الذي أنتشر أفراده في الهور لمقاومة الحكومة بالسلاح!". وحدها وقفت القوادة العجوز تحسب خذوش العيارات النارية

في الجدران، وضربت صدرها متشائمة شامتة: "لم نكن ندري أن هذين الرجلين لهما كل هذه الأهمية، ويتبعهما كل هذا العدد الغفير من الرجال المسلحين!". ومنذ ذلك الفجر أصبحت بلقيس بأسمها المستعار -ليلى- ذات صوت مسموع وكلمة نافذة في الدار وارتفع أجرها عن كل رجل تنام معه إلى ضعفين، وقيل عنها إنها خليلة شيخ شيوخ الهور وأكثرهم عزاً ومالاً وقوة ووسامة، فأصبحت بتلك الإشاعات حلم الرجال للفوز بلحظات في أحضانها، وغدا بابها هدفاً لطابورهم الطويل، الذليل، لساعات، بوجوه متعرقة، وأعضاء منتصبة!..

- 33 –

في ذلك الصباح الرمادي، الذي لا يُنسى، جاء جيش الحكومة إلى قرية الجوابر! أحاط بها من كل ناحية، من جهة النهر والهور والحماد، لم يستطع طفل أو كبير أن يخرج أو يدخل إليها دون أن يمر بالجيش المدجج بالسلاح، والآليات المعتمة اللون، التي بدت كوحوش أسطورية، لم يكن أحد من أهل الجوابر يستطيع أن يتصور أن قريتهم الكبيرة يمكن لها في يوم من الأيام أن تصبح سجناً ضيقاً، كما أصبحت في ذلك الفجر الرمادي، وفي تلك الساعات المشحونة بالخوف والارتباك أخفى الحاج حسون سجل تاريخ الأولياء وشجرة الأجداد لعوائل أهل القرية، فقد كان هذا السجل أثمن ما في القرية، فمن أوراقه القديمة يعرف كل واحد منهم أصله وفصله، وكان بإمكانهم أن يعرفوا أسماء أجدادهم حتى الجد الخامس أو السادس وذلك ليس سهلا ولا عاديا، ولا يتوفر مثله حتى عند الحكومات! ونادى الجيش بمكبرات الصوت على أهل القرية، التي ماجت جموعها وأخذت تدفن سلاحها وعتادها في الزرائب والساحات المتروكة وتغطي صور الإمام علي بن أبي طالب وأولاده عليهم السلام بأغطية ثقيلة لئلا يكتشفها الجنود واختلط حابلهم بنابلهم، وجدد الجيش النداء وطلب منهم أن يهدأوا ويتقدموا لتسجيل أسمائهم عند كتاب الجيش، لغرض إعطائهم الجنسية، وحق المواطنة، وبين مصدق ومكذب، لم يكن أمامهم سوى التقدم من الكتاب العسكريين، الذين ملأوا الأفق وبدأوا بتسجيل أهل الجوابر الخائفين!.

- 34 –

وصلت الأخبار إلى قرى المعدان المنتشرة في هور الجبابيش وأهوار العمارة بسرعة وطار صواب شيخ المعدان في الجبابيش، ليقينه الراسخ أن ما حصل لأهل الجوابر كان بسبب تلك الليلة السوداء، في ذلك المبغى، الذي أفقده رجولته وما عاد يطيق بعدها رؤية أفخاذ النساء، وكلما رأى عري إحدى زوجاته شعر بالقيء يغرغر في بلعومه، فعافت نفسه الفراش والنوم مع الزوجات وفقد عضوه انتصابه الدائم وحيويته وأخذ يذبل يوماً بعد يوم، وكانت نساؤه الثلاث يتساءلن بحيرة في الفراش، ماذا جرى لرجلهن الذي يتعرق بصمت ولا يستطيع في الفراش أن يفعل شيئاً، ويهرع إلى حافة الهور متقيئاً ما أكله في العشاء؟. ذلك الأمر الجلل الذي نزل على رؤوس الجميع مثل القدر، هزه كما هز كل الجنوب، من أقصى نخلة تبترد

بنسمات الخليج وحتى أبعد نخلة، تضوعت بأنفاس أهوار الكوت(7)، وبسرعة عقد في مضيف العشيرة اجتماعاً لرؤساء الأفخاذ في العشيرة، وأبناء العم القريبين، وحين لم يجد جاسم العطية بين المجتمعين أرسل من يخبره بأمر الاجتماع، فهو منذ تلك الليلة بقي أسير صريفته، لا يحلق لحية ولا يغسل وجهاً ولا يتوقف عن إفراغ زجاجات الخمر في جوفه دون أن يخففها بالماء أو يأكل معها مزة، وهو يشعر أنه ارتكب ذنباً مريعاً لتركه بلقيس، قريبته، في ذلك الماخور تمارس الرذيلة دون أن يفعل من أجلها شيئاً، ولم يستلم حتى المنشور الآخيرللحزب، الذي يتحدث عن بطولته الخارقة وقيادته لمجموعة من المناضلين الشيوعيين، الذين طفح بهم الكيل واحتلوا محافظة البصرة، لعدة ساعات وألصقوا صور المناضلين وقاتلوا الشرطة في عملية فدائية لا مثيل لها، وانسحبوا بعد توزيع منشورات الحزب على أهلها، فصارت نكبته نكبتين فبعد هذا البلاء، الذي أوردته الجريدة السرية ستعمد الحكومة إلى حرق الجميع أحياء وما أن أتاه عاقول بخبر ذلك الحصار الذي ضُرب على أهل الجوابر فعرف أنها أولى النذر باقتراب عاصفة غضب حكومية ستمحق كل شيء، ويكون هو سبباً لبلاء أهله وإخوته وعشيرته، وراح يسب نفسه سباً بذيئاً، متواصلاً، وحين جاء رجال شيخ المعدان لاصطحابه إلى مضيف الشيخ رماهم بأقرب فردة حذاء منه! وسبهم وسب المعدان من أول ظهر حتى آخر ظهر! لكنهم لم يتراجعوا فقد كانوا مصممين على إصطحابه حتى لو اضطروا إلى تقييده وجلبه قسراً، فانتظرا ريثما هدأ غضبه ليعاودوا من جديد الإلحاح عليه بضرورة الحضور، وفكر جاسم بالذهاب معهم لمعرفة ما يمكن تقديمه لأهله وأقاربه في محنتهم! وقلب الأمور في رأسه وبعد ذلك خرج إليهم، واصطحبوه وهو ما زال لم يذق شاياً ولم يأكل لقمة خبز منذ ربع العرق، الذي شربه مساء البارحة، وفي المضيف الذي ضج بأصوات الحضور استقبله الشيخ مرحباً، وأفرغ له مكاناً إلى جانبه، ودار الحديث بعد ذلك حول ما فعلته الحكومة من عزل لأهل الجوابر في منطقة واحدة ومنعهم من الإتصال بأحد، وتوقعات شيخ المعدان من أنهم سيفعلون بالمعدان ما فعلوه بأهل الجوابر، فقال لهم جاسم إن ذلك لا يمكن فعله لاتساع المكان الذي يسكنه المعدان ولا يوجد جيش كافٍ عند الحكومة لتغطية كل منطقة الأهوار، الممتدة لمئات الكيلومترات! وأثناء الحديث عن تلك التوقعات التي قالها عن طرائق الخلاص من بلاء الحكومة، كانت وجوه العشيرة وأعمامه الشيخ وأبناء عمه تتلألأ بالأمل، والفرح وارتسام الابتسامات على الشفاه، وعندما أنتبه إلى ذلك جاسم تابع مغيراً لهجته، قائلا: "إنه يمكن للدولة أن تقوم بتطويق جباشات الهور جباشة جباشة واعتقال الناس فيها ونقلهم إلى الحماد في معسكر كبير يتم إنشاؤه هناك!". ردد أحد الجالسين: "لو نقلونا إلى الحماد سنموت! نحن كالسمك إذا أخرجته من الماء مات!". فحرك شيخ المعدان يده بعصبية فتوقف اللغط، الذي أخذ يرتفع، واختفت الابتسامات وأكمل جاسم وهو يرى إمارات الخوف التي بدأت بالظهور على الوجوه السمراء النحيلة، قال: "هذا الأمر يتعب الحكومة ويكلفها جهداً ووقتاً، فلم يبق أمامنا سوى احتمال آخير!". وهنا ارتفعت العيون إلى وجه جاسم، كأنما تطلب منه الرحمة في تحديد مصيرها: "إن الحكومة ربما ترسل طائرة أو طائرتين لحرق جباشات أهل الهور وقتلهم!، وتنفض بهذا يديها من هذا الأمر إلى الأبد!". وعندما قال هذه العبارة، أخرس الرعب الألسنة، فقد ضجت السماء بصوت طائرة عمودية مصادفة وأخذت تدور في سماء

الهور وخرج الرجال من المضيف متدافعين لرؤية هذا البلاء، الذي حط على رؤوسهم، ونظر جاسم إلى الطائرة المحلقة في السماء، وهمس بأذن شيخ المعدان، الذي كان يرتجف من شدة الخوف: "إنهم يلتقطون الصور، قبل أن يحرقوا الهور بما عليه!". وتمتم بذل: "وما العمل يا جويسم؟". نظر جاسم إلى صاحبه وقال: "علينا أن نترك الجباشات ونختفي في أطراف الهور والمناطق المزروعة بالقصب الكثيف". وتمتم الشيخ: "كلنا، مع أطفالنا وزوجاتنا؟!". خوص جاسم بعينيه وقال بحزم: "أجل كلكم مع دجاجكم وأكياس قمحكم، وكل ما تستطيع المشاحيف حمله!". وأخذ الرجال يناقشون ذلك الأمر الخطير، والألم يعتصر قلوبهم!.

- 35 –

في ذلك الصباح الذي خضعت فيه قرية الجوابر للحكم العسكري المباشر، مُنِعَ الناس من إدارة موجات مذياعاتهم الصغيرة لتلتقط أنباء الثورة الإيرانية، وحُظر تجوالهم ليلاً في قريتهم، وأخذت الدوريات العسكرية تجوب دروب القرية وتحتجز كل من تصادفه في الطريق، وما أن حل صباح اليوم التالي وقد اكتملت القوائم عند المسجلين، وقفت سيارات حمل عسكرية وأخذوا ينتزعون الناس من صرائفهم، الرجال والنساء والأطفال، وسط العويل ومعارضة الرجال وصراخ النساء، والجنود يضربون من لا يمتثل لأمر الصعود إلى الشاحنات بأخماص البنادق على الظهور والرؤوس، وامتلأت الشاحنات بنصف أهل القرية، والناس بين مكذب ومصدق لما يحدث، فقد كان الأمر عشوائياً، وهناك عائلات انتزعوا منها الأب والأم وتركوا الأطفال يصرخون دون أن يهتم أحد لصراخهم، وهناك نساء تم اقتيادهن من دون رجالهن، وأطفال أجبروهم على الصعود وسط صرخات أمهاتهم وتوسلات آبائهم وتقبيلهم أيادي الجنود، وسط الدموع والصراخ، وحال مغادرة الشاحنات المحروسة جيداً بالجنود هرع الأقارب لتهدئة الأطفال الباكين والآباء المنكوبين والجدات الوحيدات والتربيت على رؤوس الأطفال المتروكين، ولا أحد يعلم ماذا يجري في ذلك اليوم المرير! انتُزعت عائلة ملا قنبر والحاج حسون وأودعوهم الشاحنات! وذهب السيد مهنا وبضعة رجال يبحثون عن المسؤول عن التخطيط لهذه المصيبة وصاحب هذه الأوامر الظالمة، فقادوهم إلى ضابط صغير قلق الحركات، يكاد الشرر أن يتطاير من عينيه، سلم عليه السيد مهنا والرجال، ولم يرد على تحياتهم، سألوه، ما الذي يجري لقريتهم، وإلى أين ينقلون الناس؟. فأجابهم أنه ينفذ أوامر عليا، وتنص تلك الأوامر على إعادة رعايا إيران إلى دولتهم، قالوا له إنهم عراقيون ولكنهم لم يستخرجوا البطاقة الوطنية الجديدة بسبب قلة الوعي والكسل! أجابهم أنه ينفذ أوامر الحكومة وكل من لا يمتلك الشهادة الجنسية العراقية فهو إيراني وينبغي ترحيله إلى الجانب الآخر من الحدود! ثم أخذ يشكك بتبعية الحاضرين وطلب منهم أوراقهم فأبرزوا له بطاقاتهم وشهادات جنسيتهم، فقال لهم أن يجلسوا في بيوتهم وأن لا يعترضوا على ما يحدث وإلا تعرضوا للسجن والترحيل إلى خارج البلاد، فالشيعة في نظره دخلاء على هذا البلد، ولقد أوصى الحزب الحاكم في جميع دورياته ومقرراته واجتماعاته السرية على هذا الأمر، قالوا له متوسلين: "إن من رحلوهم هم من الأقارب والإخوة!". قال لهم: "كل واحد مسؤول عن نفسه!". وقام واقفاً

فعرفوا أن المقابلة قد انتهت وعليهم الخروج كما دخلوا، فوجه هذا الضابط لا يقطعه السيف وقد أضمر الشر لأهل الجوابر!.

في ساعات حظر التجوال كان الناس في بيوتهم يسمعون الجنود وهم يكسرون أبواب البيوت التي هُجِر سكانُها ويقومون بنهب ما تحويه من أثاث وأفرشة ومصاغ وكل ما تقع عليه أيديهم، حتى الدجاج وشباك الصيد لم تسلم من سلبهم وتخريبهم!. نصف أهل الجوابر تم ترحيلهم، والنصف الآخر بقي محبوساً في البيوت يزدرد أحزانه ويتمتم بالأدعية ويتمنى إلى الله أن يفتك بالظالمين. كان الرجال يعبرون من بيت إلى آخر من خلال أسيجة القصب الواطئة، ليسألوا عن أقاربهم وأهلهم أو ليتحدثوا مع السيد مهنا الوحيد الذي بقي من وجوه القرية بعد أن رحلوا الشيخ جلال، الذي أقتادوه بلا رحمة من على وسادة مرضه وطرحوه في حوض الشاحنة الساخن ومعه زوجاته وأطفاله، وملا قنبر وعائلته وغافل الحسون وعاتي بن سلمان ومئات غيرهم، وبلغ برجال الجوابر الغضب أقصاه وتشاوروا لإخراج سلاحهم من أماكن دفنها ومقاومة الجيش الظالم! فمنعهم السيد مهنا، قال لهم: "علينا بالصبر لنعرف إلى ماذا سيؤول الأمر، واعلموا أنه لو قُتل واحد من جنودهم فإنهم سيبيدون أهل القرية عن بكرة أبيها، سيذبحون أبناءنا أمام عيوننا بلا رحمة، علينا بالصبر عسى الله يجعل لنا فرجاً قريباً!". وخرج الرجال من دار السيد مهنا عائدين إلى دورهم من فتحات الصرائف وشقوق الأسيجة تسبقهم في ذلك التسلل الدجاجات المقوقئة والجراء الصغيرة وهم يكزون على أسنانهم من القهر والغضب المكتوم، وســـأل مرتضى أباه بعد إنصراف الرجال:

ــ "لماذا يفعل الجنود بنا ذلك؟".

ــ "لأننا من الشيعة يا ولدي!".

ــ"وماذا يعني ذلك؟!".

ــ "نحن من شيعة الإمام علي عليه السلام، وتخاف الحكومة أن يحدث لها ما حدث في إيران!".

ــ "وماذا حدث في إيران يا أبي؟!"."ثورة كبيرة للشيعة استولوا بعدها على السلطة في البلاد وصار الإمام الخميني قائدا للبلاد!".

ــ "وأعمامنا وأهلنا لماذا أخذوهم بالسيارات؟"."زعموا أنهم من الإيرانيين وينبغي نقلهم إلى إيران!". "وهل هذا كذب؟"."أجل يا ولدي هذا كذب وافتراء، إنهم هنا آباءً وأجداداً وأجداد أجداد، هل تصدق أن عمك ملا قنبر إيراني؟".

"لا..".

وشملهما الصمت الحزين، ورأى الصبي دموع أبيه التي سفحت على خديه ولحيته البيضاء، فمسحها بطرف شماغه الأزرق(8).

- 36 –

في ذلك المساء الحزين حين نعق البوم في غابات القصب واختلجت أجنحة الحذاف في مشابك العنكر، ولبطت آخر بُنِيَةٍ حمراء في مزلق مرسى مشاحيف الدبن، ودارت سورات الماء في مدها الجديد، طاردة دوامات الماء الساخنة، حاملة العشب اليابس والغرين الأحمر وجذاذات طحالب وقواقع. سارت مشاحيف المعدان حاملة الأطفال والنساء والإزارات الصوفية الملونة وأكياس القمح الرطب وفالاتهم الصدئة وشباكهم ورياتهم الملفوفة برماناتها النحاسية. سارت تلك القافلة الطويلة بصدور مشاحيفها المطلية بالقار ووجوه الرجال البائسين وقد لفوا شماغاتهم حول أنصاف وجوههم السفلى، دون أن يتركوا مدخنة أو أثراً لحياة فقد حُملت القطط والديكة والكلاب والدجاج وأُجلست الحيوانات مع الأطفال عند نهاية المشاحيف وكانت العيون، كل العيون الخائفة، المتوجسة تحملق في ذلك المتسع المائي، الذي بدأت حدوده تغيب في ذلك الظلام المهاجر.

لم يكن ذلك الهروب من مواجهة الأخطار بلا وقائع تاريخية سابقة، فقد حدثهم أجدادهم وآباؤهم، إنهم في العشرينات من هذا القرن، حين وقفوا موقفاً عدائياً من الإنجليز الذين استعمروا البلاد، وقام المعدان بمهاجمة ثكنات جنود الإنجليز بالمكاوير والبنادق القديمة والفالات واستولوا على مدافعه ومسدساته وعتاده ورؤوس ماشية حية كان المستعمر قد استولى عليها من القرى المجاورة، وعادوا بتلك الغنائم الكثيرة إلى جباشاتهم، برياتهم الخفاقة وهوساتهم(9) وركز رجالهم ونسائهم، باغتتهم الطائرات الإنجليزية بعد ساعة وأحرقت صرائفهم وقتلت رجالهم، وعلت أدخنة مضيف آل خيون(10) الكبير، على صفحة الحماد من الجبابيش، وحملت مياه الأهوار جثث أطفالهم الممزقة وعباءات نسائهم ورجالهم الصوفية، المحترقة. تلك الشواهق المعلقة في السماء يومها أمطرتهم موتاً ورعباً لم يجربوه من قبل، ولأن الرجل أو المرأة من المعدان لا يُعمر في الحياة لأكثر من أربعين عاما ويموت بعدها واقفاً في زورقه وهو يصيد السمك، أو أثناء زرعه شتلات الرز في مياه الهور الضحلة، وتموت المعيدية وراء تنور خبزها أو في مخاض ولادة مستعصية أو بأمراض الهور التي لا يعرف أحد لها علاجاً، فلم يكن الموت حالة طارئة في حياة المعدان، بل كان حالة مألوفة تحدث كل يوم تقريباً، ولا يخافها أحد أو يحسب لها حساباً، لكنهم حين رأوا السماء الغاضبة وهي تمطر معدانها بذلك الويل الذي لا يُنسى، شعروا بالرعب الحقيقي من هذا الموت الضاج بالأصوات والحرائق، وكانوا يتساءلون كيف أمكن للإنجليز أن ينصبوا مدافعهم وبنادقهم في السماء بلا سلالم يصعدونها؟ أعادت كل ذلك الرعب للأجيال اللاحقة، وحكتها رباباتهم المعولة طيلة الوقت بين صفوف القصب وأشعارهم القديمة التي قيلت في المضايف المدخنة، وتناثرت كلماتها بين وهج المطال المحترق ورائحة القهوة الفائرة وإنصات الرجال المعقلين، الذين تعبق ثيابهم بزفرة السمك وطحالب الهور وأشناته!.

1- حذاء يصنع من الخشب القاسي.
2- دولاب الملابس.
3- مفردها مهفة مصنوعة من الخوص وتستعمل لتحريك الهواء.

4- مأمور مركز الشرطة.
5- الفالة أداة لصيد السمك، والمكوار عصا غليظة كالهراوة.
6- رداء يشبه الجبة.
7- جنوب بغداد وتبعد بـ 180 كلم وهي آخر مدينة جنوبية في الشمال.
8- يضع السيد الذي هو من نسل علي بن أبي طالب (ع) شماغاً أزرق على رأسه.
9- جمع هوسة، وهو كلام شعبي مقفى لإثارة الهمم.
10- أحد شيوخ المعدان في العشرينات.

الجزء السابع

- 37 –

حملت الشاحنات العسكرية المئات من أهل الجوابر المهجرين، وأنزلتهم عند الحدود وطلبوا منهم الذهاب صوب المدن الإيرانية مشياً على الأقدام، الرجال والنساء، الأطفال والشيوخ، وبقي الناس هناك دون مأوى أو طعام، وأسرعت إليهم شرطة إيران وأحاطتهم، مخافة أن يكون بينهم من مخابرات الدولة العراقية وجواسيسها! فأقامت لهم مكاناً ممهداً بين الصخور ووعدتهم بالخيم ومنعتهم من التجوال في المنطقة، وبقوا هناك سجناء يعدون على أصابعهم الأيام! يلتحفون السماء ويقتاتون العشب والأحجار، ويطلون على تلك الجبال البعيدة التي تبدو لهم كخرائط بيضاء وسوداء في ذلك الأفق، ملتحمة بالسماء الزرقاء، الناصعة. كانت أوامر الحكومة تذاع في قرية الجوابر بمكبرات الصوت في دروب القرية: "التجوال ليلا ممنوعاً، الالتحاق فوراً بدورات ثقافية تهيء حزبيين من أهل الجوابر للإنخراط في بنية كوادر الحزب الحاكم، تسليم أية قطعة سلاح، إستلام صور رئيس الجمهورية لتعليقها في البيوت وعلى الأبواب، الاكتفاء بالصلاة في البيوت وأن لا يقصد أحد الحسينية وكل من يتم ضبطه قريباً من الحسينية فسيتم اعتقاله، تقديم الشباب، الذين في سن الخدمة العسكرية أنفسهم إلى وحدات الجيش لغرض تجنيدهم!"، وتُختم تلك النداءات بأغنيات وطنية ودبكات(1) من شمال البلاد لتسلية الجنود، والناس لأول مرة في القرية أخذوا يحفظون كلمات فيروز وهي تردد: "القدس لنا، والبيت لنا!..". **كانت هناك سرية من الجنود بلحايا طويلة ورائحة زنخة يجوبون القرية ويضربون الناس بلا رحمة، وثارت الشائعات بين أهل القرية، إن هذه السرية من الرجال التي تستخدمها الحكومة لاضطهادهم قد جندت أفرادها من قبائل تسكن في شمال البلاد ومشهورة بعبادتها وتقاليدها الغريبة وتحريمهم للعن الشيطان ورجالها لا يتورعون عن ذبح الناس وشرب دمائهم بلا رحمة، وتهديم المساجد بلا تأنيب ضمير وخوف من أنتقام الله!. أعطى رجال القرية الأذن الطرشاء لبلاغات الجيش، فلم يذهب أحد لدورة التنظيم الحزبية، كما أن صور رئيس الجمهورية المطبوعة بالألوان بقيت مصفوفة على مناضد العسكريين دون أن يستلمها أحد من الأهالي، وأما الفقرة الخاصة بتقديم الشباب أنفسهم للتجنيد في جيش الحكومة، فلم يتقدم أحد من أهل الجوابر للتجنيد! مما أضطر الضابط إلى إرسال مفارز كثيرة العدد من سرية قوات خاصة، للقبض على من هم في سن العسكرية، وشن الجنود حملة كبيرة وتم ربط المقبوض عليهم بالحبال وإرسالهم مجموعات في شاحنات مكشوفة تحت الحراسة إلى مكان مجهول يتبعهم آباؤهم وأمهاتهم الباكيات وأطفالهن يمسكون بتلابيب ثيابهن ويختلط مخاطهم بدموعهم برمد عيونهم! وتغيرت معالم القرية يوماً بعد يوم في ظل هذا البلاء الذي حط عليها، وفي ساعات النهار، التي يُسمح فيها للناس بالتجوال وقضاء حاجاتهم، يجلس**

الشيوخ مجموعات صغيرة، قرب أسيجة الصرائف الواطئة للتباحث في الأمور المستجدة وطلب الرأي فيما يفعلونه! ودارت الإشاعات على ألسنة الناس في تلك المجالس عن سريين من أبناء القرية ذاتها، يستخدمهم الجيش لمعرفة أخبار القرية وما يبيت أهلها من أمور تمس أمن الدولة وأحاديث يتداولونها بينهم، ولغط الناس بأسم شرهان القاطع، أبن قريتهم وأقسموا أنه أول من تعاون مع الجيش وأفشى أسرار القرية للحكومة وأرشدهم إلى الأمكنة التي دفنوا فيها السلاح!. وحقيقة الأمر إن شرهان القاطع هو أول من طلبوا منه تأسيس فرع لحزب الحكومة في القرية، وأعطوه مالاً لبناء صريفة لتكون مقراً مؤقتاً لفرع الحزب وصوراً لرئيس الدولة مع حزم من كتيبات صغيرة لخطب الرئيس عليها صورة رئيس الجمهورية، بلباسه العسكري الضيق، الذي امتلأ صدره بالأوسمة والنياشين والنجمات الذهبية، وخلفه كوكبة من رجال الأمن والمخابرات بنظاراتهم السوداء وملابسهم المعتمة! ومع ذلك كله أعطوه بذلة عسكرية المظهر، بلا رتب أو مداليات، ماعدا صورة صغيرة للرئيس مغلفة بورق السوليفان اللماع يعلقها على صدره وكاسكيتة صغيرة يضعها على رأسه، وخلال يومين تمت إقامة الصريفة ووضعت المنضدة الخشبية داخلها، وصفّت الكتب وصور رئيس الجمهورية، لكن لم يقترب أحد من أهل الجوابر لتسجيل أسمه في فرع الحزب الجديد! وراح شرهان القاطع يدور داخل الصريفة أو يقف عند بابها، مرتدياً بذلته الزيتونية الجديدة وقد وضع الكاسكيتة على رأسه في وضع متحد لأهل قريته، ناظراً إليهم من فوق إلى أسفل ومن أسفل إلى فوق!. وخلال الأيام الأولى من البحث عن شباب القرية، الذين هم بسن الخدمة العسكرية، بدأ الشباب باستخراج السلاح المدفون تحت الأرض والخروج من القرية ليلاً عبر ممرات وطرق غير محروسة من الجنود والذهاب صوب الهور حيث الملجأ الأمين لكل من فر من أهل المدن والقرى، وفي إحدى الليالي اكتشف الجنود مجموعة من شباب القرية على وشك الفرار إلى خارج القرية فحصل تبادل إطلاق نار بين الطرفين وقُتل في تلك المواجهة أحد جنود السرية، وقبضوا على المجموعة بعد تمشيط طويل للمزارع والسواقي وأرسلوهم مخفورين إلى العاصمة. وبعد تلك الحادثة بشهر واحد ودون إنذار سابق أقاموا سبع مشانق عند نهاية القرية وأتوا بالشباب من العاصمة وقد عصبوا عيونهم وطلب الجنود من الناس بمكبرات الصوت أن يحضروا ليروا إعدام المجرمين، وأخذت النساء تصرخ والرجال يتراكضون حفاة لمعرفة مصير أولادهم وأختلط الحابل بالنابل، ولم يتعرف الناس على الشباب السبعة، الذين غطوا رؤوسهم بأكياس من قماش حمراء ووضعوا على صدورهم يافطات خشبية حملت أسماءهم وأعمارهم وتاريخ محاكمتهم وجريمتهم: الهروب من الجيش ورفع السلاح بوجه الحكومة!. وأزاحوا البراميل الصغيرة من تحت أقدامهم، فتأرجحوا في الهواء وانتفضت الأجساد الشابة مرات عديدة قبل أن تخمد حركتها إلى الأبد، وتدافعت النساء مع الجنود المسلحين، الذين كانوا يقفون بصفوف عديدة لمنع الناس من الاقتراب من المعدومين، وتعالى عويل الرجال، ورفع الشيوخ رؤوسهم إلى السماء طالبين من الله أن يبعث الإمام من موته لينتقم من الظالمين، وظهر شرهان القاطع بملابسه الزيتونية وبيده بندقية كلاشنكوف وإلى جواره أبنه الشاب سامي وهو يقول للناس أن الخطأ هو خطأ الشباب السبعة، لأنهم رفعوا السلاح بوجه حكومة الثورة وحزبها القائد ؛ وقتلوا أحد الجنود وكان الناس في غاية الحزن

والقهر، وحالما ذهب الجنود هرع الناس للجثث المعلقة وقطعوا الحبال وأنزلوا الميتين وأزالوا الأكياس الحمراء عن الوجوه الحبيبة، وكلما اكتشفت مجموعة من الناس ابناً لها تعالت الصرخات وشقت النساء ثيابهن وأهالن التراب فوق رؤوسهن وحملوا الجثث إلى صريفة سجاد الغسال، لغرض تغسيلها وتشييعها إلى النجف لدفنها هناك!..

- 38 –

بعد خمسة عشر يوماً من هجر المعدان لجباشاتهم والبقاء في العراء، في موسم الفيضان وقد ارتفعت مناسيب مياه الهور بشكل لم يألفوه من قبل، كانوا يقضون ليلهم على الإيشانات الصخرية البارزة كجزر صغيرة في الأهوار، وعند الفجر يتركون تلك الجزر الصخرية ويختفون مع مشاحيفهم، بين غابات القصب والبردي، ونفد ما لديهم من سكر وشاي، فاكتفوا بمص قصب السكر(2) الذي وجدوه نامياً إلى جانب واحدة من الجزر الحجرية، ومات عدد كبير من أطفال المعدان الرضع، فدفنوهم كيفما اتفق في أرض الإشانات المختلفة ووضعوا الأحجار الصغيرة على القبور كعلامات يتعرفونها. كان البرد الليلي يفتك بالأطفال الضعفاء، وساءت حالة الجميع مما اضطر شيخ المعدان للتفكير جديا بالعودة إلى صرائفهم التي تركوها في الدبن، فأرسل الشيخ عدداً من المعدان لاستطلاع أمكنتهم السابقة، وعادت العيون التي أرسلها الشيخ بأخبار مفرحة، أخبروه إن الجيش لم يقصد جباشاتهم، ولم تحوم الطائرات في سماء مناطقهم، والهدوء يخيم على المنطقة. كان في ذلك المساء، الذي نصبوا فيه خيامهم الصوفية في ذلك الإيشان البعيد الممتلئ بالصخور ونباتات العاقول الشوكية وتحيطه المياه إحاطة تامة، وأخذت الديكة التي أتعبها الجلوس طيلة النهار في المشاحيف تطارد الدجاجات بين الصخور، وجلس الشيخ بين زوجاته الثلاث بملابسهن السود وعباءاتهن الصوفية وهن يتعاون بفتح بطون أسماك صادها عبيد الشيخ في النهار، وعلى امتداد الإيشان أنتشر المعدان يشعلون النار في الأعشاب اليابسة التي جمعوها استعدادا لشي خبزهم للعشاء، وهي وجبتهم الثانية بعد الفطور، الذي تناولوه عند الفجر، وانتظم أطفال المعدان يلعبون بالكعاب(3)، التي أحضروها معهم من الدبن في أكياس من القماش والحصى، عند ضفاف الإيشان، ومن خلف تلك الصخرة الكبيرة التي لها شكل طائر وأستتر خلفها الشيخ ونساؤه، جاء جاسم يبحث عنه وقد نمت لحيته وتبقعت ملابسه بخرائط الملح وبقع الدهون، وأصبحت رائحته تزكم الأنوف، جلس قرب الشيخ، وتلفلفت نساء الشيخ بعباءاتهن الصوفية استحياءً، وسأل الشيخ عن الأخبار، فقال الشيخ وهو يأخذ نفساً عميقاً من سجارة اللف التي كان يُدخنها: "سيموت الناس يا جويسم.. يومياً يموت طفلان أو ثلاثة، البرد في الليل لا يحتمله الكبار، فكيف بالأطفال؟ والفيضان هذه السنة بلاء وليس ماءً، مصالحنا وأرزاقنا تركناها هناك وأصبحنا مثل الغجر!". أطرق جاسم برأسه وهو يرى جاموسة سوداء تحلبها وصيفة الشيخ، والأسماك الكبيرة مفتوحة البطون، التي تعدها النساء والنار التي نجحت واحدة منهن بإشعالها على بعد خطوات منهما، وذلك الخيط البشري على طول الإيشان والحرائق الصغيرة والأدخنة المتصاعدة ولغط الرجال، قال جاسم:

ــ "وماذا قال الرجال الذين أرسلتهم إلى الدبن؟".
ــ "لا شيء.. لم تأت الحكومة، وليس في نيتها الانتقام منا!".
رفع رأسه إلى الشيخ وبإنكسار قال: "وما رأيك أنت؟". رمى حجارة صغيرة كانت بيده وقال: "أهلنا يموتون هنا ولم نألف عيشة الترحال، سنعود إلى ديارنا يا جويسم والله يفعل ما يشاء!".
كان ذلك آخر مساء للمعدان في ذلك الخلاء الموحش، وعند الفجر سيشدون رحالهم وتنسرب مشاحيفهم وجواميسهم في ممرات البردي والمياه الضحلة عائدين إلى قرية الدبن التي هجروها!..

- 39 –

في ذلك المساء الذي انفضت فيه المعازي السبعة التي أُقيمت على أرواح الذين أعدمهم الجيش شنقاً من شباب القرية، تناقل الرجال توجيهات السيد مهنا بضرورة تلاوة دعاء السجاد عليه السلام في صرائف القرية، بصوت عال، ويقوم بتلك التلاوة الرجال والشباب والصبيان، بعد صلاة العشاء مباشرة، وضجت القرية ذلك المساء بالدعاء إلى الله لرفع البلاء عنهم، وصدحت الحناجر، قائلة بصوت مؤثر:
ــ "إلهي: هديتني فلهوت، ووعظت ففسوتُ وأبليت الجميل فعصيتُ ثم عرفتُ ما أصدَرْتَ إذْ عرفتنيه. فاستغفرتُ.. فأَقَلْتَ!.. فعُدْتُ فسترتَ! فلك إلهي الحمدُ. تقحمتُ أودية الهلاك. وحللتُ شعاب تلفٍ تعرضتُ فيها لسطواتك وبحلُولها عقوباتِك. ووسيلتي إليك التوحيد وذريعتي أني لم أشرك بك شيئاً، ولم أتخذ معك إلهاً، وقد فررت إليك بنفسي.. وإليك مفر المسيء ومفزعُ المضيع لحظ نفسه الملتجئ.. فكم من عدو انتضى علي سيف عداوته، وشحذ لي ظبة مُديته، وأرهف لي شبا حده، وداف لي قواتل سمومه، وسدد نحوي صوائب سهامه، ولم تنم عني عين حراسته وأضمر أنْ يسومني المكروه، ويُجرعني زعاف مرارته.
هذا مقامُ من اعترف بسبوغ النعم وقابلها بالتقصير، وشهد على نفسه بالتضييع، اللهم فإني أتقربُ إليك بالمحمدية الرفيعة، والعلوية البيضاء وأتوجه إليك بهما أن تعيذنا من شر هذه الجيوش الظالمة المحيطة بقريتنا، وأن تطيح بها مثلما أطحت بالفراعنة والظالمين. فإن ذلك لا يضيقُ عليك وجُدك، ويتكادك في قُدرتك وأنت على كل شيء قدير. فهب لي يا إلهي من رحمتك ودوام توفيقك ما أتخذه سُلَّما أعرج به إلى رضوانك، وآمنُ به من عقابك يا أرحم الراحمين!"(4).

منذ أول صوت صرخ بالدعاء خرج شرهان القاطع وهو الذي يعتبر نفسه المسؤول الأول عن أمن القرية، ركض كالمجنون بثوبه الواسع، الرمادي اللون ورأسه المكشوف من الغطاء وأخذ يدور في القرية ويطرق الأبواب لمنع الناس من ترديد كلمات الدعاء، كان ينعتهم بالمجانين والجهلة وأن الجيش سيذبحهم فرداً فرداً إن سمع الجنود أحداً يردد هذا الدعاء الذي منعته الحكومة منذ أمد بعيد! كان كالمجنون يسير في دروب القرية ليمنع ذلك الدعاء، الذي يمزق الصمت، حتى إن الجنود الذين كانوا يأخذون قصعتهم المسائية من مطبخ السرية تساءلوا: "ما الذي حذا بمجانين الشيعة هؤلاء حتى يغنون بأصوات موحدة ذلك النشيد الغريب، في هذا المساء الهادئ، وبعد انفضاض معازيهم على المشنوقين؟!".

- 40 –

في ذلك الربيع تعرضت المدن لحملة شرسة وواسعة من التمشيط في صفوف الشعب، للبحث عن المعارضين للحكومة من الأحزاب والشخصيات الوطنية، التي رفضت التعاون مع الحزب الحاكم، وكان القانون الذي سنته الحكومة واضحاً لا لبس في ولا رأفة: كل من أنتمى لغير الحزب الحاكم، أو انخرط في مجموعة أو تكتل، يُعدم فوراً، وأُعطيت صلاحيات التنفيذ لأبسط جندي أو رجل أمن أو حزبي وتتابعت الإعدامات في المدن والقصبات والنواحي، وفر المعارضون إلى الصحراء والأماكن غير المأهولة، ولم يكن أمام القيادة المركزية للشيوعيين غير الفرار إلى الهور بغية تنظيم المقاومة المسلحة من هناك لتنطلق بعد ذلك إلى المدن ؛ وبالفعل نقلوا مطبعتهم الصغيرة وأعضاءهم وحاجاتهم إلى ركن بعيد من أطراف الهور، استعداداً لإجراء الاتصالات بالمعدان وأهل الريف للشروع في النضال المسلح ضد الدكتاتورية! وكاد خيط الاتصال أن ينقطع بجاسم العطية، لكنه اهتدى إليهم، وعلى صفحة المياه المترقرقة، عانق جاسم رفاقه، لم يكن يعرف اللجنة المركزية، لكنه بسبب موقعه الجديد الذي انتزعه بفعل معرفته بمنطقة الأهوار واعتماد الرفاق عليه وجعله همزة الوصل مع شيخ المعدان، لمحاولة كسبه إلى قضية العمال والفلاحين، فوعدهم خيراً، لكنه أبلغهم أن الوقت غير مناسب لمفاتحة شيخ المعدان بالانضواء في صفوف حزبهم! وقفل راجعاً إلى قرية الدبن، وأخذ يفكر كيف يستطيع أن يكسب شيخ المعدان إلى جانبهم، ورفس عاقول المعيدي بقدمه ليزيد من سرعة جذفه ليصلا إلى قرية الدبن قبل أن يحل المساء فتفوتهم فرصة العشاء مع الشيخ والحديث معه عن الأمر الجديد!..

لم يتوقف الوعظ والإرشاد الديني في قرية الجوابر، بل أزداد نشاط السيد مهنا، صحيح أن الجيش منعهم من إرتياد الحسينية وأقفلوا بابها بقفل كبير وقبل ذلك صادروا محتوياتها، لكن أهل القرية جعلوا بيوتهم وقت العصر أمكنة لقراءات السيد مهنا الحسينية وتذكيرهم بدينهم أما في المساء حيث يسري حظر التجوال، فكان الناس يتزاورون من خلال الأسيجة المفتوحة من دار إلى دار ومن كوة في الجدار إلى أخرى مع أطفالهم وقططهم وكلابهم التي تسبقهم راكضة، ودوريات الجيش تسمع اللغط الليلي والكلام والنحيب ونباح الكلاب ووقع الأقدام ولطم الصدور، لكنها لا ترى أحداً في دروب القرية، كما أن إدارة مدرسة قرية الجوابر في جو الإرهاب الحكومي وهيمنة الجيش على القرية تشجعت وأعادت الفصول المتروكة من كتاب التاريخ والتي تتحدث عن الخلفاء الثلاث في عهد الخلفاء الراشدين وأكاذيب أخرى ملفقة عن ثورة الحسين(ع) واستشهاده، وكان السيد مهنا في آخر مجلس وعظ له، قال للناس المحتشدين حول كرسيه المغطى بالقماش الأخضر:

ــ "حُكي عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال كتاب الله على أربعة أشياء، العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء! وقد سُئل جعفر الصادق عليه السلام عن "بسم الله الرحمان الرحيم" فقال الباء بهاء الله، والسين سناؤه والميم مجده، والله إله كل شيء، الرحيم بالمؤمنين خاصة. وقال في قوله "الله" إنه اسم تام لأنه أربعة أحرف، الألف وهو عمود التوحيد، واللام الأول لوح الفهم، واللام الثاني لوح النبوة، والهاء النهاية في الإشارة، و"الله" هو اسم الفرد المتفرد، لا يضاف إلى شيء، بل تضاف الأشياء كلها إليه، وتفسيره: المعبود الذي هو إله الخلق، منزه عن كل درك لمائيته، والإحاطة بكيفيته وهو المستور عن الأبصار والأفهام والمحتجب بجلاله عن الإدراك "(5). ثم عرج في خطبته على وضع الشيعة في العالم، ولماذا تستهدفهم الحكومات الظالمة منذ قديم الزمان، وقال إن ثورة الحسين عليه السلام فتحت الأبواب للناس للوقوف بوجوه الظالمين من الحكام، وضربت المثال في التضحية، ورفعت عالياً مبدأ انتصار الدم على السيف في ثورات الشيعة العديدة! فكلما تضرج السيف بدماء الشهداء أقترب ذلك الظالم من نهايته وأخذ يعد أيامه، لأنه في يوم من الأيام ستخونه إرادته بقتل المزيد من الناس، وهذا المبدأ الثوري لا نجده في الطوائف الإسلامية الأخرى، مما جعل طائفة الشيعة عرضة للانتقام، وعرضت ولاءاتهم لريبة الحاكمين منذ قديم الزمان!. وفي لحظات الاستماع المشوبة بالسحر العميق، كان وادي ينظر في عيني السيد مهنا، كأنما يستشف إجابته إذا عرف أنه يريد أبنته زوجا وحبيبة، ولم يكن يعنيه في ذلك الخضم العنيف من المصائب المتلاحقة التي حلت على قرية الجوابر، سوى أنه محروم من رؤية من يحب، ومحرم عليه البوح بما يعتمل في صدره لأقرب المقربين له: حب مسكين، صامت، يتوالد في القلب ويكبر مثل موجات عديدة أحدثتها صخرة أُلقيت في بركة ساكنة! وفي ذلك الجلوس الطويل وهو يحدق بشفتي السيد مهنا كان يتساءل أيوافق لو سأله الزواج منها وهو العامي وهي من نسل

آل علي عليه السلام؟ وفي رأسه ترددت كلمات أغنية يرددها المطربون في أعراس قريتهم: "رماني واجاني ينشد سهمي وينه ؛"اجه يريد يتأكد وين طايح "لكَاه بكلبي، كَال الرمية زينة، "بس يا حيف شو بعدك ما طايح؟"(6).

وكان يهز رأسه، كأنما في حضرة المطرب لا في حضرة الواعظ، ودون أن يدري سفحت دموعه، فلف شماغه على رأسه ووجهه وأثناء ذلك مسح دموعه لئلا يراه الرجال باكياً، وقال في ذاته: "لن أبقى في هذه القرية الجاحدة، المُنتهكة، إن لم أفز بليلى، فماذا تعني الحياة لي بدونها؟ ستغدو أيام حياتي هروباً من الجندية وأكلا وخراء وسماعاً لمقاتل الأولياء وسبيهم، لا والله لن أبقى إن لم أفز بها!".

- 42 –

في تلك الأصائل حين كان جاسم ينسخ أشعار شيخ المعدان الشعبية على ورق أبيض، ويغير بعض الكلمات ليستقيم الوزن والمعنى وقد جاءت في رأس الشيخ، بالرغم من الظروف الصعبة التي يعيشها الجميع أن يطبع شعره في كتاب! وحاول جاسم أن يثنيه عن عزمه وأخبره أن تكاليف الطبع غالية، كما أن الطبع لا يتم إلا بموافقة الحكومة، لكن الشيخ أخبره أنه سيبيع كل ما لديه من جواميس ليطبع شعره الشعبي في كتاب، ومنذ تلك الليلة التي أمضاها في حجرة العاهرات محاصراً برجال الشرطة، وفقد بعدها فحولته الجنسية وصار لا يزور نساءه ليلاً وكلما فعل ذلك تركهن متعرقاً لا يستطيع أن يبرز فعلاً مفيداً، وكانت الواحدة منهن تلطم خديها، وتتهمه أنه ذهب في غفلة منها لواحدة من ضراتها ويقسم لها بأغلظ الأيمان وأرواح أجداده المعدان الذين ماتوا في سن مبكرة، إنه لم يزر أية واحدة من زوجاته أو طليقاته منذ ثلاثة شهور، وأنه في كل زيارة لواحدة من هذه الزوجات كان أخاً عزيزاً لكل واحدة منهن حتى يشقشق الفجر، وتصيح الديكة، واكتفى بزراعة اليأس والإحباط في فراشهن، وحين تطمئن الزوجة إلى صدق كلامه تعوّل بصوت خفيض، وتقول: "إنك أُصبت بعين حاسدة نجسة أو إنك قد رُبطت ولا سبيل لفك عقدتك بغير الذهاب إلى الصابئي السحار!. ذهبت فيما بعد زوجاته الثلاث في إحدى الصباحات إلى الصابئي بصحبة عمه، لخوف الشيخ من اصطحابهن إلى المدينة مخافة أن يكون مطلوباً بعد حادثته المعروفة في دار البغاء في البصرة، وعادت الزوجات من عند الصابئي بالكثير من التمائم والأدعية والتوصيات وأحرقن الكثير من البخور وجعلنه يستحم ببول الجواميس ويأكل في العشاء ذنب الأفعى، ويشرب في الفجر دم السلحفاة! لكن تلك الأساليب والمعالجات لم تفد معه، وبقي شيخ المعدان على حالته، فازداد شغفه بقول الشعر، إذ كان ينهض في الثالثة صباحاً من نومه ويبعث عبده ليأتي بجاسم من جباشته ليسجل على الورق أشعاراً جاءته في يقظته المعذبة! وبالرغم من معاناة العبد في إيقاظ جاسم من نومه إلا أن جاسم، الذي كان يجيء بعد ذلك إلى جباشة الشيخ، إنما يجيء تحت هاجس أن الشرطة قد داهمت المعدان وأنها تبحث عنه، وحين يتأكد من العبد أن لا شيء

من ذلك قد حدث، فيضع كفيه تحت رأسه ويكمل نومه في المشحوف، وما أن يسجل أشعار الشيخ الجديدة حتى ينام من جديد في مضيف الشيخ ولا يستيقظ إلا بعد أن يخنقه دخان المطال وتملأ صدره رائحة القهوة التي تعدها الوصيفة، وفي ذلك الأصيل حين اصطحب المسودات إلى جباشته ليعيد نقلها ويردد بعض مقاطعها لتقويم الوزن والقافية، وكان شيخ المعدان قد اختار عنواناً دالاً لديوانه هو "ليل ونوح"(7). وأخذ جاسم في وحدته يردد مقطعاً من قصيدة طويلة قالها الشيخ:

ــ "ليل وكاس وآه أتجرع "وأون ونة حزن تكتل واحس بجلاي تتكَــطع"وألوي بليل للدمعات"ما يخفن ولا يهدن"ولا فاد التوسل بعد ما ينفع"وأمد يدي ولك يا ليل "يمتى الغربت تطلع.."(8).

رفع طرفه بعد قراءة هذا المقطع إلى ماء الهور عبر كوة صريفته، فرأى عاقول في مشحوفه وفي ذات المشحوف امرأة ملفوفة بعباءة سوداء تجلس وظهرها إلى جباشته، وتساءل: "من تكون؟"، لم يعرف من هيَّ، وانحدر المشحوف باتجاهه وأصبح بعد ذلك في الحيز الذي لا يراه فيه من كوته، فهرع جاسم واقفاً وخرج بعد ذلك من صريفته، ليقف عند بابها، ولكم كانت دهشته كبيرة حين عرف أن المرأة التي لفت نفسها بالعباءة السوداء لم تكن غير بلقيس أبنة قرية الجوابر الهاربة، فشعر بقلبه يخفق عنيفاً ولا تستطيع قدماه أن تحملانه، وهمس بفرح: "كل هذه الفتنة، كلها مرة واحدة ستنير صريفته، إنها ضربة حظ موفقة رمتها الحياة في سلته، ولم يكن يتوقعها أبدا، أخيرا ضحكت لك يا جويسم الدنيا!".

1- جمع دبكة: نوع من أنواع الرقص في شمال عراق.
2- مساحات هائلة مزروعة في الأهوار بقصب السكر، جنوب العراق.
3- لعبة يلعبها أطفال الريف والهور في العراق ويستخدمون فيها مفاصل الحركة من الهياكل العظمية للجواميس والخراف والأبقار.
4- دعاء الإمام زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب(ع)، من تراث الشيعة المحفوظ.
5- يرد ما قاله وفسره الإمام جعفر الصادق في كثير من قراءات الواعظين من الشيعة وغيرهم في المجالس الحسينية في العراق
6- شعر شعبي دارج، ويعني:
أطلق عليَّ وأتى يسأل إن أصابني سهمه..
أتى يتأكد هل أصابني في مقتل
وحين وجد أن إصابتي في القلب.. قال لقد أصبته
ولكن كيف لم يسقط حتى هذه اللحظة؟..
7- صدر بعد ذلك بوقت طويل، ونسي الطباع أن يضع اسم المؤلف فاكتفى الشيخ بوضع اسمه من ختم كان يستعمله في قضايا العشيرة، وبقي القسم الأكبر من النسخ بغير اسم مؤلفه.
8- ليلى كأس خمر وترديد الآهات - أنيني يقتل وأحس بكليتي تتقطعان

أتلوى ليلا بالدموع - ولا يهدأ حزني أو تتوقف دموعي
ولم يفد توسلي وأمد يدي - وأصرخ يا ليل: متى تنتهي؟.

الجزء الثامن

- 43 –

أدخل جاسم العطية بلقيس إلى صريفته وهمس لعاقول أن لا يخبر أحداً بمجيئها، ونظر إليه عاقول بغباء وقال: "حتى الشيخ؟". أكد عليه أن لا يخبر أحداً بما في ذلك شيخ المعدان. جلست بلقيس وسط أكوام الملابس المرمية وأعقاب سجائر اللف، ونزعت نصف عباءتها عن رأسها وظهرها، فبدت في ذلك المكان الموحش مثل صورة حسناء نزلت للتو من إطار لوحة ملونة لغادة جميلة! دخل جاسم عليها وسألها عن سبب مجيئها وقد بدا عليه الإحراج والارتباك، لقد كان في لحظات وحدته يفكر فيها، يتمناها أن تكون قريبة منه لا في تلك المدينة الغادرة، قالت: "لم تزرني طيلة ثلاثة شهور، قلت في نفسي أزورك!".

ــ "وكيف وصلت إلى هنا؟". ضحكت ضحكة مجلجلة تعلمتها من زميلات مهنتها: "جئت بسيارة إلى الجبايش وسألت عنك، فطلع لي عاقول كالقرد وقال إنه يعرفك، وأركبني المشحوف وجاء بي إلى هنا لأراك ". ضحكت من جديد بصوتها الجهوري. أراد أن يضع كفه على فمها ليمنعها من الضحك العالي، وهمس: "الناس هنا أشراف يا بلقيس، سيقتلوننا معاً لو عرفوا وضعنا!". قالت متبرمة: "اعتقدت أنك سترحب بي!". قال جاسم: "مرحباً بك، ولكن الأمور هنا صعبة وغير آمنة، تخيلي لو شم أبوك خبراً عن وجودك هنا؟". "وهناك أصعب يا جويسم، لقد أغلقت الحكومة دورنا وقطعت أرزاقنا، وشتتنا في البلاد وفطومة القوادة وضعوها في السجن هي والبنات، أنا الوحيدة التي نجت من الاعتقال!. ضحك جاسم ساخراً وقال: "حتى القحاب ما نجت من شرور الحكومة!". ضحكت بلقيس وقالت: "لو رأيت القوادة العجوز والشرطي يضع القيود في يديها لمُت من الضحك، لقد خمشت وجوههم جميعا بأظافرها الباشطة كالسكاكين!". لم يضحك جاسم لضحكها وقال بحزن:

ــ "أنا معرض في كل لحظة للحبس، بل إنهم سيجعلوني هدفاً لبنادقهم ويطلقون النار!".

قالت متبرمة:

ــ "أنا لست إلا ضيفة عندك وسأبقى يوماً أو يومين وأعود!". "ولكن إلى أين ترجعين وداركم أغلقوها؟".

وشابت صوتها المرارة والحزن: "حتما سأجد أحداً من أهل الحلال يأويني ". صمت لحظات ثم قال:

ــ "هل أكلت؟".

ــ"على لحم بطني منذ الصباح!".

وقف في باب الصريفة وصاح على عاقول، كان المعيدي مشغولاً بلف سجارة:

ــ "اِذبح لنا اليوم دجاجة كبيرة!".

ورجع إلى بلقيس:

ــ"سنأكل أولاً ونتدبر أمرك فيما بعد!.. هل تجيدين الطبخ؟".

هزت رأسها إيجابا:

ــ "كنت أطبخ لصاحباتي".

ــ "شمري عن ذراعيك واطبخي لنا الغذاء!".

دخل عاقول إلى الصريفة الصغيرة التي أعدها جاسم لتكون مكاناً لطهي الطعام، وأخذ يبحث عن سكينة أو شيء حاد يذبح به الدجاجة التي كان يمسك بها من قدميها وهي تناضل بجناحيها مرفرفة للخلاص من قبضته، وعندما لم يجد شيئاً حاداً قطع رقبتها عضاً بأسنانه وتناثر دمها في فمه وعلى ثوبه الأسود!.

- 44 –

بعد شهور ستة من ترحيل نصف أهل الجوابر إلى إيران جاءت رسائلهم بواسطة لجان الصليب الأحمر الدولية وقد بُعثت أولا إلى جنيف ومن هناك أُرسلت إلى العراق، وقام بتسليم تلك الرسائل إلى المعنيين في القرية ضابط الوحدة العسكرية، المشرف على القرية بحضور مسؤول الحزب الحاكم شرهان القاطع، الذي كان يُذكر أصحاب الرسائل بأن الحزب الحاكم هو الذي سهل مهمة لجان الصليب الأحمر لأداء مهماتها الإنسانية، وأضاف أن عليهم أن يجيبوا عن تلك الرسائل دون أن يذكروا أحوال البلاد بشر وعليهم أن يشيدوا بالحزب الحاكم ورئيس الحكومة وأن تكون إجاباتهم عن الرسائل في ذات الأوراق وعلى ظهرها الفارغ ليتم تسليمها إلى لجنة الصليب الأحمر في العاصمة، وطلب منهم أن يهتفوا بملء حناجرهم بطول العمر لرئيس الجمهورية وحزبه المناضل وكانت ثمة كاميرا للتلفزيون تصور ذلك الحشد من الناس، وأخذ الناس الرسائل بأيدٍ مرتجفة كأنما يستلمون شيكات مالية بمبالغ كبيرة، وراحت الرسائل تُعرض على الذين يعرفون القراءة والكتابة في القرية. كان سلمان، الأخ الأكبر لكعيد البلام يوصي في رسالته أخاه: "أما من حيث البقرة المبقعة بالسواد في رقبتها، فأريد أن ترعاها

كما لو أنك ترعاني، وتكثر لها من العلف، ولا تدع عجلها يرضعها كثيراً، فهو شره للرضاع وأخاف أن يضعفها الرضاع الكثير، وهنا يقولون يا أخي إننا سنعود إلى العراق عما قريب بقوة الله. أوصيك أن لا تزيد في عذاب حماري بتحميله أكثر من طاقته واعلم يا أخي أن ثمة كسراً قديماً في ساقه اليمنى كانت قد عالجته امرأة أخيك قبل سنتين ولم يشفَ تماما من عرجه الخفيف، وعليك أن تجعله يتفادى المرور على القنطرة القريبة من أرض السيد مهنا، لأنه سيقع حتماً مرة ثانية في تلك الساقية، التي كانت سبباً في كسر قدمه القديم!".
وفي رسالة أخرى يوصي الحاج عبود زوجته الصغيرة التي رفضت الحكومة ترحيلها معه، لحيازتها على شهادة الجنسية العراقية: "حين يردك خطابي الأسود هذا، أكون قد أكملت أوراق طلاقك، وأوصيك بالزواج من أبن عمي سرحان، فهو شاب ويعمل في الأرض، ويستطيع أن يحميك ويعيلك ويربي أبننا الصغير، واعلمي أن لا ذنب لنا فيما حصل وهي إرادة الله أولاً وأخيراً، وهنا الناس يعاملوننا بالمعروف ويعطوننا الخبز كصدقة، ولست سعيداً هنا وأتذكر تلك الليالي التي كنا نقضيها معاً حتى يحل الفجر، ونحن نضحك من حماقات هلال المجنون ونمزح قبل أن يغلبنا النوم، قلبي أصبح جمرة متقدة لفراق الأهل والأعمام والأصحاب، ولشدة احتراق قلبي اكتوت الرسالة بهذه النار!". وظهرت على ورق الرسالة السميك الأصفر لسعات جمرة سجارة!. وفي رسالة أخرى تلقتها نرجس، المعتكفة منذ زمن طويل، وحملوا لها رسالتها من أبن عمها فرحان، التي كان يقول في إحدى مقاطعها: "يعلم الله يا أبنة عمي، إني لم أبح لأحد بما أقوله لك الآن، إني منذ زواجك وموت زوجك المرحوم في ليلة عرسه، لم تهدأ نفسي ولم يبرد قلبي، وكنت أقول لنفسي كيف طاوعك قلبك وأخفيت عشقك لابنة عمك؟ كيف سمحت للناس بأخذها منك وأنت كنت في كل ليلة لا تستطيع النوم والراحة إلا بعد أن تكرر أسمها مائة مرة قبل النوم، أقول لك في هذه الرسالة هنا الأحوال بائسة يا أبنة عمي ورغيف الخبز يباع بثمن كبير مقداره كرامتنا وعزة أنفسنا! وكلهم يقولون إنها أيام قليلة ونعود إلى العراق، وطننا، فاعلمي إنني حين أعود سأطلبك للزواج، فلم يعد في العمر بقية تساوي كل ما أشعر به من أسى!، حتى إذا اعترض الأهل وتعللوا بأنك أرملة ولا يصح للشاب أن يتزوج منها حتى ولو كان أبن عمها! لكنني سأفعل ذلك يقيناً ثابتاً لا أحيد عنه حتى لو ضحك كل أهل الجوابر مني وأسمعوني كلاماً جارحاً، وسخروا مني، فإنني سافعل ذلك!".

وكتب حسان لزوجته وأولاده وهو يرشدهم إلى مكان المال، الذي أخفاه في الدار ولم يستطع يوم التهجير فعل ذلك بسبب سرعتهم في نقله إلى الشاحنة، وعدم سماحهم له بالتحدث مع أحد: "إلى اليمين تسيرين عشر خطوات باتجاه زاوية الصريفة المجاورة لحظيرة البقر، تحفرين تحت الجدار الطيني مسافة ذراع لتجدي صرة تحوي مائتي دينار وذهب أمي يرحمها الله، والذهب عبارة عن قلادة من عيار واحد وعشرين، وأساور من الفضة وخاتم زواج وقرطين ذهبيين عيار ثمانية عشر والله على ما أكتب إليك شهيد!".

وفي رسالة محمد لعمه نوري: "وأعترف لك يا عمي العزيز أني أنا من قام بتسميم النعجتين وليس جارنا كما اعتقدتم، وقد كنت سبباً في ميتتهما المؤلمة، التي جعلت أهل بيتك، كلهم يبكون في ذلك اليوم الكئيب ويرتدون الملابس السوداء حزناً، ولا تنسى أنني طلبت منك

أن تشتري لي ثوباً جديدا بمناسبة عيد الأضحى لكنك بكل أسف رفضت ذلك بدعوى أنك لا تملك المال اللازم، وأنا أعرف والعائلة كلها تعرف أنك تضع مالك عند العم سوادي لأيام الشدة، وبالرغم من عملي عندك طوال العام ولم أتوانَ في رعي غنمك وبقرك، إلا أنك وللأسف بخلت علي بذلك الثوب الجديد الذي طلبته منك، فعمدتُ إلى فعلتي السوداء التي أطلب من الله ومنك ومن أفراد العائلة الكريمة الآن وأنا على هذا البعد الشاسع أن تسامحني، وتدعون الله لي أن يغفر ذنبي، فأنا لم أقترف غير هذا، فهنا يا عمي لا يدري الواحد منا متى وكيف يموت تحت هذا الجبل؟". وبالرغم من أجواء القرية الحزينة على شبابها إلا أن تلك الرسائل، الموشومة بعلامة الصليب الأحمر قد بددت بعض الحزن وجعلت الناس يتبادلون أخبار الأقارب التي وردتهم في الرسائل، وبذلك تكونت عند الجميع صورة شبه حقيقية عن الأهل المهجرين هناك عند سفح الجبل الإيراني وما يحصل لهم من عذاب!.

- 45 –

ما أن قرأت نرجس في معتكفها المظلم رسالة فرحان حتى ساحت دموعها، كان أبن عمها بمثابة أخ لها وقد ترعرع في البيت عندهم ويصغرها بسنتين أو ثلاثة، ولم تكن في يوم من الأيام تفكر أن يجيء اليوم، الذي يكون فرحان زوجاً لها، لكن أين هذا الحبيب الآن؟ وازداد بكاؤها وعلت شهقاتها، حاولت أمها أن تسكتها وتخفف عنها، بعد ذلك زمت الأم حاجبيها وأجهشت هي أيضا باكية، وأخذت تتناوبان العويل وترديد عبارات حزينة بين الحين والآخر: "يا فرحان ما فرحت بدنياك، يا فرحان فرقنا زماننا!..". وما أن سمعت الجارات أصوات البكاء حتى اجتمعن في بيت نرجس وجلسن في الباحة كأكوام من السواد والوجوه المعبأ نصفها بالشيلات، سافحات الدموع والمخاط والآهات، مولولات، شاكيات سوءات الزمان وظلمه!.

- 46 –

في ذلك الفجر، الذي أخذت تنبح فيه كلاب المعدان نباحاً عالياً متصلاً، وهي ترى ظلالها المتحركة في مياه الهور، وترى لبط الأسماك الضخمة وتقافز الضفادع، وتمايل قصب البردي الغض، الذي لم يكن موجوداً قبل شهر، وقد بدأت تتصاعد في الأفق الشرقي الأدخنة البيضاء من الجباشات المتفرقة وتتعالى شعلات النار من تنانير أوقدت لخبز الصباح، وأشباح ملفوفة بالسواد لنساء يقفن خلف تلك التنانير، والديكة تقف فوق المنصات الترابية التي يستخدمها الرجال في الجلوس مساءً لتبادل الأحاديث على أبسطة الصوف، المنقوشة بالقباب والأقواس. كان المعدان يعرفون بحكم خبرتهم أن نباح الكلاب المستمر يعني أن ثمة غريباً قادماً، وليس

الغريب فرداً، إنه مجموعة من الرجال، وليست مجموعة صغيرة من الرجال، لو كانت كذلك لاكتفى كلب أو كلبان من جباشتين أو ثلاث بالنباح المتقطع، أما حين يكون النباح بهذا الشكل المتصل، وعلى مساحة القرية فهذا يعني أن الغرباء قادمون بوفرة وكثافة!. استيقظ المعدان وخرجوا من تحت أغطيتهم، وجلسوا عند حافات الماء يلفون لفافات التبغ في ذلك الفجر وينظرون صوب ممرات القصب ينتظرون رؤية الوافدين، لكن شيخ المعدان بقي ممدداً فاتحاً عينيه على سعتهما في صريفة زوجته الصغيرة تحت الغطاء الصوفي ينظر في النور المتعرش على تعاريج أعمدة السقف ومسرى عروقها، وأخذ يتمتم بصوت واطيء: "اللهم اجعله خيراً لنا ولا تجعله شراً علينا!". وازداد نباح الكلاب وبدأ المعدان يميزون بأسماعهم المدربة أصوات محركات زوارق بخارية، وبدأوا يخمنون أن القادم بهذه الكثافة من أصوات المحركات هو من طرف الحكومة! وركض عبيد الشيخ ينبهونه ويستحثونه على الاستيقاظ، أخبرهم أنه مستيقظ منذ بداية نباح الكلاب، وقال لهم بلا مبالاة:

ــ "البلاء القادم لا يرفعه إلا الله وحده، ولن أُفيد بشيء حتى إذا تخليت عن غطائي!". واعتقد عبيده أنه لم يفهم الخطر على حقيقته، فاستحثوه من جديد وطلبوا منه أن يستيقظ، فطردهم، وقال:

ــ "اخرجوا الآن، وحين تستطيعون تمييز القادم أخبروني!".

وبدأ الناس في الدبن يميزون الزوارق القادمة وصرخوا بصوت واحد:

ــ"إنه زورق القائمقام، تتبعه زوارق الشرطة النهرية!".

وركض العبيد إلى الشيخ وأخبروه، فقال لهم:

ــ"لن يرفع البلاء إلا الله، استقبلوا القائمقام وأدخلوه المضيف وقدموا له القهوة حتى ألبس ملابسي!".

اقتربت عشرة زوارق من جباشة الشيخ وهي تحمل عدداً غفيراً من الجنود المدججين بالسلاح ووسط تلك الزوارق، زورق يرفع علم الدولة، صرخ عبيد الشيخ مرحبين بالقادمين وأيديهم ترتجف من الخوف وأمسكوا بحبال الزوارق ليربطوها إلى المرساة، وركض اثنان من العبيد لوضع القهوة على النار، ونزل من الزورق القائمقام أولاً، وقال: "أين شيخكم؟". وطلب منه سويجت أن يتفضل إلى داخل المضيف ليشرب قهوته.. نظر إلى سويجت متأففاً، ولحق به أربعة ضباط بنجومهم اللامعة، وعصيهم التي يلصف عليها الضوء في أكفهم المملوءة بالخواتم الذهبية. في ذلك الصباح الضاج بالجنود ورجال الحكومة أبلغه القائمقام أن الشيوعيين قد جاؤوا إلى الهور! وهم مجموعة من الملحدين، الذين لا يعبدون الله ويريدون أن يزعزعوا أمن الدولة والناس، وإنهم كالوباء إذا دخل منطقة أنتشر فيها ولا يفيد معها علاج غير الحرق! وقد أنزل مدير الأمن أمراً بإحراق المنطقة بكاملها لدرء خطر الوباء، لكن القائمقام طلب من مدير أمن المحافظة إعطاءه فرصة للكلام مع شيخ المعدان ليقبض على الفارين! ثم لمح القائمقام للشيخ أثناء حديثه عن ذلك الموضوع:

ــ "إن أغلب المعدان من أفراد عشيرته لم يلتحقوا لإداء الخدمة العسكرية ـوالتفت إلى شيخ المعدان ضاحكاً وقال له مازحاً ـ حتى أنت لم تؤدِّ الخدمة العسكرية! وعموماً.. "قال القائمقام" إني طلبت مهلة لكم، لمدة يوم واحد، أن تسلمونا الهاربين من الشيوعيين، وإن لم تفعلوا ذلك

بعد الأربع والعشرين ساعة، ستقوم الطائرات بحرق الأخضر واليابس هنا!.. وستقوم الحكومة بتسميم مياه الهور فتموتون مع دوابكم، فأنتم في حكم الهاربين من الخدمة العسكرية، والهارب من الخدمة العسكرية حسب القانون يُعدم كخائن للبلاد!.

وهنا ضحك شيخ المعدان ولمعت عيناه الخرزيتان وهو يخمن حجم المخاطر القادمة! وقال:

ــ "نقلت لنا صورة سوداء، يا قائمقام! نحن طوال عمرنا لم ندخل الجيش وتركنا الحماد لكم! وقلنا نهيم في الهور للتخفيف عنكم، ما ذنبنا إذا جاء هاربون ليختفوا في الهور؟!".

وهنا أخرج القائمقام مسبحته الطويلة، وقال مقاطعاً:

ــ"أنا واسطة خير لا أكثر، ها هم الضباط أصحاب الأمر والنهي، يسمعون!".

وفكر الشيخ أن القائمقام يذكره بفضل الهدايا التي كان يحملها له عبيده بين الحين والآخر، في الأعياد، وبأن تلك الهدايا جعلت القائمقام واسطة خير لا أكثر وليس طرفاً، فكر الشيخ قليلا، وقال:

ــ"مادام الأمر كذلك، أريد أن تعطوني وعداً وأنا أقبض لكم على الهاربين!".

تساءل القائمقام:

ــ "وما هو هذا الوعد؟". تنحنح شيخ المعدان: "إذا قبضنا على الهاربين، فقد قمنا بدور الجيش، هل هذا صحيح؟!".

أجاب القائمقام:

ــ "نعم!".

أبتسم الشيخ:

ــ "تعطونا ورقة تقولون فيها إننا خدمنا في الجيش وتسرحنا، وسنحافظ لكم على الأمن في الهور، دون الحاجة لخدمة شبابنا في الجيش!". فكر القائمقام، ثم قال:

ــ " هذا الأمر ليس بيدي، وهو من اختصاص وزارة الدفاع وأنا أتبع الإدارة المدنية!".

ثم أخذ يناقش الضباط، وأخذ النقاش يشتد بين القائمقام والضباط، وعلت الابتسامة وجه شيخ المعدان والتفت إلى أعمامه وأفراد عشيرته وغمز لهم بعينه، متباهياً أنه نقل الصراع بين أفراد الحكومة ذاتها، والتفت القائمقام بعد دقائق من النقاش إلى الشيخ:

ــ "هل تتعهد لنا بحماية أمن الهور؟".

وضع شيخ المعدان يده على صدره:

ــ "نقسم لكم يا حضرة القائمقام، ولكن شرط أن يكون لكل واحد من المعدان دفتر خدمته العسكرية، وتسريحه المؤشر والمختوم، ويذهب كل واحد منا إلى المدينة ويعود بأمن الله وحماية الحكومة!".

طلب القائمقام مهلة حتى يرجع ويتصل بمدير الأمن ووزارة الدفاع، وفي تلك اللحظة حمل عبيد الشيخ فطور الضباط والقائمقام: سبعة أسماك كبيرة، مفتوحة البطون، مشوية شياً ممتازاً وأقراص خبز ساخنة، وهمس شيخ المعدان للضباط بأن العبيد حملوا إلى الزوارق فطور الجنود وبعض الهدايا من أهل الهور يحملونها إلى أهلهم في المدينة!.

- 47 –

في ذلك الليل لم يُغمض لبلقيس وجاسم جفن، بقيا يتحدثان ويقبلان بعضهما طيلة الليل، وكلما خبت الرغبة عند أحدهما أثاره الآخر، في تلك الجباشة المنعزلة، وعلى ضوء شعلة النفط المدخنة. كانت أرض الصريفة مسرحاً لعناقهم المتواصل، الذي لا يفتر، كان أحدهما يأكل الآخر، وعلمته أثناء ذلك كل ما أتقنته من فنون مهنتها. كان يطلب منها أن تحكي له عما كان البحارة المهووسون يفعلونه بها حين يزورونها في ذلك المبغى النتن، وهي تروي له أدق التفاصيل بلا خجل، وكانت غيرته عليها تستحثه لفعل المزيد من الحب والعناق، وهي تتمتم من بين أسنانها المصطكة بفعل رجولته الفائقة: "إنك تقتلني هكذا، وتقتل نفسك!". وفي ذلك الليل الذي امتلأ برائحة اللوز وزفرة السمك، وروائح القصب المبتل، ونقيق الضفادع ولسع البعوض، ونار الحفيظ الحمراء، البعيدة تتأجج في الكوة مرتعشة، وقصص المومس البذيئة وشهقاتها، المتقطعة، المفتونة بابن العم الضال، زاحفة على ظهرها بكل رغبات الأنثى، فوق أرض الصريفة الطينية وفوقها فارسها مثل مشحوف أغرقه حمل ثقيل!. وقبل أن يغمضا عينيهما بعد سهاد طويل، جاء عاقول المعيدي صارخاً من وراء الصريفة، وهو لم يغادر مشحوفه، الذي أتى به على وجه السرعة قادماً من قرية الدبن: "الجيش وصل يا جويسم! الجيش وصل ". وأخذ جاسم يركض في الصريفة مرتبكاً، عارياً، باحثاً عن ملابسه ومسدسه، وعقدت الدهشة لسان بلقيس وأخذت تبحث عن ثوبها في ظلام الصريفة ورطوبتها!.

- 48 –

بدأت قرية الجوابر تستعد لمبايعة "مرتضى" أبن السيد مهنا، الذي بلغ الحلم، وهي سنته الثالثة عشرة، وهي العادة المعروفة في القرية لتولية السيد الشيعي مكان أبيه ويبقى أبوه عليه وصيًا يعلمه ما ينبغي أن يعرفه من مسائل شرعية تخص الطائفة، وفي تلك المرحلة من الوصاية يُطلق على الشاب الصغير اسم السيد الشيعي حتى وفاة والده، ليأخذ بعد ذلك دوره كاملاً، وفي تلك الحفلة التي يقلد فيها الشيعة ما روته الشيعة عن تولية القاسم أبن الحسن عليه السلام، في تلك الليلة المأساوية، التي سبقت واقعة الطف بليلة واحدة وتم زفافه الرمزي على سكينة بنت الحسين أبنة عمه، عليهما السلام، لابسًا جبة أبيه، معتمًا بعمته وسط الأهل والأنصار قبل قتلهم جميعاً بأربع وعشرين ساعة، تلك المناسبة الصغيرة، الأليمة، التي دارت فصولها على أرض كربلاء الصحراوية ووزعت أثناءها على الحاضرين كسرات خبز وفردات تمر وما تبقى من ماء قليل، وذلك البخور اليمني، الذي أشعلوه ففاض دخانه المعطر في خيمة القاسم، الإمام الجالس، تحيط بوجهه هالة من نور، ويحوطه أبناء عمه وإخوته. لقد اقتربت مناسبة مبايعة السيد الشيعي وسط أجواء من الرعب والخوف، فالمفارز العسكرية

تجوب الطرقات في القرية، والأحكام العسكرية الصارمة سارية المفعول، حتى إشعار آخر، وشباب القرية أُقتيدوا مكبلين بالحديد إلى السجون العسكرية في العاصمة، لقضاء محكومياتهم الطويلة بسبب تخلفهم عن إداء الخدمة العسكرية، ونصف أهل الجوابر قد وضعوا عند تخوم الجبل الإيراني، لا يعرف أحد مصيرهم، وقد أحاطتهم العساكر الإيرانية وهم في حال صعبة من الجوع والغربة، والبحث عن حل لمشاكلهم ومتعلقاتهم الإنسانية، والبقية الباقية من الشباب هجروا القرية إلى بقع نائية من الهور هاربين من إداء الخدمة في الجيش والخضوع لأوامر الحاكم العسكري في قريتهم!. وفي تلك البقع البعيدة كان الشباب يقتنصون رزقهم من أسماك النهر وطيوره، ويغيرون بين الحين والآخر على مقرات الشرطة، المنتشرة جنوبي مدينة العمارة والبصرة، للحصول على السلاح وبيعه للمعدان وأهل المدن والشراء بثمنه الدقيق والرز والسكر والشاي والثياب!. كان أهل الجوابر ينتظرون حدثاً جباراً يقلقل الواقع الظالم ويهزه هزاً عنيفاً. كانوا ينصتون لإذاعة إيران الإسلامية التي أخذت تبشر الشيعة بعصر جديد، إنه عصر الأئمة ونائب المهدي المنتظر، وانتشار الإسلام وحضور دولة الحق، وكانت الحكومة تلقي بتبعة كل الأعمال المسلحة على تخوم الهور على الدولة الإيرانية ومتسلليها إلى الأراضي العراقية! وعلى الجناح المتطرف من الشيوعيين، الذين نقلوا نشاطهم السياسي إلى أهوار الجنوب، وفي خضم تلك الأحداث الخطيرة كان الناس في قرية الجوابر من خلال الحجز الإجباري الذي فرضه عليهم الجيش فرضاً لا رحمة فيه كانوا يشمون رائحة حرب طاحنة ومدمرة بين إيران، التي حملت راية الحسين(ع)، الملطخة بدماء الشهداء والجيش العراقي الذي شُحنت رؤوس أفراده بأسوأ ما في مفردات القومية من تسلط وقمع وعنصرية بغيضة، وكان ذلك يحمل الشباب من الطائفة الشيعية على عدم الإنخراط في هذا الجيش، الذي كان يُنعت سراً بأنه جيش يزيد بن معاوية!، أما الذين أُجبروا على الانضواء تحت لواء هذا الجيش من الشيعة من سكان المدن فقد كانوا يتحينون الفرص للهروب منه والالتحاق بإخوانهم في الأهوار، ليكون مأواهم الأمين من هجومات الشرطة والجيش، لصعوبة مطاردة فرق الإعدام التي أنشأتها الحكومة وبثتها في المدن والقصبات والطرق المؤدية إلى النواحي لإعدام الفارين من الخدمة العسكرية بلا أخذ ولا رد أو نقاش!. تعين موعد تولية السيد الشيعي في قرية الجوابر وأخذ الناس يتناقلون سرًا الموعد، ويستعدون لهذه المناسبة في جو من التكتم والحذر، وكان شرهان القاطع، الذي نسي المناسبة يحاول أن يعرف على ماذا يتكتم أهل الجوابر، ولماذا اشتروا كل الكميات الموجودة في دكان كعيد البلام من القماش الأخضر والشموع وفكر إنها ربما كانت مناسبة أيام عاشوراء؟. لكنه طرد هذه الفكرة من رأسه لكون المناسبة مازالت بعيدة، لكنه لم يشر في تقريره الأسبوعي إلى منظمة الحزب الحكومية التابع لها إلى مخاوفه عما يحدث في قرية الجوابر هذه الأيام!.

الجزء التاسع

- 49 –

عندما وصل جاسم العطية إلى ديوان شيخ المعدان وجده منعقداً بكامل وجوه العشيرة وأركانها: أعمام الشيخ وأبناء عمومته ورؤساء الأفخاذ والأعضاء العاديين من أفراد العشيرة، والجو قد شُحن إلى أقصاه بدخان المطَّال ودخان لفافات التبغ ورائحة القهوة التي يوزعها العبيد على الجالسين! حين دخل جاسم على المجلس المنعقد منذ الصباح الباكر وقفوا له وسلم عليهم واحدًا واحدًا، وطلب منه الشيخ أن يجلس إلى جواره كعادته، وجلسوا وملأوا له فنجان قهوة أخذ يرشفها ببطء، قال الشيخ لأولاد عمه مكملاً حديثه السابق: "الهاربون جاءوا من المدينة، ولا علاقة لنا بهم ولا قرابة، وهي فرصة أن نحصل من الحكومة على دفاتر خدمة عسكرية لأولادنا، مؤشرة ومختومة، يسافرون بها إلى المدينة ويبيعون هناك حليبهم وقيمرهم وزبدهم بدلاً من إرسال بناتنا إلى هناك، أمورنا ستزدهر يا أولاد العم!"، وقاطعه أبن عمه، الذي ينافسه على مشيخة المعدان: "يا شيخ ماذا يقول أهل الحماد عنا لو فعلنا ذلك؟ لقد جاء الناس من المدينة يحتمون بنا فنسلمهم للحكومة؟ صحيح إنهم لم يقصدوا ديوانك ولم يرسلوا أحدهم ليطلب منك الجرش(1)، لكن مجيئهم إلى نواحينا يؤكد أمام الناس إنهم في حمايتنا!". شرب جاسم قهوته المرة، كان قد أفهمه عاقول ما دار في القرية من أمور منذ جاء إليه في الصباح الباكر، وكان يعرف أن الرؤوس المطلوبة في هذه الجلسة هي رؤوس رفاقه من الشيوعيين، الذي هجروا المدينة خوفاً، وجاؤوا إلى من يريد بيعهم إلى الحكومة، بثمن بخس، وفكر أنه فعل حسنًا بإرسال عاقول المعيدي إلى رفاقه لتبليغهم بأخبار الجيش الذي وصل قرية الدبن وأخبار تلك الصفقة التي عقدها شيخ المعدان مع القائمقام، ودار الحديث في المضيف حول الموضوع بين المعدان وتشعب، وازدادت حدة الشيخ وهو يدافع عن وجهة نظره، ورجعوا إلى أحد المعدان المسنين ليقول لهم رأيه بما يعنيه: "الجرش!"، وهل حالة أهل المدينة الفارين إلى الهور هي حالة طالبي الجرش؟، وهز الرجل المسن رأسه نافيًا، لكنه علق على ذلك قائلا: "إن سمعة المعدان ستزداد سوءًا على سوئها وتزداد ألسنة الكارهين والحاسدين للنيل منهم بقولهم إن المعدان لم يكتفوا بإرسال نسائهم وبناتهم لبيع القيمر والزبد والحليب في المدينة وإنهم أزادوا على ذلك رذيلة أخرى وهي تسليم الفارين اللائذين بحماهم إلى القائمقام ليذبحهم بلا رحمة!"، وتساءل المسن: "هل يستطيع المعدان بعد ذلك كله أن يتحملوا كل تلك الشتائم مرة واحدة وإلى الأبد؟ وهل سيكتفون

بالاستماع ودون أن يرد أحد على الشتائم، التي ستأكل وجوه الجميع!". وجلس السيد، الذي عاش مع المعدان محاولاً تعليمهم أصول الدين الإسلامي، لكنه كان دائم الشكوى من أنه لا يتمتع بذات المكانة التي يتمتع بها أصغر سيد في قرية من قرى الجنوب وأن دوره يقتصر بين المعدان على الوعظ خلال أيام عاشوراء وعقد الزيجات وكتابة أوراق الطلاق، ويعيش بفقر مدقع ولولا هبات الشيخ وما يحصل عليه من أجور عينية لعقد الزيجات والطلاقات وكتابة التعاويذ لطرد الحمى عن أطفال المعدان في أطراف الهور لمات جوعًا، وعلق السيد على ما دار أمامه من حديث سائلاً عن ديانة الهاربين ومذهبهم، وحين علم أنهم لا يعبدون الله، تعوذ من الشيطان الرجيم وقال: "علينا أن نحاربهم كما تُحارب الشياطين!". وابتسم جاسم من جهل السيد واشترك في الحوار محاولاً أن يوضح لهم صورة الدين عند الشيوعيين وأفهمهم أنهم ليسوا كما تصفهم الشائعات وكلهم أولاد ناس مهمين ويخافون الله وبعضهم يصوم ويصلي والقسم الآخر لا يصوم ولا يصلي، مثل المعدان وغيرهم من خلق الله! وسأله السيد وهو يزر بعينه السليمة، فقد كانت إحدى عينيه مطفأة وقد غطاها بالشماغ وبدت الأخرى السليمة منتفخة الأوداج من الأسفل والأعلى، عن الطريقة التي يمكن بها الفصل بين الشيوعي الصالح والطالح؟. فأخبره أنه لا يمكن ذلك حتى بين الناس المؤمنين ذاتهم! وهذه هي مشكلة معالجة موضوع الناس الهاربين إلى الهور بعجلة ودون روية، وتساءل بصوت عالٍ: "من نسلم إلى الحكومة ومن نحميه؟!". وهكذا أعاد جاسم الموضوع إلى حيز البحث من جديد، بطريقة أكثر تشابكاً وتعقيدًا، للخروج من هذه المعضلة برؤوس مرفوعة ودون أن يلحق العار بالمعدان، وعندما وصل الحوار إلى هذا الحد من الغموض همس شيخ المعدان بأذن جاسم يسأله إن تبقى عنده شيئ من الخمر، فقد نفدت كل الكمية التي عنده، فأخبره جاسم إنه يخفي في صريفته قنينة كاملة وسيرسل إليه بيد عاقول نصفها في المساء!.. وهنا قال الشيخ علينا اليوم في المساء أن ننتظر رد الحكومة فيما طلبناه منهم، وبعد ذلك نفعل ما يهدينا الله إلى فعله، وانفض الاجتماع!.

- 50 –

في ذلك الصباح وبعد إنفضاض اجتماع المعدان، اتجه صوب مشحوفه وقرر أن يذهب إلى رفاقه ليبلغهم ما تم عليه الأمر بين المعدان!. كان جاسم مهموماً بهذا الأمر يحرك المجذاف دون أن يعي ما يفعل، فكر برفاقه القدماء، الذين احتضنوه حين ذهب إلى المدينة أول مرة، وفي كل مكان التقى بهم اكتشف طيبتهم، ويتذكر أنهم جعلوا له راتبًا شهريًا يقيم به أوده حين طرده صاحب الخان(2) الذي عمل به حمالاً، وكانوا يصطحبونه إلى السينمات لرؤية الأفلام الروسية التي تُعرض بين الحين والآخر، وحين كانت الترجمة إلى العربية صعبة عليه ولا يستطيع متابعتها، كان الرفيق الذي يصحبه يقرأ له الترجمة العربية دون ملل، لم يكلفوه بأية أعمال في البداية، وكان رفيقه المسؤول في تلك الغرفة الوحيدة فوق سطوح الدكاكين التي

اكتراها مع ثلاثة من عمال البناء القادمين من الريف يقرأ له الكتب السياسية، والقصص ويفسر له ما يستغلق عليه فهمه، علموه كيف يغسل أسنانه بالفرشاة والمعجون بدل ملح الطعام الذي كان يستخدمه في القرية ويشعر بلثته تلتهب من جراء استخدامه الملح، وتنعم برائحة الصابون، وكان أصحابه يعرضون له صورًا جميلة عن موسكو الحلم، التي يعيش فيها العمال والفلاحون إخوة لا ينقصهم شيء! في شقق نظيفة وأثاث فاخر، وأفهموه أنه إذا تحسنت ظروف الحزب سيرسلونه إلى موسكو لإكمال تعليمه لفهم النظرية الماركسية، ولكن إنخراطه في العمل الحزبي بعد ذلك في المدينة ضيع عليه هذه الفرصة. كان يساهم بشكل فعال في توزيع المنشورات على العمال في المصانع، كان يضعها باحتراس بين الجرائد التي يبيعها ويدسها بأيدي العمال الشيوعيين ويتبادل معهم تلك النظرة الخاصة التي تعني أن ثمة خزيناً من الأخبار الجديدة الخاصة بالحزب!. تنهد جاسم العطية وهو يتذكر كل ذلك الحلم القديم، وأين هو الآن؟. وبعد كل هذه السنوات الطويلة يتحول جمعهم إلى عدد قليل من الرجال وامرأة واحدة يحاصرهم الهور من كل جانب ويبيعهم المعدان إلى ممثلي الحكومة!". وسقطت الدموع من عينيه وتوقف عن الجذف. مسح دموعه وعاود الجذف مرة أخرى بتصميم لا حدَّ له، للوصول قبل أن يكتمل الطوق حول هذه الشعلة المتبقية التي توشك أن تنطفئ!. حين وصل المشحوف بعد ساعة إلى الأرض المرتفعة المحاطة بمياه الهور، وجد رفاقه في حال سيئة من الإحباط والتعب، ونبتت لحاهم بغزارة ولوحت وجوههم الشمس واتسخت ملابسهم، كانوا جميعًا من أساتذة الجامعة والمتعلمين ولم يتعلموا الاعتناء بأنفسهم إذا أصبحوا خارج محيطهم، في البداية كانوا يتصرفون وكأنهم في سفرة سياحية، ويبذلون جهدهم للاعتناء بالسيدة الوحيدة معهم، وهي أستاذة في الجامعة آمنت بالفكر الماركسي ودافعت عنه في المقالات التي كتبتها والكتب التي طبعتها، وقد أقاموا خيمة الصوف على طرف المرتفع وتقاسموا العمل بينهم، وخصوصاً واجبات الحراسة في الليل والنهار، ورأى على وجوههم وأذرعهم آثار الغارات الكثيفة للبعوض الليلي، وبالرغم من تلك الغارات الهمجية التي أكلت لحم وجوههم بوحشية كانوا يتناقشون حول أبسط الأمور وأقلها أهمية، وكلما ازدادت ظروفهم صعوبة رجعوا إلى فكرة الكفاح المسلح التي جاءت بهم إلى الأهوار، وتكرر أسم جيفارا وفيدل كاسترو وماوتسي تونغ، وأشبعوا تلك الفكرة بحثاً وتحليلاً، وحين رأوا جاسم العطية قادمًا من قلب الهور، كانت الأستاذة تساهم في إعداد وجبة الصباح المتأخرة، وتعدد على الرفيق الذي يساعدها فوائد السمك للإنسان، وكانت السمكة التي تقلبها بكفها مسودة بفعل دخان العاقول والأغصان اليابسة من الشيح والقيصوم، والقصب، في الحفرة الصغيرة، التي استخدموها كموقد، توقفت حركة الرفاق وهرعوا إلى جاسم العطية، الذي أصبح نجم الحركة وبطلها في تلك الظروف الصعبة التي يمرون بها، ورأى جاسم مطبعة الحزب تحت الخيمة، وهي عبارة عن جهاز رونيو قديم يُدار باليد، لطبع منشورات الحزب، وتحلقوا حوله، كانوا قد عرفوا من عاقول المعيدي أخبارًا متناقضة ومتضاربة بسبب قدرته المحدودة على التعبير وقلة الكلمات التي يستخدمها وعدم معرفته بالمرادفات اللغوية وأسماء الأشياء، ويبقى صامتاً يتذكر خمس دقائق ليصوغ جملة مفيدة أو ليتذكر أسم القائمقام، أو يقول دفاتر الخدمة العسكرية، وحين أصبح جاسم بينهم روى لهم كل شيء ووضح لهم أبعاد

الصورة الكئيبة التي تحيط بهم من كل جانب، وانعقد مجلس الجماعة، المكون من ثلاثة قياديين من ضمنهم الدكتورة، التي طلبت من أحد رفاقها أن يهتم بأمر السمكة المحروقة ريثما تحضر الاجتماع، تناقشوا طويلاً وكانوا بين الحين والآخر يستفسرون من جاسم عن أمر يجهلونه من أمور الهور، أو عن منطقة قريبة، أو عن المؤثرات التي تؤثر في المعدان وتزيد حميتهم وعداءهم للحكومة، وكان جاسم يجيب مخلصًا عن كل أسئلتهم، وقد جلس على حجر كبير واضعًا يديه تحت حنكه، والشمس تتحرك في الأفق، وخلال النقاش عرف جاسم أن رفاقه لا يملكون سوى بندقية كلاشنكوف واحدة ومسدسين قديمين وعددًا محدودًا من الأعيرة النارية ؛ وتساءلت الدكتورة بألم: "هل يكفي ما يملكون من سلاح وعتاد لمواجهة المعدان أو الجيش؟".

وقاطعهم جاسم ساخرًا: "إن أصغر صبي في الهور يملك سلاحًا وعتادًا أكثر مما عندكم يا رفاق!". واستطردت الدكتورة دون أن تهتم بما قاله جاسم: "إن الثورة الشعبية المسلحة التي نحلم بها يا رفاق، من أجل هؤلاء المعدان، فكيف نقاتلهم إذا جاءوا شاهرين سلاحهم بوجوهنا؟ سنقع باخطاء بشعة أثناء تحويل النظرية إلى خطوات عمل ومنذ البداية، وكل الأحداث تؤشر هذه البداية الخاطئة!". واحتد النقاش بين الثلاثة وتشعب الحوار، ولم تنقطع الحوارات والنقاشات إلا حينما صاح الرفيق إن السمكة المشوية صارت جاهزة للأكل!.

- 51 –

اجتمع المدعوون منذ الصباح الباكر في دار السيد مهنا. كان الاحتفال في العادة يقام ليلاً، لكنه هذه المرة وبفعل حالة حظر التجوال أُقيم صباحًا بجو من التكتم والسرية، أرتدى الصبي الرداء الأخضر كعادة الأجداد، واعتم بعمامة سوداء ووضع على صدره شريطاً أصفر بلون الذهب بُطن داخله بخرقة قديمة يقال إنها من ثوب الحسين عليه السلام وعليها دمه، ويقال إنها خرقة قديمة متوارثة في رواية أخرى عن الإمام علي بن أبي طالب(ع)، ويقال إن من يضعها حول بدنه لا يتأثر بالنشاب ولا طعن الرماح ونطع السيوف بإذن الله وإكرامًا لآل البيت عليهم السلام، أما عن موت الأولياء قتلاً فذلك كان أمرًا مقدرًا من الخالق لا يرده راد، كما إنها لم تكن مصادفات وإغتيالات عشوائية كما يصورها التاريخ! وغُطي المنبر بقماش أبيض ووقف حاجبان على يمين ويسار السيد الشيعي يصلون على الرسول الكريم ويعددان أسماء الأئمة المعصومين الإثني عشر ويسلمون عليهم واحدًا واحدًا، وجلس أبوه قريبًا من المنبر وجلس وجوه قرية الجوابر على الأرض أسفل المنبر، وازدان البهو بالشموع وأدخنة محارق البخور والمسابح السوداء والترب النجفية، وعلى ناصية خشبية وضع القرآن الكريم، وما أن أُشعلت الشموع حتى بدأت مراسيم تولية السيد الشيعي مكانته، فقرأ السيد مهنا شهادة الإسلام، وأكد على وحدانية الله وقداسة الرسل والأنبياء، وسلم على كليم الله النبي موسى، وفاض الدمع من عينيه وهو يسلم على آية الله المسيح عيسى وأمه مريم، وقال في سلامه

المؤثر: "أسلم عليك يا من كنت وما زلت روح الله وآيته، قد جاهدت في نشر كلمة الله في الأرض، لكنهم منعوك وحاربوك ولكنك ستعود في يوم من الأيام وتظهر نصيرًا للمهدي المنتظر وستكون وزيره وصاحبه، لتملآن مع المؤمنين الأرض عدلاً وحبًا بعدما امتلأت جورًا وعذابًا، ثم صلى وسلم على الرسول الكريم، والأئمة الأطهار، ثم قال موجهًا الخطاب للسيد الشيعي الصغير: "قُلْ أنا من شيعة الإمام علي بن أبي طالب، كما فعل سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر!"(3). فقال الصبي ذلك، وردد الأب من جديد: "لست رافضيًا ولا زيديًا ولا كيسانيًا ولا مرجئيًا ولا مارقيًا ولا قدريًا.."(4).
فردد ذلك بعده، قال السيد مهنا: "قال رسول الله(ص): أتاني مَلَكٌ فقال يا محمد إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: قد زوجت فاطمة من علي، فزوجها منه، وقد أمرت شجرة طوبى أن تحمل الدر والمرجان واليواقيت، وأن أهل السماء قد فرحوا بذلك، وسيولد لهما ولدان، سيدا شباب أهل الجنة، وبهما يتزين أهل الجنة فأبشر يا محمد فإنك خير الأولين والآخرين!".
وما أن أتم السيد الشيعي ترديد ما قاله الأب في ورقة يحملها بيده، طلب الأب من الجالسين والسيد الشيعي ترديد الذي سيتلوه عليهم، وتنحنح، ثم قال بصوت عال منغم: "الحمد لله مبدع ما تحرك وسكن، ومبدئ ما ظهر وما بطن، الذي إذا الوهم فيه أمعن، وبلغ آخرما استطاع وأمكن، رده العجز إلى أول مراحله أسيرًا وتعالى الله عنه علوًا كبيرًا ".
وردد الجمع وراءه، وما أن فرغوا قرأ من جديد ورددوا بعده بصوت واحد فيه عذوبة الإيمان ودفق المشاعر وطلب منهم الاستماع والفهم والتوقف عن الترديد، وقال خطيبًا: "أحمده حمد من انخفض فارتفع، ولو طار لوقع وعجز فأدرك ولو تحرك لأشرك، وأحجم فملك ولو أقدم لهلك، لأنه الله تعالى الذي لا يدركه من لا تدركه الأبصار، ولا يحصره من لا تحصره الأفكار، فسبحان الذي دون تناوله للأفكار أستار والاقدام الأوهام ذلك وعثار، وصلى الله على المصطفى محمد خير من قام بدينه كافلاً، ولأعباء ملكوته حاملاً، ليحق حقًا ويبطل باطلاً وعلي وصيه الذي كان بمنزلة هارون من موسى نازلاً، علي بن أبي طالب(ع) خير من مشى بين السماطيين للأقران منازلاً، وسلام عليه وعلى الأئمة الطاهرين من ذريته سلاماً تامًا كاملاً، وكان قرئ عليكم من معنى قول أمير المؤمنين(ع) وغلو من غلا فيه، وقولهم ما قال النصارى في المسيح ما سمعتموه وأورد عليكم في حل مشكل الخبر المأثور عنه، ما عرفتموه، وأولياء الله الظاهرون متنزهون عن إفك الغالين فيهم والمتجاوزين بهم لحدهم، بريئون إلى الله سبحانه من شر ما يأفكون، وإنهم لفي سبل طاعته وعبوديته سالكون، ولما كان علي(ع) مسيح هذه الأمة بما شبهه النبي(ص) به، اعترضت فيه عوارض هذه الشبهة، فقد قيل في المسيح إنما سمي مسيحًا لكونه ممسوحًا بكلمة الله، وقيل كان ممسوحًا بماء نهر الأردن، وقيل كان ممسوحًا بالدهن، وعلى هذه النسبة فقد كان علي(ع) مسيحًا لكونه ممسوحًا بكلمة الله، ما مسه دنس الجاهلية، أمن برسول الله وهو طفل، وكان يصلي بصلاته ويتنسك بنسكه، وكما أن المسيح ابن مريم أوتي الكلمة التي هي آية النبوة طفلاً فكذلك أوتي هذه الكلمة التي هي آية الوصاية طفلاً، وكما أن المسيح قال للدنيا طلقتك ثلاثًا، وكذلك(ع) قال للدنيا طلقتك ثلاثًا، وقال يا صفراء ويا بيضاء غري غيري وقال النبي(ص): لولا أني أتخوف أن يقول فيك

الناس ما قالت النصارى في المسيح لقلتُ فيك قولاً لا تمر بملأ من الناس إلا وكانوا يأخذون التراب من تحت قدميك ويشربون من فضل طهورك "(5). وأثناء ترديد تلك المقالة العلوية سفحت الدموع من العيون وأجهشت الحناجر بالبكاء وانقطع الخطيب عدة مرات وعاود من جديد القراءة، ثم سلم على الإثني عشر المعصومين وقال بعد التسليم: "لا يتجاوز عددهم اِثني عشر بكونهم في وجودهم له كالإثني عشر في الموجودات من العالم الكبير والصغير لها، وكذلك كان لكل نبي مبعوث هذا العدد، لموسى عليه السلام اِثنا عشر نقيبًا ولعيسى عليه السلام اِثنا عشر نقيبًا حواريًا، ولمحمد صلى الله عليه وآله اِثنا عشر صاحبًا، ولآدم ونوح وإبراهيم من قبل، كذلك لكل واحد منهم اِثنا عشر حملة علمه والقائمون بأمره، والقابلون أنوار حكمته، ولكل منهم درجة ومنزلة وحق لا ينكر، وأعلاهم درجة وأقربهم إليه رتبة من كان أكثر تشابها به وأكثر قبولاً لأمره ونهيه وأكثر اهتزازًا لما سره في أمره وساءه وأوفر حظًا مما له، والأولى بمقامه بالخلافة عنه وبالنص عليه في ذلك من كان في هذه المنزلة "(6). توقف ثم أكمل: "فكروا يا ناس، ما معنى رمي الجمار والعدو بين الصفا والمروة؟، لم كانت الحائض تقضي ولا تعيد الصلاة؟، وما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير؟، وما بال الله خلق الدنيا في ستة أيام؟، أَعَجِز عن خلقها في ساعة واحدة؟، ما ياجوج ومأجوج وأين مستقرهم؟، ما سبعة أبواب النار وما ثمانية أبواب الجنة؟، فكروا أولاً في أنفسكم، أين أرواحكم وكيف صورها وأين مستقرها وما أول أمرهم؟.. والإنسان ما هو وما حقيقته، وما الفرق بين حياته وحياة البهائم، ولم جعل عنقه صورة ميم -بالعربية- ويداه حاء، وبطنه ميماً ورجلاه دالاً، حتى صار اسماً لمحمد(ص)؟.. كيف يسعنا الإعراض عن هذه الأمور والله تعالى يقول {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق }؟(7). وكفكف الأب دموعه، وكذلك الحاضرون، وبعد ذلك بدأت فاصلة القسم، فوقف السيد الشيعي أمام والده وجهًا لوجه، وحمل الأب القرآن لترديد القسم، وكان يردد فقراته ويعيد الابن الكلمات، والناس تصلي على الرسول وآله، وما أن أكمل ترديد القسم حتى تعالت زغاريد النساء المحتجبات، فقد اكتملت تولية السيد الشيعي -الصغير- في قرية الجوابر، وأصبح بديلاً حاضرًا لوالده وما بقي إلا أن يرشده إلى موقع الحفيظ، الذي سيتم في مساء اليوم ذاته، ليعرف موقع خزائن الشيعة لينقل إليها سنويًا ما يتبرع به الشيعة استعداداً لعودة المهدي المنتظر(ع)، وقبل أن ينتهي الحفل عُصبت عمامة الشيعي بخرقة قديمة استخرجت من صندوق خشبي، قد جف عليها الحناء القديم وحُملت أوعية الطعام للجالسين يتصاعد منها البخار، الرز المطبوخ وفوقه قطع كبيرة من اللحم، فشمر الجالسون عن أيديهم استعداداً لأكل وليمة المبايعة. حملت ليلى أبنة السيد مهنا وعاءً فيه لحم كثير ورز وطلبت من صبي من الصبيان أن ينقله إلى بيت كعيد البلام، وقد بدت تتضح لها أسرار نظرات وادي الملهوفة كلما رآها، وآهاته كلما مر بدارهم، وفكرت به بشكل مضبب وقادها ذلك التفكير إلى أحلام وصور كانت غائبة عنها، لكنها شعرت بنوع من الحنين، لرؤية عينيه، وشاربه الخفيف الذي رُسم فوق شفتيه بدقة عجيبة.

- 52 –

أخيرا صار رأيهم أن يمكنهم جاسم العطية من الالتقاء بشيخ المعدان لغرض استمالته إلى قضيتهم وعرض أمرهم عليه للحصول على مساندته لقضية الكادحين، كما أوصوه بالحصول لهم على كيس من الدقيق وآخر من الرز وما يمكن حمله من السكر والشاي وعلب الكبريت وعلب الصابون والحصول على بعض شرائط المضادات لحيوية، فأحد الرفاق يعاني من التهاب اللوزتين الحاد، كما أنهم بحاجة لبعض البقوليات والمعلبات وأمواس الحلاقة والملابس الداخلية وفرش الأسنان والمعاجين وبضعة شرائط كاسيت لأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وموافاتهم كذلك بآخر الأخبار التي يحصل عليها، وغادرهم جاسم وهو يضرب أخماسًا بأسداس وهو يفكر بالوطن، الذي تحول إلى جزيرة صغيرة يقطنها المطاردون، المتوسلون بالمعدان ليبقوا أحياء وتساءل ربما إذا وقف المعدان مع قضيتهم، فإن مفكري الحزب سيقولون إن هدف الحزب هو تحسين أوضاع العمال والفلاحين والمعدان، الذين لا يدري أحد ما هو وضعهم الطبقي؟ وهل هم من الفلاحين أو العمال؟!.

- 53 –

خرجت في ذلك اليوم نرجس من سجنها الاختياري، الذي فرضته على نفسها إلى خارج دارها دون نقاب، فرأت النساء فيها امرأة دميمة، وخط الشيب شعرها، وتساءل كل من رآها أتفعل سنة واحدة من الحزن كل هذا الخراب الذي رأوه في وجه نرجس؟. وتنهد الرجال متألمين لضياع جمال جميلة الجميلات في قرية الجوابر!. لم تشعر هي بالتغيير الذي حصل على جمالها وكانت تعامل من يمر بها ويلقي عليها بالتحية بنفس الخفر والدلال والتمنع، الذي كانت تمارسه حينما كانت جميلة تهفو لرؤية جمالها النفوس المتعطشة لرؤية الجمال، ويتسارع إليها في الطريق الرجال لعرض خدماتهم عليها، وقد فعلوا ذلك هذه المرة والإحباط يملأ جوانحهم، وعيونهم اليائسة من الملاحة القديمة ينقلونها بين وجهها الممتلئ بالتجاعيد وأمكنة قرص البعوض والأرض، والخجل يكاد أن يذيبهم كأنما أشتركوا جميعًا دون أن يعلموا في جريمة وأد جمالها الفاتن وتبديده في حزن لا معنى له ولا قيمة! وكانت تسأل الجميع أين تسلم إجابة الرسالة التي أستلمتها من ابن عمها فرحان، وأمضت أسبوعًا كاملاً في إملاء جوابها على ابن جارهم، فأرشدوها إلى المبنى العسكري، خارج القرية، الذي شيده الجنود قبل أيام وجلس في إحدى غرفه شرهان القاطع، وأوصوها وقلوبهم تتقطع على ذلك الجمال الذابل أن تعطيها إلى شرهان القاطع وهو سيتكفل بإتمام كل الإجراءات المطلوبة!.

في مساء ذلك اليوم وقف زورق بخاري قرب جباشة شيخ المعدان، ونزل منه عدد من الجنود يحملون حقيبة كبيرة، فتحوها أمام الشيخ فتساقطت على الأرض مئات الدفاتر الخاصة بالخدمة العسكرية، مؤشرة ومختومة، وجاهزة للأستعمال، فقط يأمر شيخ المعدان بوضع أسماء من يريد تسريحهم من الجيش من أفراد المعدان مع الصور الشخصية لهم، فتورد وجه الشيخ فرحًا، وقال لهم أخبروا القائمقام أن يحضر صباح الغد ليجد بغيته من الرجال المطلوبين!.

بعد منتصف الليل أخذ المعدان يتنادون ويتجمعون في جباشة الشيخ مع بنادقهم وفالاتهم وهراواتهم وقاماتهم، وأنطلقوا بعد التجمع بمشاحيفهم في ذلك الظلام بين ممرات القصب والبردي، ومن بعيد كانت نيران الحفيظ المتوهجة تضيء السماء، والنجوم المتلألئة والقمر الوحيد الحزين، وتنعكس كل تلك الأنوار في عيون الكلاب النابحة، كانوا يعرفون مكان الشيوعيين، ولا تخفى على المعدان في هورهم الشاسع خافية ؛ وفيما كان جاسم العطية يشرب خمرته المسائية، ويدير موجة الراديو الترانسستر محاولاً الحصول على إذاعة موسكو الناطقة باللغة العربية، وبلقيس ممددة على الفراش الوحيد تئن من آلام بطنها بسبب عدم تعودها على شرب ماء الهور الملوث، وتطلب منه أن يخفض صوت خربشة المذياع التي تصدع رأسها، وشعلة النفط تكاد أن تنطفئ بسبب انتهاء وقودها، شعر بقلبه ينقبض، كأنما شعر بأمر سيء سيقع، وارتجف جسده خوفًا حين جاء عاقول إليه بعد منتصف الليل بقليل ليبلغه أن المعدان قصدوا رفاقه وإنهم أخيراً حصلوا على دفاتر الخدمة العسكرية والتسريح من الجيش! فتحامل على نفسه وصرخ: "أوغاد!". في ذلك الصمت الذي لا يقطعه سوى صوت نباح الكلاب البعيدة وصفير الريح بين ممرات البردي ونعيب بوم كئيب، ووقف في باب الصريفة وارتعشت شعلة النفط، وقرفصت بلقيس فوق الفراشن ماسكة بطنها لا تعلم ماذا حل بحبيبها، ومن جديد صرخ جاسم:

ــ "لن ترحم الحكومة أحدًا إذا أمسكوا بهم!". وطلب من عاقول أن يصحبه إلى ربوة الشيوعيين فقال له عاقول ممتعضاً:

ــ "أتذهب في هذا الوقت من الليل؟ لن أتبعك يا جويسم!".

لم يكلمه جاسم واتجه إلى الصريفة وأخرج مسدساً قديماً كان قد أخفاه تحت الفراش، وصرخت بلقيس:

ــ "هل تتركني هنا وحيدة؟". قال:

ــ "أتخافين؟".

قالت:

ــ "أخاف عليك يا جويسم ولا تهمني نفسي!".

تحاملت على نفسها تحاول الإمساك به، لكنه تملص منها وركب المشحوف فلحقه عاقول متعثرًا حتى نهاية أرض الجباشة، وردد ليل الهور نداءها عليه، ولم يرد عليها وأختفى

المشحوف في دغل كثيف من البردي والقصب، ونظرت بلقيس إلى السماء المشحونة بالنجوم، والقمر الذي أخذ بالاختفاء خلف أكوام من الغيوم المعتمة، ومن بعيد تردد نباح كلب قريب، أجابته كلاب أخرى من أمكنة متعددة في الهور، ودخلت إلى الصريفة وهي تشعر بالخوف يملأ كيانها، وأغلقت بابها الصفيحي وجلست من جديد على الفراش والدموع تسيح من عينيها، نادبة حظها الذي جاء بها إلى عاشق مجنون، لا يأبه بآلامها وما تعاني من أجله!.

1- الجرش في مفاهيم أهل الريف والهور العراقي يعني طلب حماية العشيرة والانضواء تحت رايتها من قبل الغرباء، حيث تصبح للغريب حقوق مشابهة لحقوق ابن العشيرة الأصلي.
2- مخزن الغلال الكبير، الذي يخزن فيه التجار بضاعتهم من الحبوب.
3- أوائل الصحابة للرسول الكريم(ص) وكانوا النواة الأولى للشيعة.
4- من فرق الشيعة التي خرجت عن الأصول وكونت فروعًا.
5- ترد الكثير من الخطب على المنابر الشيعية دون إسناد للمصدر ويكتفي الواعظ بإشارة غامضة للمؤلف الذي استل منه المقطع أو الحديث.
6- يأتي في وعظ الشيعة دون إسناد لمصدر.
7- سورة فصلت الآية 53 من القرآن الكريم.

الجزء العاشر

- 55 –

أخذ السيد مهنا صرة خبز ومعها قليل من فردات التمر ورأس بصل زادهما في الطريق، حاولت امرأته وابنته أن تجعلاه يؤجل سفرتهما إلى الحفيظ ريثما تفك الحكومة عنهم شركها المسلح، ليتسنى له بعد ذلك إرشاد أبنه إلى خزائن الحفيظ، وكان الأب لا يرد على اعتراضات امرأته وأبنته وكان مشغولاً بالإعداد لتلك الرحلة الخطيرة ووضع ما تبرع به أهل الجوابر من مال قليل في صرة بيضاء عقدها بحرص ونظر إليها وقال في نفسه بحسرة: "هذا مال قليل! كل سنة كنا نجمع أضعاف هذا المبلغ ولكن ساعد الله أهلنا إنهم لا يجدون ما يكفيهم للبقاء أحياء بسبب حظر التجوال والمنع الساري عليهم، وعدم السماح لهم بالنزول إلى الهور للصيد!". وأخفى صرة المال في جيبه العميق، لم يقل الصغير شيئاً وكان يستعد لمصاحبة والده وهو يتحزم بخرقة خضراء، حين خرجا من الدار سمع الأب نحيب زوجته وأبنته، لكنهما كانا مسحورين بأجواء الرحلة القادمة، فلم تحرك الدموع الساخنة من عيني المرأة والبنت شيئاً من الشفقة في قلبيهما للرجوع عما عزما عليه، وفي طريق القرية لم يصادفا أحدًا وتمتم السيد مهنا:

ــ "يا رب أنت تسمع وترى، وتعرف أين نتجه وماذا نفعل، فكن عوننا على أداء الأمانة لأصحابها!".

وجاءهم رجل عجوز أبيض اللحية والنور يسطع من وجهه المدوّر ويفيض بين يديه، قال الرجل العجوز:

ــ "أنا بانتظاركما منذ مدة طويلة!". قال السيد مهنا متهكما: "تعرف أن أمنا حواء أخرجت سيدنا آدم من الجنة!".

ضحك الشيخ ومشى أمامهما لنصف ساعة وبالرغم من أن الشيخ قد بلغ من العمر عتيًا وقد شيبت الأيام حتى شعر جفونه، إلا أنه كان يسير وكأنه أبن العشرين عاماً، وحالما بلغوا أول حقل من الحقول الكثيرة ولم يكن أحد منهما يستطيع تمييز مكان الحقل وحدوده في الظلام الذي بدأ يخيم غير الشيخ، فقد أوقفهم ثم طرح عباءته على الأرض وقال: "سيروا عليها، فساروا".

وكلما تجاوزاها رماها من جديد حتى قطعوا الحقل المزروع وحين صارا في مأمن من العيون رأوا نيران دورية بعيدة من الجنود يدخنون ويغنون ويسعلون، فقال الشيخ:

ــ "هم في مكانهم ونحن في طريقنا!". ومشى ومشيا وراءه، فلم يرهم أحد وتجاوزوا الحماد حتى وصلوا حافة الهور، فرفعوا ثيابهم وصعدوا مشحوفًا فارغًا كأنما كان بانتظارهم، قال السيد مهنا: ــ "ألا نتعرف على أسمك يا شيخ؟". ضحك الشيخ ومسح على رأس الصبي وكان نور القمر والنجوم كافيًا لرؤية ملامحه، قال:

ـ "هلال المجنون!"، وضحك. أزداد عجب السيد مهنا لوقع إجابة الشيخ موقع السخرية منه:

ـ "إنك لا تشبه هلالاً!".

ـ "أنا هو ولكنكم تروني على غير حقيقتي!".

وأزداد عجبه، أراد أن يسأله كيف عرف غايتهما وصلى على الرسول، وفعل الصبي مثله، وقال الرجل العجوز كذلك فعرف السيد أنهما يسيران مع جني وهو مسلم من مسلمي الجان، وقد أخذ أسم هلال وهو غير هلال، ولو لم يكن مسلمًا لما صلى على محمد وآل بيته بهذه الحرارة والعفوية!. ضحك الشيخ وقال:

ـ "هلالنا غير هلالكم المجنون!".

وقال بعد فترة صمت قصيرة وهو يجذف بنشاط وقوة شباب:

ـ "لن أحدثكما بأمور كثيرة حتى لا ينقطع حبل الود بيننا!".

أراد أن يسأله وكيف يقطع التعارف والكلام حبال الود؟، ولكنه لم يسأله، وقال الشيخ:

ـ"أنا من قبل حدثت الرأس المقطوع!".

خمن السيد مهنا أن الرجل هو في حقيقة الأمر على هيئة رجل، وأنه يُحدث بقدرة القادر ملكًا من ملوك الجان والأرواح المباركة، المكلفة بحراسة الحفيظ، وفكر أنه لو يرفع ثياب الرجل البيضاء الطويلة لاكتشف بدل الأقدام والأصابع حوافر تشبه حوافر الخيل، وذلك ما يفرق البشر عن الجان، واحتفظ لنفسه بهذه الحقيقة لئلا يرعب السيد الشيعي الصغير! الذي يجلس قريبًا من الشيخ ويد الشيخ تلامس كتف الفتى كلما حرك المجذاف صعودًا ونزولاً، وقال السيد مهنا محاولاً أن يكون رابط الجأش قويًا في إيمانه لا تزحزحه رؤية ملك أو جان عن الصلاة على الرسول والحمدلة، وذكر آل بيت الرسول:

ـ "حدثنا يا سيدي الشيخ كيف حدثت الرأس المقطوع؟". تنهد الشيخ وتحشرج صوته كأنما اختنق بالبكاء:

ـ "كان وجهه كالبدر في تمامه، قال لي كلامًا لا يُنسى، حدثني عما سيحدث وما لا يحدث!".

سأل السيد:

ـ هل خصنا بحديثه؟".

مسح الشيخ عينيه بطرف ثوبه وقال:

ـ "لقد قال لي في تلك العشية الحارة سيجيئ من رحم الناس الذين ذبحوني ناس أحبهم ويحبونني ويموتون فداءً لذكري، وتثبيتًا لدين محمد صلى الله عليه وسلم!". شعر السيد مهنا بالسعادة:

ـ "زدنا يا عم أطال الله عمرك!".

ـ"حدثني عن هذه الأرض التي ستصبح بورًا، ويحرقها طوفان من النار، وتصيب الناس بعدها مجاعة عظيمة، حتى يكاد الوالد أن يأكل أبنه، والابن يوشك أن ينكر أباه وأمه!". تنهد الشيخ ثم أكمل: "حدثني عن حرب مريرة تدور رحاها على أرضكم لأكثر من ثماني سنوات تحرق الأخضر واليابس، فيبرز خلالها من أحب الرسول وآل بيته ويخيب فيها من عاداهم،

وإذا وقعت هذه الحرب فكونوا في جيش من حمل راية أهل البيت السوداء، حتى لو حبستم في صناديق مغلقة، تدحرجوا بصناديقكم حتى تبلغوا الضفة الأخرى، لتعيدوا الإسلام إلى مجده الأول!".
ثم التفت إلى ماء الهور وغابات القصب والبردي المظلمة التي لا يدخلها نور القمر وقال: "ستغدو هذه المياه تربةً وحفراً، سيغور الماء ويظهر الحماد، وتبحث في طول الأرض وعرضها عن ضفدع أو سلحفاة فلا تجد!". ثم قال متنهداً وهو يتوقف عن الجذف: سيضعون لكم السم في مياه الشرب حتى تموت مواشيكم وبعدها أولادكم! سيضعونكم في سجن كبير لا تنفذون منه إلا بأمر الله وحده!". تساءل ومرارة تغزو فمه: "وهل ينجو أحد؟". عاود الشيخ التجذيف وصمت قليلاً قبل أن يعود للكلام: كل من آمن بالله وأحب الرسول وآل بيته سينجو وإن مات جسده!".
وتمتم السيد مهنا أن لا حول ولا قوة إلا بالله!". ثم نظر إليه بعينين متلهفتين: "زدنا يا شيخ!".

"سيهيم أولادكم في بقاع الأرض المختلفة طالبين الأمان، ممن صار لا يردعه الخوف والخجل ولا يقيم لحياة الناس وزنًا! وبعد أن ترجعوا إلى لب عقولكم وفطرتكم سيعيدكم الله إلى أرضكم المفقودة! معززين مكرمين، قد فزتم بالدنيا والآخرة، لقد حدثني الحبيب أن الظلمة قبلها ستكون قد غشيت عيونكم والجوع والحرمان نصيبكم، قلوبكم ميتة وأبدانكم شتى، تسعى بلا هدف، تلك الأيام قادمة لا محالة!". وأثناء المرور بين صفي البردي وقد اشتد الظلام لانحجاب نور القمر وتوزع النور في لطخات صغيرة على صفحة الماء، فجاء صوت الشيخ عميقًا مدويًا:
"اقتربت الساعة، فقد أبلغني الحبيب أنه إذا انحدر الناس في المنحدر وتعالت الأصوات نباحاً، وصار الجبار أكثر تجبراً، وقال الإنسان ما حياتي غير إقتناص الفرصة؟ وما حياة غيري إن لم أعش أنا؟ ولم جئت إن لم أقتل وأنهب وأظلم؟ وما هي غاية وجودي إذا كنت رحيمًا كريمًا؟ وما قيمة العالم من حولي إن لم يتحول إلى دولة شر كبيرة؟ وهُجرت النجوى، واختُرقت القلوب المعصية، وصار الأب فاقداً لأبوته والابن فاقدًا لآصرة بنوته، باحثًا في متعه عن لعنته وصارت الطهارات تباع والبراءات تُشترى والقاتل يمشي في الدروب مفتونًا بمن قتل، والمقتول مضرجًا بدمه في الحفر والسراديب المجهولة، لا وعظ إلا بوعظ السلاطين، والبحث بدأب عن الأصفر والأبيض... وتلك هي العلامات والعبرْ!. بعد أن خرج المشحوف من دغل القصب والبردي لم يجد السيد مهنا أحداً غير ولده وتساءل الأب: "هل سمعت ما قال يا ولدي؟". قال الابن متعجباً: "سمعت ماذا؟"."الشيخ وهو يتحدث!". "لا شيخ ولا أحد سواك وسواي!".
فعرف الأب أن الله عز وجل قد خصه برؤية الشيخ ولم يشرك معه أبنه في الاستماع والفهم فتمتم: "الحمد لله رب العالمين!".. فتساءل الابن: "إنك تخيفني يا أبي!". فقال السيد مهنا: "لا شيء يا ولدي لا شيء.. أبلغنا رسالته ومضى كالحلم، أتخاف من الأحلام؟ وعلينا إكمال الطريق، وقد وعينا ما ستؤول إليه الأمور وعرفنا المراد!"

لم يبد الشيوعيون مقاومة تذكر فقد دهمهم المعدان من كل جانب، وقيدوا الذي كان يتولى حراسة الربوة واقتادوه وأستيقظ الرجال الباقون مذعورين. كانوا في وضع سيء، وأخذت الدكتورة تبكي، وصرخ أحد الرجال المقيدين وهو يرى شعلات النار في أيدي المعدان وهي تحيطهم من كل جانب: "جئنا لنحرركم من عبوديتكم ونعيد إليكم إنسانيتكم التي ضيعتها الحكومات الظالمة!". صفعه أحد المعدان على وجهه بقسوة وعلى ضوء الشعلات رأوا أنبثاق الدم من شفتيه، وطلب شيخ المعدان أن يعاملوا الرجال المقيدين بالحسنى، وقال الشيخ لأسراه:

"نعرف إنكم من الدكاترة والدارسين، نحن نفعل ما نؤمر به، لقد أمرتنا الحكومة بالقبض عليكم ففعلنا! ولو لم نفعل لحرقوا بيوتنا فوق رؤوسنا وقتلوا أطفالنا!". قاطعه أحد الشيوعيين: "حكومة ظالمة، وستكونون أول ضحاياها!". أكمل الشيخ دون أن يهتم بالمقاطعة: "نحن نفعل ما نراه مناسباً لنا، فأنتم مجموعة من الخارجين على الحكومة، ولا حول لكم ولا قوة يعتد بها! ولو كانت لكم هذه القوة لناصرناكم ولوجدتمونا عبيداً نسعى بين أيديكم، أما الآن وأنتم على هذه الدرجة من الضعف، فعلينا تسليمكم إليهم لنأمن شر الأقوى!". وتمتم في الظلام أحد المقيدين: "انتهازيون وحقراء!". ومن جانب الربوة، المملوءة بالأحجار والظلال المعتمة دوى صوت جاسم العطية قويًا هادراً: "يا شيخ المعدان أطلقوا سراح أصحابي!". عرف شيخ المعدان صوت جاسم والتفت الرجال مهومين بالشعلات إلى جهة الصوت ليعرفوا مكان جاسم، لكنهم لم يهتدوا إليه في الظلام، قال الشيخ: "جويسم أنت منا ولست علينا!". أجابه جاسم متحدياً بصوت عال:

"قلت لك أطلق سراح أصحابي، أنا لم أكن في أي يوم من الأيام معيدياً مثلكم!".

- "جويسم أنت أخونا وصاحبنا!".

- "أطلقوا سراح من جاء يحتمي بكم!".

- الحكومة ستفني المعدان إذا لم نفعل ذلك، وأنت تعرف قوة الحكومة!". كان جاسم متمدداً على بطنه في ظل حجر كبير، ولم يكن أمامه ليوضح للمعدان صدق نواياه غير أن يضغط على زناد المسدس فعلعلت رصاصة في الصمت والظلام وأسقطت أحد المعدان، فأخذ يصرخ من جرحه، فتفرق المعدان خائفين ورموا شعلات النار التي في أيديهم لئلا تكشف مكانهم وأخذوا يطلقون النار كيفما اتفق باتجاه مصدر الإطلاقة، رصاص كثير مر قريباً من رأس جاسم العطية، لكنه أخذ يزحف باتجاههم ويطلق النار وردد الليل أصوات الطلقات والأصداء المتجاوبة في كل بقاع الهور المنصتة، لإمتصاص الأصوات وإعادتها مضخمة، كان شيخ المعدان يهيب برجاله أن لا يقتلوا جاسم العطية، فهو صاحبه وسميره الليلي ولولا هؤلاء الأوغاد الذين ظهروا في الهور، فأفسدوا كل شيء! كانت الدكتورة تصرخ كلما لعلعت طلقات الرصاص، وأنتهز فرصة التراشق بالرصاص والظلام اثنان من المقيدين وفرا زاحفين صوب الماء ووصلا إلى مشحوف متروك، استقلاه وأخذا يعالجان قيودهما في بطن المشحوف، ومن

جديد لعلع الرصاص، وشعر جاسم أنه أصيب في أكثر من مكان، والدم الساخن يسيل من إصاباته: "لم تكن في مسدسه غير طلقة واحدة. أطلقها في ذلك الفراغ المظلم، ورأى السماء تتفتح زرقاء مشوبة بعتمة عميقة، والنجوم تقترب من بعضها كقلادة هائلة، وتساءل في تلك اللحظة الفضفاضة: لِمَ نعيش؟ ولِمَ نموت؟ تلك السنوات الشاحبة، التي مرت لم تكن حياة! كلها كانت انتظارًا لحياة ما؟ هل حقاً تلك السنوات العاهرة كانت حياته برمتها؟! منذ ساعة الولادة وحتى ساعة الممات؟ إنه لم يعش يوماً واحداً حقيقياً من تلك الأيام! التي اعتقد أنه سيعيشها ويمني نفسه بها! أذهبت الحياة دون أن يحقق شيئاً؟ وها هو يموت بأيدي المعدان أصحابه فوق هذه الحجارة القاسية؟ أراد أن يضحك ساخراً من حياته البائسة! لكن جروحه ورعشة الكهرباء التي يشعرها مضخمة في ساقيه منعتاه من الضحك وتمتم بضعف: "أخيراً يا جويسم سيرحل زورقك المثقوب في رحلة صامتة بين ضفتين لا تحويان نهراً!". رفع جاسم رأسه بضعف عن التراب. نظر إلى الأشباح التي يغلفها الظلام، وسمع أصوات كلاب بعيدة تنبح، ومخازن عتاد وهي تُبدل مصطكة في ذلك الصمت، وهمساً قريباً، تمتم:

ــ"إني ألعن هذا المنفى إلى الأبد!".

سقط رأسه فوق التراب المداف بدمه وأغمض عينيه بضعف.

- 57 –

وصل السيد مهنا وأبنه إلى الأرض التي قاده إليها أبوه قبل ستين عاماً، وبدأت تباشير الفجر تلوح، زاحفة بتلك الذرات من النور في ذلك الظلام مختلطة ببقايا الضباب. كان الصبي يرتجف من برد الفجر وينصت إلى الطيور التي أخذت تغادر أعشاشها وأوكارها بين الصخور، وأمواج صغيرة تتكسر متشظية على الجرف الصخري، قال الأب هامساً: "ماذا حدث يا ولدي؟ قبل ستين عاماً كانت البقعة خضراء، كأنها قطعة من الجنة!". ثم أنتبه إلى عدد من الآليات المتوارية إلى جوار التل وبدا له أن أصحابها من الجنود وأن ثمة وحدة عسكرية قد أجرت تعديلاتها على الأرض ونصبت خيامها ورأى عدداً من الجنود يدخلون في فتحة تحت الأرض ويخرجون حاملين على ظهورهم المنحنية صناديق مغلقة! تمتم السيد مهنا محتجاً:

ــ"إنهم ينهبون الحفيظ!..".

وأخذ يفرك عينيه غير مصدق ما يحدث أمامه، وتمتم: "فاجعة كبرى حلت بالشيعة ولم تكن في الحسبان أبداً!". وتساءل: "هل أخطأنا المكان يا ربي؟". بقي يتلفت يميناً وشمالاً، كأنما صُفع عدة مرات على وجهه بقسوة: "إنه ذات المكان، التل ذاته، وذات الفتحة في الأرض. إن الحكومة تعتدي على كنوزنا وتنهبها!". أخذا يقتربان من الجنود غير مصدقين الذي يحدث أمامهما حتى وقفا إلى جانب الشاحنة التي يحمل إلى حوضها الجنود ما يطلعون به من تحت

الأرض، وسأل جندياً كان يمسح زجاج السيارة الأمامي: "ماذا تفعلون هنا يا ولدي؟". نظر إليه الجندي ساخراً وهو يتوقف عن المسح:

ــ أنتما ماذا تفعلان في هذه المنطقة العسكرية الممنوعة على المدنيين؟". أراد أن يقول له شيئاً عن الحفيظ، عن حكاياته التي يحفظها كل شيعي عن ظهر قلب ويقدسها، لكنه لم يجد غير كلمات قليلة:

ــ "ولكن إلى أين تنقلون هذه الصناديق؟" رق قلب الجندي لهذا الشيخ الضعيف الذي بدا له معتوهاً لا يفهم شيئاً عما يحدث حوله، فقال بهدوء:

ــ "يا عم هذا موقع أثري، والكنوز التي فيه ستُنقل إلى العاصمة، وصدقني حالما يراك الضابط الذي هو الآن في الموقع تحت الأرض مع اللجنة لضبط الموجودات وتقييدها في سجل كبير، سيعطي الأمر للجنود لاعتقالك مع الصبي الذي أبيض الجوع شفتيه!. خُذْ نصيحتي واسلكا الطريق الذي جئتما منه. أذهبا لئلا يراكما أحد غيري". تمتم الشيخ محبطاً:

ــ "أجل.. أجل يا ولدي سنذهب!".

أخذا يتراجعان ولمحا أحد الجنود وهو يحمل الرداء القديم والسيف والعمامة السوداء ورأى هذه الأشياء تسقط من يد الجندي على الأرض لأنه كان ينوء بحمل صندوق ثقيل وكانت هذه الأشياء فوق الصندوق، ورأى أقدام الجنود المتعبة وعيونهم الوسنانة، وهم يتحركون ببطء بين الكوة في الأرض وحوض الشاحنة الرمادية، وتكاد أقدامهم تدوس الأشياء الساقطة على الأرض.

أراد الابن أن يتقدم ليحمل تلك الأشياء المقدسة عن الأرض لئلا تُداس، فمنعه أبوه، وقال:

ــ "نحن من نحتاج لمن يرفعنا لئلا تدوسنا الأقدام! نحن الذين نحتاج قداساتهم ليدافعوا عنا، ولسنا من الهندوس لندافع عن بقراتنا المقدسة! إن كانت هذه العمامة بلا قداسة أو شارة أتركها لتُداس ولتفعل بها أقدام الجنود ما تفعله بالقمامة!".

لم يستطع السيد مهنا الصمود طويلاً، فإنهار باكياً، وصرخ بهما الجندي من جديد: "إذهبا من هنا، لا أريد رؤية وجهيكما هنا، إنها منطقة عسكرية محظورة ونصيحتي لكما أن تذهبا بسرعة، فإذا أمر الضابط بسجنكما فسيغتصب الحراس هذا الصبي ليلاً، فهم لم يحصلوا على إجازات من الخدمة لرؤية زوجاتهم منذ ثلاثة شهور!". أخذ السيد مهنا يد ولده وعادا أدراجهما صوب المشحوف المتروك، وباليد الأخرى تحسس صرة المال الذي جمعه من فقراء أهل الجوابر، وتساءل وهو يمسح دموعه: "ماذا سأقول للناس في القرية يا ربي؟!. هل أكذب عليهم؟".

قال الصبي:

ــ"سنخبرهم بما رأينا".

نظر إليه الأب:

ــ"هل سيصدقون أن ذهب الأئمة الأطهار وكنوزهم قد استباحتها الحكومة، وجعلت أردية الإمام وسيفه عرضة في مزادات الآثار والأشياء القديمة، وأن الجنود أوشكوا أن يصفعوا السيد الشيعي الصغير؟. لا لن أقول شيئاً ومن هذه اللحظة لن أكلم أحداً ولن أستمع إلى أحد، هذا فراق بيني وبين الكلام، حتى يفعل الله شيئاً بالقوم الظالمين!"

- 58 –

في ذلك الصباح الذي ارتفعت شمسه في الأفق وبددت الضباب، كانت زوارق الحكومة، المزدانة بأعلام الجمهورية وصور رئيس الجمهورية تتلقى حمولتها من الرجال المقيدين، ومكبرات الصوت في الزوارق تصدح مغنية عن انتصارات الحزب الحاكم وإنجازاته العملاقة وتتصاعد الألحان الراقصة ممتزجة بالزغاريد، والمعدان في جباشة الشيخ يدورون في حلقات وبنادقهم في أيديهم ويطلقون منها النار في السماء ابتهاجاً بانتصارهم، والشيخ مع القائمقام وبضعة ضباط من الجيش والمخابرات يقفون إلى الجوار وفي أيديهم أقداح القهوة يرشفونها ببطء وتلذذ وهم ينظرون الرجال المستعرضين أمام شيخهم وبيدهم عدة رايات حمراء وعلى نهايات سارياتها رمانات نحاسية، كلما هزها المعدان أخرجت رنيناً، وكان الرجال المعقلون ينشدون قصائدهم الشعبية التي تروي بطولات المعدان عبر أحقاب زمنية طويلة، وكان يعقبون القصيدة بهوسات(1) شعبية معروفة ثم يبدأ دورانهم حول الشيخ وضيوفه مع هز الأكتاف ولي الرقاب والركز الثقيل على الأرض بالأقدام الحافية، المتشققة، فتسقط العقل السوداء حول الرقاب، وتثير الأقدام الراكزة موجة من الغبار، ورائحة الدمن العطنة ويطلق الرجال بنادقهم في السماء، وبعد ذلك سلم أحد الضباط كيساً مملوءاً بالمال كتعويض لعائلة المعيدي الذي سقط في المواجهة مع الشيوعيين والجريح الآخر، الذي نُقل على وجه السرعة إلى الجبايش بأمر الشيخ لمعالجته، وكان شيخ المعدان قد أبلغ الحكومة عن جرح جاسم العطية أثناء قيامهم بالقبض على الشيوعيين، واتهم الشيوعيين بأنهم هم من قتلوا المعيدي وجرحوا جاسم العطية!.

- 59 –

ما أن علمت بلقيس بما أصاب جاسم العطية حتى تبعته إلى مبنى المستوصف الصغير في الجبايش فأبلغوها أنهم حولوه إلى مستشفى البصرة، تبعها عاقول فأخبرته إنها ذاهبة إلى هناك، وعليه أن يكون معها، فأخبرها أنه سيفعل ذلك بعد أن يستلم دفتر الخدمة العسكرية الجديد من الشيخ! وركبت في حوض سيارة ذاهبة إلى البصرة، باكية نادبة حظها التعس، خامشة وجهها الجميل بأظافرها، وكل من رآها على هذه الحالة ونظر إليها وتملى ذلك الجمال المشتهى تنهد، وسألها ماذا حدث لها، فتخبرهم أن عندها جريحاً في المستشفى، وإنها زوجته، وتبكي بكاءً حاراً، في حقيقة الأمر كانت مؤمنة تماماً بحقيقة غائبة عن وعيها منذ عرفته وهي أن جاسم العطية هو زوجها، وأنها لم تكن امرأة طارئة في حياته! ولم تتوقف عن

ذرف الدموع إلا حينما رأته للحظات قليلة وهم يحملونه إلى غرفة العمليات لإخراج الطلقات التي استقرت في ساقه وبطنه، أخبروها أنه بحاجة إلى نقل دم فوري وطلبوا منها أن تعطي من دمها ليتم اختباره إن كان مطابقاً لفصيلة دم الجريح! قالت لهم باكية: "إنها تفعل كل شيء من أجل أن يعيش!"،فحصوا دمها ووجدوا أنها من فصيلة مشابهة، وحين سألوها عن قرابتها منه أجابتهم من بين دموعها وشهقاتها: "إنه ابن عمي وزوجي وحبيبي!". فترقرقت الدموع في مآقيهم متعاطفين مع هذا الحزن العميق، أخذوا من دمها قنينتين وكادت أن تسقط إعياءً، لكنها تماسكت وقالت لهم:

ــ "خذوا كل دمي واعطوه له، فلا معنى لحياتي من دونه!".

طلبوا منها الانتظار في الصالة وبقيت تجلس هناك تنتظر وتنتظر، وعند الفجر جاء إلى المستشفى عاقول وأخوه مع زوجته، وبكوا جميعاً من أجل جاسم العطية، ومن بين دموعها قالت بلقيس نائحة: "طلبت منه أن لا يخرج في تلك الليلة، لكنه لم يسمع كلامي! تمسكت به فلم يستجب، وها هو قد تسرب من بين أصابعي كقبضة لبن!".

في الصباح جاء الطبيب ليصطحب بلقيس لإقناع جاسم بالموافقة على بتر إحدى قدميه لإصابتها بالغرغرينا، وحالما رأته بكت بحرقة، وخمشت وجهها حتى أدمته، وصرخت، ففتح عينيه بصعوبة وتعرفها، قال لها الطبيب: "سنبتر قدمه!" فهز جاسم العطية رأسه رافضًا، وقال من بين أسنانه: "لن يبتر أحد قدمي! اتركوني فقط لأموت بسلام!". قال الطبيب موضحاً:

ــ "إذا لم يوقع ورقة الموافقة على البتر، فلن نستطيع أن نقوم بذلك العمل على مسؤوليتنا!".

بللت بلقيس كفيه بدموعها، وقالت:

ــ "جويسم يا نور العين، إذا مت فمن يبقى لي؟". لم يجبها جاسم العطية، بقي ينظر باتجاه السقف وبقية من بقايا المخدر تضبب عليه رؤية الأشياء، كانت قدمه بحالة سيئة ومتورمة كقربة منفوخة: ــ "جويسم لا تجعلني إضحوكة لصاحباتي، لا تنسى أني تركتهن وتبعتك فلا تتركني، أنا في شاربك!". نظر إليها وقال ببطء:

ــ "لقد كنت بقدمين سليمتين ولم أستطع أن أعيش في الوطن كالآدميين! فكيف أستطيع ذلك بقدم واحدة؟".

وقال مبتسما بضعف: "في هذا الوطن نحتاج إلى خمسة أرواح وعشرة أقدام في جسد واحد!". ومسحت بلقيس دموعها ومخاطها بطرف شيلتها، وقالت: "أقسمت عليك بدمي الذي يسري في عروقك الآن أن توافق!". قال جاسم وشفتاه ترتجفان: "لا تضيعي وقتك! اِذهبي إلى دار صاحباتك في المدينة! فهذا الوطن لا يستحق أن نكون شرفاء فيه، إنه يريد تحويلنا إلى خراف وقاتلين، إنه لا يطيق وجود الشرفاء! إنه يا حبيبتي ينظر إلينا كما لو كنا وباء!". ثم أكمل وصوته يبح: "إن الكلام يتعبني، ولا أريد أن أزيد آثامي بسبب الوطن وشتم الناس جميعا! أتركيني من فضلك!". أخرجها الطبيب من ردهة المرضى، فخرجت تبكي وتولول ورجعت إلى عاقول وأخيه، وقالت لهما وفي صوتها قسوة:

ـ "ليذهب أحدكما إلى أبيه في قرية الجوابر، جاسم العطية لن يعيش طويلاً!. أذهب إليهم وأخبرهم أن أبنهم يموت في المستشفى!".

مسح عاقول دموعه ومخاطه بطرف شماغه وعدل عقاله، وأوصى أخاه أن يبقى في الانتظار فلا يصح أن يُترك جاسم وحده، وإنه سيذهب إلى الجوابر، وتأكد من وجود دفتر الخدمة العسكرية الجديد في جيبه لئلا تقبض عليه المفارز العسكرية في نقاط التفتيش الكثيرة!..

- 60 –

في ذلك اليوم الحزين استُقبلت جنازة جاسم العطية بحزن كبير، وأُقيم له في القرية معزى امتلأ بالرجال، ولطمت النساء صدورهن وخمشن وجوههن ووضع الرجال الوحل على رؤوسهم، وشُيع في المساء ذاته إلى النجف بثلاث سيارات وأخذ الناس في المعزى يعاملون السيد مرتضى كراشد، فقد أخذ مكانة أبيه ولبس العقال وارتدى الشماغ الأزرق، ونُحرت العجول وأُقيمت ولائم المعزى في رحمة الميت وتعالت أصوات قرع هاونات القهوة التي تهرس الحبات، وعلت أدخنة الخشب المحترق، وجلس الرجال يسمعون صوت السيد مرتضى وهو يقرأ على الجالسين جزءاً من موقعة الطف، ويتلو بعد ذلك وقائع استشهاد الإمام علي بن أبي طالب(ع)، والناس يمسحون دموعهم. كان وقت حظر التجوال قد حل، ولكن أحداً لم يهتم بذلك الموعد، كانت قرية الجوابر نساءً ورجالاً مستوفزين ينتظرون قدحة زناد لتشتعل القرية بنار الغضب، وقد جاءت من نهاية درب القرية مفرزة من الجنود واتجهت صوب الجالسين في المعزى، إلا أن شرهان القاطع الذي كان يتجول قريباً بزيه الزيتوني طلب من الجنود الرجوع إلى آمرهم وأن يتركوا أهل القرية يعبرون عن مواجعهم وأحزانهم، وهو سيكون مسؤولاً أمام الحكومة إذا جرى في المعزى ما يخدش الأمن أو يسيء للحكومة! ولم يجلس شرهان القاطع في أي معزى من معازي القرية، فقد كان يخشى أن يتعداه المسؤول عن صب القهوة ولا يصب له في فنجانه، وذلك أسوأ عار يلحق بالرجل في القرية، إذ بعدها تتطلق منه زوجته وتُحرم عليه، وعليه أن يغادر مهاجراً إلى مكان آخر، فلا أحد يوافق على وجوده!.

"ويقول وادي كعيد البلام في مذكراته، إنه في ذلك اليوم قرر قراراً لا رجعة فيه وهو يجلس بين أبناء عمه وأخواله في المعزى، المقام على روح جاسم العطية أن يترك الجوابر ويهيم على وجهه في أرض الله الواسعة، وتذكر تلك اليوميات التي تركها معي، إنه استطاع الإفلات من قبضة قرية الجوابر والأهل والجنود، وساح في البلاد طولاً وعرضاً بلا أوراق أو ما يثبت شخصيته، لكنه وجد عملاً عند تاجر في بغداد وأخلص له في العمل، ورأى أمانته وحسن خلقه فقرر أن يبعثه إلى خارج البلاد ليرعى تجارته من هناك واستطاع التاجر بما لديه من مال ونفوذ أن يزوده بالأوراق المطلوبة ويسهل له إجراءات سفره، فسافر بعد ذلك من دولة إلى دولة وعبر البحار، حتى أستقر به المقام في طنجة ملتقى البحرين، وبالرغم من المسافة

البعيدة عن الوطن، كان دائم المراسلة للأهل والأصدقاء في قرية الجوابر، وقد وردته رسالة منهم فيها أن فرحان الذي أُبعد إلى إيران قد سافر إلى تايلند وتزوج هناك من تايلندية تدين بالبوذية وافتتح مطعماً لبيع السمك المقلي، وشد ما آلمه وآثار استغرابه هو ورود رسالة تخبره أن ليلى بنت السيد مهنا، حبيبة وادي القديمة قد تزوجها شرهان القاطع، الذي يتعاون مع الحكومة ضد أهله وعشيرته، وأن الأب -سيد مهنا- لم ينطق حرفاً منذ رأى الحفيظ يُسرق، وأنه لم يعترض أو يوافق على زواج ليلى، وأن زواجها كان صفقة لإنقاذ السيد الشيعي - مرتضى- لئلا تعتقله الحكومة وتعدمه بتهمة الولاء لإيران، والبلاد في حالة حرب طاحنة معها منذ فترة طويلة، وفي رسالة أخرى نقلها له عابر سبيل عرف أن شباب الجوابر أسسوا حزباً شيعياً وجناحاً عسكرياً يقاوم جيش الدولة، ولكي تحد الدولة من نشاطات الشيعة في الجنوب عمدت إلى تحويل مجرى نهر دجلة لئلا يصب في الأهوار، وبعد أشهر قليلة من ذلك العمل جفت الأهوار، وعاش شيخ المعدان وسط الحفر والمساحات القاحلة الجرداء، وأخذ يردد في ذلك الصيف الساخن والغبار يلفح عينيه وهو يرى إلى الهياكل العظمية للجاموس الذي نفق منذ فترة طويلة: "لقد أخبرنا ذلك الشيوعي المارق في ذلك اليوم، أن الدولة ستجعلنا عندما نعطش نجمع بولنا لنشربه وفي حينها لم نصدقه رحمة الله على روحه إن كان حياً!". ولم يمض وقت طويل حتى هجر المعدان تلك البقعة التي تصحرت وأخذوا يعملون في المدينة خدماً وعمال بناء مع زوجاتهم وأبنائهم، أو يتطوعون في الجيش، الذي كان وقتها يحارب إيران.. كل تلك اليوميات وضعتها أمامي، "يوميات وادي كعيد البلام " لأجد فيها ذلك الخيط الواهي الذي أبحث عنه: "خيط الحياة في ذلك الجنوب الرائع من وطننا الذي تحول إلى رماد!..".
المحمدية - المغرب 1998.7.18.

1- جمع "هوسة"، وهي أبيات من الشعر الشعبي لزيادة الحمية وتشبه الرجز العربي، وتقال باللهجة الدارجة.

المؤلف في سطور

فيصل عبدالحسن

كاتب وصحافي عراقي ولد في العراق ـ البصرة 1953

بدأ يكتب قصصه القصيرة وهو لا يزال طالباً في الإعدادية، وقد بدأت حياته العملية في فترة مبكرة مما أغنى كتاباته بلمحات إنسانية وواقعية مما يعيشه مواطنوه من مختلف الطبقات وفي فترة مبكرة كتب أولى قصصه القصيرة ونشرها في مجلة ألف باء العراقية في أوئل السبعينات، وكان منبر ألف باء الثقافي من المنابر الثقافية الراقية في العراق، إذْ كان ينشر فيه قصاصو العراق وكتابه المهمّون، وكانت قصص الكاتب الشاب المنشورة تحكي عن مشاهداته وما يقع له من حوادث في مدينة البصرة..

فازت قصته "الطير" بالجائزة الأولى بمسابقة ثانويات العراق العام 1973 وكان وقتها في السنة النهائية من الدراسة الثانوية.

ونشرت قصته الفائزة العام 1973 في مجلة ألف باء وهو لا يزال طالباً في الثانوية.

شجعه ذلك على مواصلة الكتابة في القصة القصيرة والطويلة في السنوات التالية.

أكمل دراسته الجامعية في جامعة البصرة وتخرج من كلية الهندسة في العام1978 بتفوق، وخلال سنواته دراسته في كلية الهندسة لم يتوقف عن كتابة قصصه القصيرة والطويلة، فنشر روايته القصيرة الأولى"قارب الغبش" في مجلة الطليعة الأدبية ببغداد 1977.

ونشر بعد ذلك:

المجموعات القصصية :

العروس –قصص- 1986، دار الشؤون الثقافية/ بغداد
ربيع كاذب –قصص- 1987 ، دار الشؤون الثقافية/ بغداد
جنود ــ قصص ــ 1988، دار الشؤون الثقافية / بغداد
رواية قصيرة "سنام الصحراء" 1983 نشرت في مجلة الأقلام العراقية 1983
رواية قصيرة "فردوس مغلق" 1984 نشرت في مجلة الطليعة الأدبية 1984
رواية "الليل والنهار" 1985، دار الشؤون الثقافية / بغداد ـ الراوية الفائزة بالجائزة التقديرية للدولة.
رواية "أقصى الجنوب" 1989، دار الشؤون الثقافية / بغداد ـ الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية لوزارة الثقافة والإعلام العراقية.
رواية "عراقيون أجناب" 1994 / عن دار الأحمدية للطباعة والنشر والتوزيع ـ الدار البيضاء
قصص " أعمامي اللصوص" 2002 / وكالة الصحافة العربية ـ القاهرة
رواية "سنوات كازابلانكا" سنة 2011 / طبعة إلكترونية عن دار أي كتب ـ لندن
رواية "تحيا الحياة" 2014 / دار مومنت ـ لندن
قصص "بستان العاشقين" ـ قصص ــ 2016 / دار الشؤون الثقافية ـ بغداد
يوميات " أوكسجين للموتى" 2016 / دار الشؤون الثقافية ـ بغداد
نقد " السرد في زمن الإبداع" 2017 الشارقة – كتاب مشترك مع الناقدين د. رشيد بوشعير ود. صبري مسلم حمادي.
رواية "الرحلة العجائبية" 2023 / دار الصحيفة العربية بغداد و دار العراب دمشق
ونشر قصصه القصيرة ومقالاته الثقافية في مجلات عربية كالآداب البيروتية، والموقف الأدبي السورية، والثقافة العربية الليبية، ومجلات خليجية ثقافية، كمجلة البيان الكويتية.

غادر العراق 1994 وعاش في دول عربية لفترات قصيرة، كالأردن ومصر وتونس، وعمل بعد ذلك في ليبيا كأستاذ في المعهد العالي للمهن الشاملة في جنوب ليبيا بمدينة سبها منذ 1995 ولغاية 1997 وانتقل بعدها إلى المملكة المغربية، وخلال سنوات إقامته بالمغرب نشر العديد من الأعمال الإبداعية.

· نشر الكاتب عشرات القصص ومئات المقالات والبحوث في الآداب والفنون والفكر في الصحف والمجلات العراقية والعربية.

· قصصه تدرس في كلية الآداب جامعة قار يونس الليبية.

· ترجمت قصصه ومقالاته إلى الانجليزية والروسية والفرنسية .

· صارت روايته الليل والنهار المنشورة عام 1985 مبحثاً لرسالة الدكتوراه في الآداب في جامعة المستنصرية العراقية عام 1987.

· صارت روايته عراقيون أجناب الصادرة عام 1999 مبحثا لرسالة دكتوراه في الآداب جامعة المستنصرية العراقية عام 2004 .

*** أكمل عدة دورات في الاعلام والصحافة ووسائل الطباعة والمنشورات.. في البصرة وبغداد 1980- 1984**

*** عضو اتحاد الأدباء العراقي منذ عام 1984**

***عضو نقابة الصحفيين العراقيين منذ عام 1987**

*** عمل مراسلا ثقافيا لجريدة الزمان الدولية ولمجلة الزمان – مقرها في بريطانيا للفترة: 1997-2014**

*** وعمل مراسلاً ثقافياً لجريدة العرب الدولية 2015 إلى 2020.**

*** عمل مراسلاً ثقافياً للعديد من الجرائد العراقية كالأهالي الأسبوعية والمنارة النصف أسبوعية ومجلة السينما، وجريدة الصباح، وجريدة العدالة، خلال الفترة: 2005-2011**

*** الكاتب العام لجمعية الرافدين العراقية في المغرب خلال الفترة: 2005- 2011**

***رئيس فخري للعديد من النوادي الثقافية في المغرب منها منتدى 2100 في الدار البيضاء منذ عام 1998.**

*** للتواصل مع الكاتب:**

الهاتف: 00212667325931

faisal53hasan@gmail.com

فيصل عبد الحسن

رواية ... عراقيون أجناب

❑ «عراقيون أجناب ..» ليست مجرد رواية إنها أيضا لوحات مرسومة بيد فنان تمتلك فرشاته السحر و القوة إذ تعكس واقعا انطباعيا لجهة ما من الأرض تعصف بها الحروب و الانقسامات و الخوف و الجوع، و لا يملك أهلها عدا أن يتمسكوا بطيبة قلوبهم فهي الشيء الوحيد الذي لا يستأصله الموت العاصف هناك.

❑ في هذا الموت الذي يحفل بكل شيء يأتي الجنس و توظيفه، لا يأتي ناشزا أو نافرا عن باقي عناصر أوضاع الحياة المأساوية التي تعرض لها الرواية، لقد جاء الجنس هنا في بؤرة الجحيم ليكون ترميما أو تطهيرا لذوات متشظية أساسا ففي إحدى فصول هذا العمل الروائي ستقف أمام فتيات ليل بريشة تولوز لوتريك العربي.

❑ و الممتع أن الأديب يزاوج ما بين أسلوبي الجد و السخرية إذ يقودك في أمكنة ساخنة و متوترة و فجأة ينعطف بك إلى مكان ساخر يهبك ما يلطف مرارة ما كان.

❑ إننا أمام مثلث إذا كان ضلعه الأول التشكيل و الثاني التنقل بين عنصري التراجيديا و الكوميديا فإن الضلع الثالث هو ضلع اللغة المتمكنة أيضا، فلغة الوجهاء و المثقفين هي غير لغة البسطاء و الفلاحين و العوام.

فهلا ترافقنا سوية لنلج هذا المثلث.

زهرة الزيراوي
روائية من المغرب

الأحمدية للنشر
6، اقامة عبد المومن، رقم 6، شارع حمزة بن عبد المطلب، حي النجد. درب غلف، الدار البيضاء
الهاتف : 01.31.16.86/25.22.33